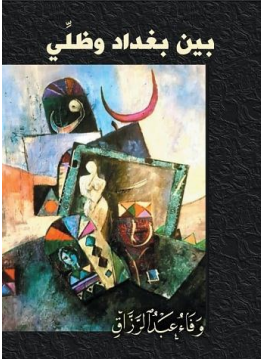


بين بغداد وظلي³¹



وفاء عبد الرزاق



• الكتاب: **بين بغداد وظلي**

• المؤلفة: **وفاء عبد الرزاق**

• التصنيف: **رواية**

• الطبعة: **الأولى يناير ٢٠٢٤**

• الققطع: **١٥×٢١ سم**

• عدد الصفحات: **400**

• رقم الإيداع: **٢٠٢٤/٢٨٥٤**

• الترميم الدولي: **ISBN: 978-977-6878-60-0**

• الناشر: **أفاتار للطباعة والنشر**

• لوحة الغلاف: **الفنان/ علي عبد الكريم**

• تصميم الغلاف والإخراج الفني: **الناشر**

• حقوق الطبع محفوظة للناشر حتى يناير ٢٠٢٦

المحتوى يُعبر عن رأي المؤلفة فقط ولا يُعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

ت: 01271131980 (+2) بريد إلكتروني: z.a.senna@hotmail.com

فيسبوك: #أفاتار_للطباعة_والنشر #بيت_المبدعين_العرب

مُقيّد بسجل الناشرين المصريين برقم (١٠٥٩)

بين بغداد وظلي

رواية

وفاء عبد الرزاق

2024

فهرس المحتويات

7	• إهداء
9	• شكر وعرفان
11	• تقديم
13	• قراءة نقدية بقلم: د. وليد جاسم الزبيدي
19	(١) لم يكن شبهي
47	(٢) صرت أشبهه
73	(٣) لا يرتبك انسجامنا.. هناك الأجمل حتمًا ..
101	(٤) نزيل جديد.. وظل هامس
137	(٥) ضائع يبحث عن ضائع
171	(٦) محاصر به حد اللعنة
215	(٧) عناق وظل
255	(٨) شيطنة الظل
289	(٩) بيني وبينه.. خصام
317	(١٠) مرافق غاضب
333	(١١) صمت وظل
351	(١٢) سيعود معي كي يتطهر في النهر
381	• سيرة مكثفة مخصصة

إهداء

رقصة الدَّمْع، مدينةٌ مصلوبةٌ
شيءٌ خارجٌ عن تقويمات الزمن
هي، واعترافٌ، ينتظرُ المغني.



وفاء

شُكْرُ وَعِرْفَانُ

لكل من السّادة الذوات:

أ. د «محمد قاسم لعبيبي»

د. «عايد غالب الطائي»

د. «وليد جاسم الزبيدي»

الباحث والأديب «عبد الواحد شيخ محمود»

الأديبة «سمر الديك»

الفنان العراقي «علي عبد الكريم»

تقديم

الروايةُ فنٌّ لا يعترف بالمسافات؛ فثمة تواصل مهيب بين المدن والبلدان خارج سطوة الجغرافية، بعيداً عما اقترفه الإنسان بحقها من آثام؛ بدءاً من المُسميات، ومروراً بالخطوط والفواصل الواهية، وليس أخيراً البنية والتشكيل.

هذه هي الحقيقة التي تبنتها هذه الرواية «بينَ بَغْدَادَ وَظِلِّي» للأديبة «وفاء عبد الرزاق» عبر حكايات تولد طرية تبحث عن مبتغاها؛ لتنمو مع حميمية السَّرد، فتتواشج وتتألف، وربما تتقاطع في أتون عالم سَردي أقل ما يقال في توصيفه إنه إنساني الوجود والنوايا.

فبؤرة السَّرد في هذه الرواية تنطلق جاهدة للبحث عن الإنسان، وليس من شيء غير الإنسان، (فالإنسان هو الإنسان أينما كان، ومهما تعددت الأمكنة)، عبر متغيرات قد تبدو للوهلة الأولى اعتيادية، غير أنها سرعان ما تفتش عن المخفي والبعيد لتضعه على الطاولة، فيكون موضوعاً للسَّرد وأداته الناجعة، في تناوب دقيق بين الواقع والمتخيل متوسلة بعناصر راسخة للسَّرد تدعمها أدواتها الفاعلة؛ سعيًا منها لتشكيل معمارية السَّرد وبنيته الخاصة كما ينبغي.

هي دعوة لاكتشاف الذات تحمّل أعباءها خطاب سردي رحلي،
تجاوز حدود الفضاء الجغرافي المحدد، غايته الانفتاح على الآخر
المغاير بوصفه حيّزاً ثقافياً، وتلمس أسرار ثقافته بأبعاده
الجمالية عبر تقنيات سردية تميل إلى التوثيق في الرصد والمعاينة
تارة، والوصف والخيال تارة أخرى.

إنها لغة السرد الحية التي تضع القارئ أمام الفرصة تلو
الأخرى؛ لتستله من هوّة النكوص نحو عوالم أخرى لم يعهدها
من قبل، وتمنحه المساحة الكافية ليكون كما يريد هو، لا كما
يريده سواه.

أ. د. محمد قاسم لعبي

بغداد لا تأكل ظلالها

قراءة في رواية «بين بغداد وظلي» للكاتبة: وفاء عبد الرزاق

د. وليد جاسم الزبيدي

في بناءٍ هندسيٍّ - فكريٍّ، تسوحُ بنا رواية «بين بغداد وظلي»، لأصنّفها ضمن الروايات السايكولوجية؛ لما فيها من تشظٍّ لا (ازدواجية) شخصية؛ بل تناسل وتفرخ لشخصيات في شخصية واحدة، وارتباطات في شبكية معقدة من الروابط والعلاقات.

بين جذبٍ وطردٍ عاطفيٍّ، بين جنون وعقل، تنتصبُ نظريات «سيجموند فرويد» فلا تقوى على الوقوف والصمود أمام العاهات النفسية والظواهر الجمعية المشوشة حيناً، والمغلّزة داخل الرواية؛ في الرواية يكون لكل شخصية ظلال لا ظل واحد، تتشظى الذات البشرية بحكم الحروب وما أفرزته من قحط وفقر ولصوصية و(حواسم)، و(عشوائيات)، ورموز جديدة تطول وتتقزم ظلالها بين فترة وأخرى، لم يكن (الظل) عند الشخصية صورة واضحة الملامح، بل تكاد أن تكون زئبقية، فتكون طفلاً أو كهلاً...

- الازدواجيات المتعددة في الرواية تبدأ:

• **الصورة الأولى للظل:** من ذات الكاتبة، فمن تتبَّعي لكتاباتهما؛ فللمرة الأولى تكون ظلًّا للذكورة (لرجل)، وتحمل نفسًا طويلاً في لعب هذا الدور، وتحس وتتحرك وتنقل الألفاظ والعبارات بصيغ رجولية، بعيداً عن خطابها الأنثوي الذي يتحرك في رواياتها السابقة، وتكون هي مَنْ تحمل وتبني الحبكة وتساعد الحدث.

• **الصورة الثانية:** الظلال الأخرى التي تتصارع تارةً، وتضع الهدنة ما بينها تارةً أخرى في صورة البطل (الصحفي) حيث ينشطر إلى (قاسم/ مناضل/ مناضل صالح/ المفقود)، بل أن ظلَّهُ يتغيَّر من صيغةٍ الى أخرى، وبأشكال كأنه أوان مستطرفة.

تقرأ الرواية للوهلة الأولى سهلة؛ تستطيع أن تركب موجتها، وتفكّ مفاتيح شفراتها؛ لبساطة العبارة، والانتقاء للمُفردة الواضحة المفهومة للمُتلقي، لكن بعد حين تصطدم بصور تجعلك تعيد النظر والتقدير في المفاهيم وأسس بناء الرواية. هي ليست مقالاً صحفياً، للبطل (الصحفي)، وليست انعكاس لكتابة تقريرية تُعرض كأنها شريطاً سينمائياً أو تلفازياً لصورة وطن.

حالات السرقة والنهب، والاختلاس، والأفعال المشينة للحصول على الكراسي، وشراء الذمم والأصوات، ونهب الثروات، والتدمير

المتعمد للبناء الأخلاقي، فالبنى التحتية، هل هي من سببت أمراضنا وعللنا، وهذا التشظي، أم أن التشظي هو الذي سبب هذا الخراب؟!

• **الصورة الثالثة للظل:** الازدواجيات المتعددة، جاءت نتيجة لأزمات وحروب طاحنة، أدت إلى انهيار الذات، وتعدّد الصور في الواقع والخيال؛ مما تؤدي إلى فقدان وانعدام الاستقرار والخوف والقلق. وفي الصورة الثالثة نجد سبب انشطارها وغثيانها صورة الفقد، وهي صورة (الشاب الروسي سيفاكس) واضطرابه النفسي، وانعزاله عن العالم وعن أهله (أمه).

• **الصورة الرابعة للظل:** التشظي لظلال الموسيقى بين (العود) وآلة (البالا لايكا) و(الغيتار) و(الساكسفون)؛ عزف على مقام (الصبا) تنشطر الأوتار فالنغمات؛ لتولد بصيغ مختلفة في قنوات موسيقية هي الأخرى أصابتها أمراض نفسية؛ لأنها تخرج من النفس، وهذه النفس تدخل في الآلة هذا الانشطار والخوف والقلق.

• **الصورة الخامسة:** ظلال العائلة؛ العائلة التي كانت تُبنى بنظام سليم، وهي اللبنة الأولى في بناء المجتمعات، كيف بناها (قاسم / مناضل) من أناس مشردين (العجوز - مسعود، الأطفال - جواهر

وهمام، الشابة - جميلة). ظلالٌ غير متناسقة وتحل كل ذات منها تاريخ من الألم والعاهة المستديمة في الفقد بكل أشكاله.

• **الصورة السادسة:** ظلال الفن التشكيلي والنحت: امتدت في ثنانيا الرواية صور توصف المقتنيات والنصب في ساحات ومتاحف (بغداد) و(موسكو) و(باريس)، ظلالها تاريخ وقصة كبيرة؛ فالمنحوت له ظلال، والفنانون (النحاتون) لهم ظلالهم فيما تركوا من أثر وفكرة، في بغداد كان (جواد سليم / محمد غني حكمت / خالد الرّحال)، وظلال أعمالهم (نصب الشهيد/ الجندي المجهول/ نصب الحرية/ الفانوس السحري..)، وظلال الفنانين الروس (أندريه روبيلوف/ ألكسندر إيفانوف/ فاسيلي سوريكوف).

• **الصورة السابعة:** ظلال المكان: لبغداد ظلالها التي تلاحقها أيضاً؛ فتكون فقيرةً تارةً، في أحياء شعبية، ومناطق لا تصمد بوجه الأمطار، ولا تحمي ناسها من جمر الصيف، وظلال في قصور فارهة خدماتها (VIP). بين صور قبج وجمال، ونقاء وزيف؛ بين عقول ونفوس تتوق لوطنٍ معافي، وعقول خاوية لا تعرف إلا الهدم طريقاً لبقائها؛ ذئاب تستحوذ على المدينة، تنهش كل شيء.

- **الصورة الثامنة:** ظلال الملابس: للملابس حكايات في الرواية، ولكل ملابس حوار وظلال تلقي بفكرتها على الآخر؛ فالآخر أصبح

آخرين، الملابس والعطور عند رجال الصدفه هل تخفي تشوّهاتهم الأخلاقية؟ أمثلة: الظل يلبسُ (البيجامة)، والظل في شراء ملابس لشخصين بنفس المقاس، وصوّرُ أخرى لظلالٍ تتشابك وتتجاوز في ظلال الصفحات وبين السطور، لكنك حين تقرأها لا تتوه بل هي إشارتٌ تُدَلِّك على الطريق الذي يوصلك الى الدلالة.

الرواية عمودها الظلال، والمكان، وفقراتها الصحافة ودورها في كشف الحقيقة، وبناء مجتمعٍ جديد وإِِ لقضيته وبقضيته.

• الخاتمة: رسالة الرواية، أننا نعيش زمن الظلال التي تُحرِّكنا، علاقات شبكية كأشباح، لكن هذا (الصحفي) ملتزم بقضيته، وتضعه الكاتبة هو بريق الأمل والمنقذ للآتي من الزمن، بقلمه وفكره، ونقله للوقائع، وأن يقف مع المظلومين، الصحافة سلاحٌ ماضي بوجه المتسلطين الذين أمسكوا به؛ لتمرير أكاذيبهم وللتدليس، وإخافة الناس وإضعافهم.

تضعنا الروائية في مصحتها لغرض العلاج النفسي؛ لأن في كلّ متلق ظلال عليه أن يستجمع ذاته، ويؤحد قراره وخطابه؛ ليرى الوطن صورةً أجمل؛ رواية تفتح نوافذ لمستقبلٍ آتٍ تُنبئ به الكاتبة بأن القادم أفضل.

لم يكن شهي

غالبًا ما أمدُّ ذراعيَّ اللتين اعتادت أن تلعبا في الهواء، وإن لم يكن هواءً طلقًا، أرسم في إحداهما شكل قلب، وفي الأخرى كرة أرضية، لا أحب ارتداء ربطة العنق، بينما يسرني وضع ورق شجرة البرتقال على عنقي، بطبعي أعشق العطر الزكي، والتمر، وأودُّ أن أكون صوتي، صوتي الذي أقول له:

- ما أشقاني وأنا أحملك! وليس بمقدوري إلا أن أكونك.

عيناه لم ترمشا، ولم أرَ حدقتيهما جيدًا، كان الشارع مليئًا ببرك الأمطار، وكأنها مستنقعات تنغرس فيها الأقدام.

إنَّ الشعور بأحد يراقبني أو يتعقبني ويتأملني يُثير الرعب أحيانًا؛ لكنني أتغاضاه بما يُشبه التحدي.

حتى لكانه يدخل كل مساماتي وموطئ قدمي، ألمح فيه اختناقاتي من التحدي لمجريات الأحداث في حياتي ورتابة أيامي.

كنا نبحث عن بعضنا حتى قبل سقوط المطر، أعرف أنه لا يملك سيارة، فقد اعتادت قدماه الغوص في الوحل، إذ انتشرت على بنطاله بقع رصاصية ملوثة بالتراب. هل للمرء أن يكون إيجابياً بهذا الوحل؟ ربّما تأملّاتي له أربكنه، أو له توق لشئٍ أجهله.

تأخر كثيراً عن العمل، ورغم الهوس الذي لا يفارقه؛ يهدئ من روع نفسه القلقة من أن يغتسل بماء السماء لو خرج الآن؛ بينما أنا أبحث عنه بين كلّ هذه الأشياء، حتى لو كنتُ تعباً وأتعبت الأرض التي أقف عليها؛ أبحث عنه لأجد ذاتي فيه؛ لأراني أجابُه الحياة بكل قوّة.

لستُ شريكاً معه، كلانا يقف خلف الآخر، ولو وقفتُ ثلاث ساعات دون حراك؛ يقف هو الآخر ويتخشّب.

له علاقته الخاصة، ولي فردوسي الخاص بي، وكعلاقة بين الجحيم والجنة نبدأ أيا منا، لا يهمني إن ارتديت أو لم أرتد ما يعيق كرامتي من ملابس فاخرة، أهرب دائماً من التفاخر؛ بل أفف مُحنطاً لاكتشاف هذا العالم المخملي، الذي يتظاهر التمثال فيه وينتهيأ له أن الملابس تعيد بناء الإنسان.

المبدأ لا يحتاج إلى هذا الضجر المزيّف؛ بل إلى الدائم في الإدهاش الإبداعي والإنساني، إنه الشقي الذي لم يتزوج، ولم يقترب من امرأة، يفاجئني دائماً؛ ليربط بيني وبينه علاقة غريبة.

قبل ثلاث ساعات كان يرتدي سترة بنية، وينظر من خلال النافذة إلى مدينة كلّ ما فيها مؤامرة، بينما المطر يبّل كلّ شارعٍ فيها؛ لهذا اهتزت الأشجار تحت وابل أزيز الرياح خاضعة لصوت الأزيز، وعلة المطر. المطر يصبح علة على الفقراء، ونزهة لأصحاب القصور. فالشمس هي ذاتها، تلمع هناك، وتحرق هنا. وكما أية شفة، محملة بالعتاب هنا وبالقبلات هناك.

كلّ ما وقع عليه بصره كان سيئاً، حتى سور حديقته الذي تساقط بعض خشبه متأثراً بقوة الرياح.

كان يمشي مسرعاً، وتعبيراً عن رغبته في الوصول إلى غرفتي الدافئة؛ تسلل السور، وفتح الباب بقدمه المبتلة، أغلق النافذة التي أطلّ منها، نزع سترته البنية المبتلة ودخل فراشي؛ أظنه يتوقعني سأخلق فجراً جديداً، كما كنت أتوقع دخوله الحمام ليغتسل، أو يشرب شاياً ساخناً؛ لكنه مثل أرعن قام بتتشيف شعره بمنامتي، رماها أرضاً، ارتدى أخرى معلقة على مشجب فوق الباب ونام.

بينما أنا أتصعب عرقًا كلما نزلت أَيْامي ثقل لحظاتها، حتى ما أهواه لجرح القلب، ومن ضمة فرح مباغت.

مرة أخرى أقف أمام هذا الواقع مندهشًا، تتسرب الصور من تلقاء نفسها إلى عيني، أحاول أن أرتبها ولا أتركها بهذا الشكل العشوائي؛ تهرب مني لوضعها السابق، فالواقع غير معروف، ولا نهاية واضحة تجعل الصور تستقيم.

ما أعرفه أنه لا يُصَلِّي، لكنه نهض السَّاعة العاشرة صباحًا وصَلَّى؛ ضحكْتُ عليه في سرِّي، ليس لجهله مواقيت الصلاة، فهو قادر على أن يقوم بها على أتم وجه، بل كان يُصَلِّي للهروب من الخواء العالق بين أضلاعه، التقرب إلى الله لا يحتاج إلى وقت معيَّن.

وربما ليثبت لنفسه أنه ابن المدينة التي تحترم المصلِّين، أو رأى حلمًا أوحى إليه بذلك. لا أدري ربما اتخذ نهج التقية هنا، أو الواقع أشار إليه أنَّ الدين الآن جاهز لاغتياله!

أو هناك روح هوجاء تسللت إلى بدنه، وأجبرته على الرجوع إلى قصة "هابيل وقابيل". إنه افتراض مجنون للتخمين عن ذئاب

الواقع. افتراض مَنْ يقف على رأسه، ويتعقب مخلوقات غريبة
تمشي على السقف.

استغربتُ من سؤال مرق في بالي: هل يغتال الدين مَنْ يُجهر
بالحقيقة؟!

واستغربتُ حضوره في داري، ووضعي الآن غير مؤهل ليكون
معي.

شاركني احتفالي الصباحي في احتساء القهوة، شعرتُ به يزاحمني
في جلوسي على الكرسي. أمدُّ يدي، يمدُّ هو الآخر، أضمها،
فيضمُّ. أسكر النفس بما لا يستطيع الوصول إليه؛ فيصمت.
أتخيل صورًا كثيرة مرَّت عليّ؛ فيعتريه السكون. كأنه يقول لي:
أعرف بماذا تفكر.

أمسكَ بيدي وفتح التلفاز، عُرِض فيه مشهدٌ لشابٍّ يافع مكتوف
اليدين رُبِطت يداه بسلك من البلاستيك العريض المجدول، وقد بان
حَزٌّ عميقٌ على كفيِّ الشاب، ونزيرٌ بعض الدم من شدة الربط.
الغرض من عرضه على الملأ للترهيب والإنذار بالنتخيف. بحثتُ
ساعتها عن وجه المقنَّع المتلذذ بتأرجح الصبي بين الهواء والعصا،

ونظرة عينه المتشفيّة، وقارنت بين عين أمّه وأمّ هذا الصبي.
كلتاها من تسعة شهور، وكلتاها أمّ وساعة مخاض ووحام.

تذمّرتُ في حركة لا إرادية، فتذمّر معي ودفع نفسه عليّ؛ كلما حاولت التفكير بشكلٍ مختلف، يعرض التلفاز طفلاً آخر معلّقاً في السقف، لا يتجاوز عمره الثامنة، ورجلٌ يجزّ شعرَ رأسه المتدلي إلى الأرض، الطفل يستجير والرجل يشتم، بعدها نزل على الجسد الطري بالضرب بالحبال العريضة المجدولة والعصا، وتناوب بين الحبال والركل، والطفل يستجير ويطلب أمّه. وجّه نظره إليّ، فهمتُ ما يريد قوله؛ فسبقته بالقول:

- مهما كان الجرم الذي قام به الطفل، أو الجهة التي تريد تقويمه إن كان أباً، أو مركزاً للشرطة، فالطفولة لها تأديب غير الانتقاص من الكرامة، والضرب العنيف الذي يوحى بمرض نفسي لهذا المتسلط على أضعف شريحة في المجتمع؛ حتماً سيصبح هذا البريء مجرمًا، ومهووسًا بالانتقام، حكامنا مثال لهذا الطفل حين كبروا، إن التأوهات العميقة والإحساس بالدونية يولّدان جبارًا قاسيًا عنيدًا، أو متشرّدًا، وربما انطوائيًا وهذا الأرجح.

ليلة البارحة حين دخل غرفة نومي كانت مظلمة والنور مُطفئاً،
كُلّ شبر فيها خال من الضوء. أعرف أنه يأخذ أشكالاً قصيرة
وطويلة، ولم يكن في غرفتي ضوء، يعني لم أحجبه عنه، فكيف
تسلّل إذاً؟!

أما قبل يومين، وقتما رنّ هاتفُ مديرِ المكتبِ الإعلاميِّ الذي
أعملُ لديه، كانت الظهيرة في أوجها، وحرارتي مرتفعة إلى
الأربعين، بسبب عارض صحي، أمرني المدير بالحضور، ورغم
علّتي، وقفتُ عند جادة الشارع منتظراً سيارة أجرة تمرّ، وقلقي
ووجلي من هذا الطلب المفاجئ؛ ظهر لي قصيراً لا يُشبه طولي
الحقيقي؛ فأنا فارغ الطول ونحيف، وحجمه طويلاً وعرضاً مختلف
عني. بالكاد حصلت على سيارة تقلّني إلى مكتب الإعلام في
منتصف المدينة، وقد بدا عليّ الإعياء والإجهاد من السخونة،
فأرفق لحالي مساعد المدير طالباً مني تغطية صحفية عن
حضور وزير مهم في الدولة لمأدبة عشاء في دار أحد أعضاء
البرلمان.

بقيت أناقشه حول المأدبة، وهل هي ذات أهمية لنكتب عنها تقريراً
صحفياً، لكنه كان يقاطعني في كُلّ سؤال أطرحه، وأخبر أحد

المصورين مرافقة الوزير من داره حتى وصوله مكان المأدبة، متغاضياً نقاشي، ثم طلب من آخر الحضور مسبقاً لدار البرلماني، وحالما تصل سيارته مع وفده يبدأ بالتصوير.

أخذ نفساً عميقاً من سيجاره الفاخر، وقال:

- يمكنك المكوث بالبيت، ونقل الخبر من المصورين.

بتمتة مخفية قلت:

- يا لحظك العاثر يا وطني!

انتبه لي متسائلاً:

- ماذا؟!

- لا شيء أستاذ، أتوقعه سيكون خبراً مزيّفاً؛ بسبب عدم حضوري

لموقع الحدث!

حدجني بنظرة غريبة:

- وهل كلّ الأخبار حقيقية؟! عليك أن تحمل وجهين لتكون

صحفياً لامعاً؟ أو أديباً يُشار إليك بالبنان والترحيب والتهويل.

استمع إليه بمرارة، وأبتسم في وجهه موحياً أن كلامه الصواب بعينه. شعرت بلساني ينشق لنصفين، بجهد جمعهما وغادرت، لئلا أصبح مغايراً لصوتي.

فضلت الرجوع إلى داري مشياً على الأقدام، مررت بأرامل وعجائز يفترشن الطريق، بعضهن أخفين وجوههن ومددن أيديهن عفةً وتعففاً، والبعض أمامهن حلوى منزلية صنعنها من كرم الدولة لهن "المؤونة" كرم شحيح قاسي الإنصاف.

أطفال بعمر الورد تركوا مدارسهم بسبب اليتيم؛ ساروا خلف مسار اللقمة كيفما وأينما تكون.

التقطت لهم صوراً في هاتفني النقال، خليط من الملائكة الجائعة، أحتفظ بها لحين يأتي دور الرحمة الأخلاقية وينتبه إليها أحد.

لم يضعوا أي واق عن الشمس؛ لأنهم لا يملكون غير أجسادهم تقيهم من القیظ!

في الشارع، هم وأصرارهم على البقاء، وخبزة يقتسمونها مع أخوتهم. هؤلاء الملائكة، سيموتون على الأسفلت، سواء بواقٍ أو بدونه؛ هكذا حكمت عليهم دولة النفط، حين صار الصمت السنة خرساء.

صورة التقطتها لطفل في الخامسة يعمل حمّالاً؛ بقيت هذه الصورة تمدني بالعزاء، كلما استرجعتُ ذاكرتي أننا أبناء "جلجامش".

لم يخطر في بالي أي سطر سأكتبه عن حضور تلك الوليمة التي لن أحضرها بالأساس. خرج قسٌّ من كنيسة قريبة من داري، راسماً علامة الصليب على صدره، ظانّاً أنها ستحرسه، ابتسم لشابة تقف عند باب دارها، ومسح عرق جبينه مما أصاب ذكورته من هوس الرجولة المقتنعة بالإيمان، وسار متصنعاً الوقار، خشية أن يراه أحد. لا أدري لم اختار لقبه هذا اللون؟ لربما يحب السواد تماشياً مع لون "جبّته"، كما لا أدري لماذا لا يثأر الله لهؤلاء المساكين؟ وهل يشفع لتوبة ظالمهم؟

أليست هذه الأفواه الجائعة ملائكة؟

لماذا يقتلون ملائكته على الأرض ويصمت؟

ولماذا يتعاشي الناس مع الصمت؟ لدرجة أننا عشقنا وجوه الألم وألفناها كأننا نعيش في سفينة موشكة على الغرق؛ هذا كلّ ما دار في فكري وأنا راجع.

كانت طفولتي تسير أمامي، تتعثّر في ظلام حالك رغم أننا في وضوح النهار، دارت حول نفسها دوران مرعب وغابت.

حين فتحتُ الباب لاحظتُ به حركة غريبة لم آلفها من قبل،
المقبض يتحرك يمينًا بلحظة أدير المفتاح يسارًا، عاندت نفسي
لأكذب ما أرى، أدت المفتاح إلى الجهة اليمنى استدار المقبض
يسارًا.

انتظرتُ برهة واقفًا أمام الباب، ركلته ركلة خفيفة بقدمي، ففتح من
تلقاء نفسه.

كنت عطشانًا، وبمجرد التفكير بذلك؛ فُتح باب الثلاجة.

أوعزتُ ذلك لهلوسة السخونة، فهي تتناوبني لأي عارض صحي
وتنهكني الحرارة، رميت نفسي على الفراش ورحت في نوم عميق.
كنت منكمًا لدرجة أنني أرى نفسي قزمًا تارة، وتارة أخرى أستطيل
وأملأ سقف الدار بي.

مع الهلوسة تفاقمت التساؤلات، ما الذي يجعلنا راضين ممن
يجاهد بكل قوته للانتقام منا؟

لسنا في مرحلة العبودية القديمة، بل عبودية من نوع تحتاج
"لسبارتكوس رافديني" يزيح كُلَّ الحجب التي أعمت العيون، بل
أعميت من أجل الحقد المقدس، والقتل المقدس، والثراء المقدسة
مشاربه.

رن جرس الهاتف الساعة العاشرة صباحاً، بكسل وتباطؤ حاولت الرد، لكنه انقطع، ورأيت رسالة مكتوبة: (أرسلت بالإيميل فيلم الوزير من ليلة البارحة، ومدير المكتب اليوم غاضب بسبب عدم تصدر الصحف خبر الزيارة). ثم أرفق لي صورته وهو يدير حوارات مع وجهاء حاضرين، وتشع من عينيه المكابدة.

مع كوب الشاي الدافئ، فتحت الإيميل لأرى الفيلم، تعظيم بسيادته، المصورون من صحف وقنوات كثيرة وضعوا لاقطات السماعات أمام المتحدث عن هذه الدعوة، عرفت ثلاثة فقط من كُّل هذا الحشد، المصور الذي اعتاد مرافقتي بكل التغطيات، الوزير الذي عرض التلفاز سابقاً زيارته لمخيمات اللاجئين، والبرلماني الذي يقف أمام قدر الهريس في عاشوراء، هؤلاء الأقرام جعلوا من قيمة ثورة "الحسين" مجرد هريس للنظاھر.

راسلت المصور بأني سأرد حالاً، كتبت مقالة بعنوان: "الملائكة الجائعة"، معززاً ذلك بالصور من هاتفی.

كانت بيجامتي تسير على أرضية الصّالة، كأن شخصاً قزماً ارتداها، المشي صحيح لكن يخط على الأرض نصف متر من كُّل قدم.

الهلوسة؟ لا؛ قلت ذلك وأنا أتابع قرماً غير مرئي، يدور في الصّالة.

الأمر تسير رأساً على عقب، الورق أمامي، مقبض الباب، بيجامتي، الثلاجة، سور الحديقة، المطر، وزجاجة عطري التي فرغت بعشية واحدة على الرغم من عدم استخدامي لها.

خشية أن أقحم نفسي في طرح سؤال آخر، حول عطور باهظة الأثمان تُزكمني رائحتها وقتما يمرق أمامي صاحب مطعم فاخر، أو مركز تجاري كبير، أي رجال الصدفة وثرء الصدفة. لكن السؤال حاضر دائماً مهما اعتصرني بألمه المستديم:

- هل عطورهم وملابسهم الفاخرة تخفي تشوهاتهم الأخلاقية، وعفن السرقة؟

أفقت صباحاً رائق المزاج، اختسيت كوباً من القهوة، وأعدت مشاهدة فيلم الوليمة والمأدبة الكبيرة التي حوت كلّ ما لذّ وطاب، بينما هناك وجوه تنام على الأرضفة وقد اصفرت من الجوع، وتفرحت جلود من البرد والشمس والعري. خطر في بالي انتقام الله لهؤلاء، لكنني أصاب بالخيبة كلما فكرت بهذا الاتجاه!

ننتظر خير المطر على الأرض، الذي هو شر وظلم على مفترشي الأرصفة.

معادلة صعبة لو فكرت فيما إذا السماء تعاقب الضعفاء؛ لتعطي مساحة لانتشار الشر.

الباعة المتجولون من الأطفال والنساء لهم مدخل خاص بجنة الله، لا عذاب ولا سؤال في القبر كونهم ذاقوا النار والعقاب على الأرض. العقاب يرافقنا من المهد إلى اللحد!

ثم سمعت ضحكات عالية في الفيلم، صادرة من صاحب الكرسي الكبير الجالس قرب الوزير، بعد أن أطلق نكتة ماجنة، تمايل لها الجميع طرباً وتلذّذاً، وهو يسردها قائلاً:

- إنها قصة حقيقية وليست مزحة، لكني كلما تذكرتها اتسعت ضحكتي، وتذكرت لذتي في مساحة الجسد العاري، وهو يتلوى ألماً تحت يد صديق لي اشتراه بقيمة مئة دولار.

عشر سنوات طرية باعها أبوها؛ ليطعم بقية العائلة بثمنها، طفلة شقراء لمّا يزل نهداها ينفر بين يدي صديقي المتزوج بأربع نساء، وله أحفاد متزوجون.

امتعض وجه صديقي المصور، ولاح بريق الدمع في عينيه، لكنه كظمه، وبادل الجميع ضحكاتهم المجانة عن كيفية التعامل مع هذه الطفلة من دبر وفم وفض بكارة.

رأيت الجشع دسّ في جيب الأكرش مبلغًا من الدولارات هامسًا في أذنه:

- لتكن وليمتنا الأخرى من هذا النوع؛ هز الأكرش رأسه فرحًا بدوره الجديد طالبًا عمولته.

كنتُ محقًا حين أرسلت مقالي للجريدة معنونًا بـ: "الملائكة الجائعة".

السُّخونة أعيتني، والألم يتضاعف مع سعال حاد واختناق، والمرض يختار الذين هم جزء من المدينة، والمدينة جزء منهم.

الحبس الإجباري جعلني أعيد النظر فيما كتبتة سابقًا، ومواقفي وتعاملي مع الأشياء..

يدور في خاطري لحن يترجم مشاهداتي، لكن أجد أصابعي عاجزة عن اللعب على أوتار "العود"، يغيب عني وحي الإبداع أحيانًا، ويصبح عصيًا لسبب أجهله.

فعلًا أجد نفسي عاجزًا عن تحويل الأفواه المكبوتة، وكتبها
الإجباري بالمسدسات والبنادق والاختفاء بين غياهب المجهول،
إلى لحن.

بعد تقرير الملائكة الجائعة ربما سأغيب أنا أيضًا إلى حيث لا
جهة ولا عنوان.

الاقتتال والتزوير من أجل سرقة قطعة أرض، وقتما عالجته في
مقال سابق رفض المدير نشره؛ معلًا أنني تجاوزت الحد المسموح
لي باتهام القضاة بالرشوة، وهذا اعتداء على سلطة القضاء
بأكملها.

حين جادلته بأنها الحقيقة، يزورون كل شيء، وقد حكى لي
صديق عن تعامل القاضي معه، كيف يُصمت صوت المجني
عليه بسرقة أملاكه، ويسمع للجاني ومحامية المزور، ويعتبرها
حقيقة مطلقة.

نهرني وقتها:

- هل تريد إغلاق جريدتي؟

المسألة مسألة إيمان بالحقيقة وكشف التزوير، أو عدم الثقة والثقة المطلقة بمبدأ الصحافة الشريفة.

شهود الحقائق بين الخيار الصعب وشراؤهم بملء جيوبهم بالدولارات، وبين أروقة السجون المكتظة بهم.

اختيار صعب، إمّا أن تعيش في قصر، أو يأكلك القمل في السجون؛ ورأفة السّجن هبةٌ أو واسطة لتخفيف جريمة القتل عليك واتهامك بأباطيل لا صلة لك بها.

الصّحفي في بلد مثل بلدي، مع أو ضد السّلطة بالنتيجة؛ إمّا يخرس أو يبقى بين نارين!

صحفيو المنطقة الخضراء، ببغاوات يرددون ما تُملى عليهم من أخبار في الهاتف النقال، غير ما يجري خلف الأسوار. ما الذي ينقله الصّحفي الساكن بفندق ضخم وحماية مشددة؟ لا ينظر لاستفهاماتي ، ويخشى التقرب منها؛ يصمّ أذنيه، يُغرق عينيه بالقتامة، وتحاشى حاسة الشم.

ما نراه في التلفزة، والأخبار ودبلجة الخبر من لغة الشعب والشارع، إلى لغة صحافة وتلفزة تابعة؛ حتّى لا تنتمي لتلك الطفلة

ذات العشر سنوات، لذلك حينما صرخت تألمًا لم يفهم لغتها أصحاب الكروش.

إن انتهاك الطفولة هو انتهاك للشمس؛ فويل لبلد تُنتهك شمسها.

تعذيب البشر إلحاد أكثر خطيئة من عبادة الأصنام. كم نحن بحاجة إلى النظر للوجود بعين أخرى! غير عيون القوارض والأفاعي، ونحو الافتراس إلى محبة!

اختيار الفقراء والكسبة كبشًا لفداء الخصومات بين المتنافسين على السلطة. في سوق للملابس المستعملة، للأكتاف العارية والنساء بما يجود به عرق الجبين للقيمة العيش. إن قتل العشرات من المدنيين العزل يمرّ مرور الكرام، خاصة حين سقط عرق الشرف من الجبين.

المعروف أننا نبكي من شدة الفرح، وهذه الأنوار التي انطفأت، كيف سنبكيها؟ هل نقالب المعادلة ونقول نضحك من شدة الحزن؟ كلما تذكرت ذلك يخفق قلبي بشدة وينقبض صدري.

أيتها السماء، كيف ستحتضنين أرواحهم العزل والفقراء؟ بجحودك المعروف؟ أم بموسيقى صاخبة؟

لم يتحمل الذي يرتدي بيجامتي ذكرياتي عن تلك الحادثة، فصار
يصول ويجول في الصّالة تاركًا أثرًا نظيفًا على الأرض، بسبب
مسح ما تدلّى من قدميه من أطراف بيجامتي؛ التي تغير لونها
وصار رصاصيًا من الأتربة، وبسبب مرّضي لم تسعفني قواي
على التنظيف لمدة عشرة أيام.

لكن منظر الطفل ماسكًا بيده إبريق الشاي ورأسه المتدلي بدمه
على أرض شربت دماءً طاهرة تسترزق، وصمة عارٍ بحق
الإنسانية.

النتيجة إدانات، إدانات يا صاحبي القمر، إدانات!

- ماذا يعني أنك تُدين؟

أجيب أنا، طالما الإجابات عاقر! يعني أن الساسة ارتدوا نظارات
سوداء أكثر قتامة من السابق! ويعني أنهم أكثر جبنًا ويتعاملون
مع من يصدر لنا الموت بخسة ودونية لا علاقة لها بمفهوم
الرجولة.

أشعر بتحسن صحتي اليوم، فحضّر نفسك أيّها القمر، أنت مدعو
لوليمة من صنع يدي. حبذا لو لا تبقى مجرد أقدام وهيئة لا
أستطيع التعايش معها.

لستَ قريني، مع هذا تلاحقتي، تسمع معي، ترى ما أرى وأكتب،
وتتأثر فيما أتخيله من أحداث.

أفتخر أنني نشرت سابقًا مقالات ثقافية تنهض بالإنسان العادي
إلى مستوى يعرف من خلاله حقوقه في العيش بسلام وأمان في
وطنه؛ لذلك كان أصدقائي من باب المزحة يقولون: حضر السيد
"عارف".

والسيد "عارف، أو "أبو العُزَيْف" كما تُقال لكل من يعرف الأشياء،
هو اليوم مع بيجامة تمشي في داره، منتظرًا نتيجة مقالته عن
"الملائكة الجائعة".

قفزت بيجامتي على الكرسي المقابل لي، وأشارت بكم الردن
بالإيجاب!

أخذ صاحبها قلمًا بين أوراقي على طاولة الطعام، كنت أرى
كلمات تتحرك :

- أنا أشتهي أن أشم رائحة السمك، ما رأيك لو نخرج لسوق
السمك؟

ولأنني أعتبر نفسي مفصولاً من عملي منذ اللحظة أجبته:

- دعنا نختار السمك "البني" لأنني أحبه مقلّياً.

أخاطبه واللحن يجري في عروقي مجرى الماء في النهر.

كتبها وتردد في الخروج، لم أجد له رغبة حقيقية؛ أعذره فهو يخاف الأسواق والأماكن المكتظة خشية عبوة ناسفة تقضي على الأحلام المؤجل تحقيقها.

صديقي المبدأ، يرافقني منذ الصغر؛ لكن أحلامي مؤجلة، وها أنا ذا شارفت على الخمسين، وما زال أسمى "أبو العرّيف" أو العارف وكأنها تهمة أزلية، حتى أنت لم تأخذ طولي الحقيقي وشكلي. لماذا اخترت أن تكون قزماً؟ وأين ستأخذني معك؟

لم يرد، ارتدى بنطالي الأسود وقميصي الأبيض المقلم باللون الأسود وتقدمني في المشي. غريب الأطوار، يطلب الذهاب إلى السوق، يتردد، يتأملني ويخرج.

- غريب أنت اليوم، ولا أدري لماذا اخترت لك زاوية واحدة من سقط الضوء وقت الظهيرة، وأصبحت أقصر مني.

هل تحب ضوء الشَّمس المسلط عليّ؟

ولماذا تركض أمامي اليوم خائفًا؟

احترت في معرفة ماهيتك!

المعروف يا صاحبي أن الشخص المحترم في مجتمعه -لِما يملكه
من صفة الرجولة عند العرب- يكون بمنزلة عالية، والآن لا أدري
لماذا لم تبقى هذه القيم!

هل سمعت بهذه المزحة؟

سكوتك يؤيد فكرة أن الجُبْن صفة العصر.

هل هذا تصرف إيجابي، أم تُراك تدافع عن فكرة في بالك
بالصَّمْت؟

أنا يا صديقي أعشق الصمت ساعة دخولي في عالم الكتابة،
وأكرهه في تعرية الحقائق والواقع. ألا ترى أن الكلمة أشرف من
الصَّمْت، ومن عابد متظاهر بالنسك والعبادة؟

يقول «برنارد شو»: (خير الفضائل الصَّمت؛ لأنك بواسطته تستمع للآخرين، فتعرف عيوبهم، وتخفي عيوبك)، لكني لا أرى فيك ذلك.

انظر العجوز التي غطَّت نصف وجهها، إني أراقب صمتها كلما دخلت السوق، فيتصدق عليها الباعة بمصارين السمك، والرؤوس، وترجع مسرورة كونها حصلت على إدام شهى.

كيف نفسّر ذلك يا ثرى، وأية كلمة ستُخرج ما بداخلها من صراخ! لا أدري هل حزناً، أم حباً بموقفي، أم قهراً لما وصل إليه حال العراق، صمتُ أنا الآخر.

من الواضح أنه يحب رائحة السَّمك المقلي والأرز، حدثته وعيني على الهاتف متوقعاً رفضي من العمل، مع ثالث لقمة تذكرت حالة حكاها لي صديق أعتز به عن اختفاء أحد الصَّحفيين بطريقة غامضة، وقد أعيا البحث أسرته؛ فتوجهوا لضابط في الشرّطة لتقصّي الحقيقة، وعرضتُ عليه مبلغاً من المال مقابل الحصول على جثة ابنهم، بعد توقعهم أنّ سبب الاختفاء القتل.

وبدافع الطمع بدأ الضابط البحث بطريقته السريّة، وتوصلوا لخيوط معينة فطالبوه بالكف عن السُّؤال حين شعروا بالخطر عليه.

بعد أيام اختفى الضَّابط ولم يُعرف له أثر، وخلف وراءه امرأة شابة وابنة في الخامسة.

كيف تبتكر اللغة هنا مصطلحًا جديدًا؟. مصطلحٌ غير مؤدج وغير خاضع لاشتراطات يُقاد مسارها حيثما يريد الآخرون، وأي لحن سيحاصرني والعود عصي يخذلني كلما لعبتُ على أوتاره؟

نحاول الإمساك بشيء؛ لكنه يفلت منّا، وبين الخيط الرمادي والأسود القاتم ندور في فلك العوز، هذا ما جعل زوجة الشرطي ترتمي بفراش زوج آخر، يقيها من تلك القتامة، هي وابنها وابنتها. الواقع أكثر تعقيدًا من الحكاية.

عند منتصف الحياة، حالما كبرت الفتاة وأخوها، صارت تحلو بعين الزوج الجائع.

كانت البنت حلمًا جميلًا واختفى فجأة؛ واختفت معه كلّ آماله ورغائبه ووجوده.

بقيت الحيرة تحوم حول زوجة الشرطي لاتهام زوجها في اختفاء الفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً.

اللجوء إلى العشيرة صار من مسلمات الواقع العراقي، وليس اللجوء إلى القانون؛ لم يعد القانون حامياً، وبالقانون ضاعت براءات، وضاعت حقائق.

وبدلاً من اللجوء إلى القانون ليحميهم؛ صاروا يمسون أول خيط الليل خاضعين لامتداد طرفه الآخر، يلتفون معه حولهم ويطوقهم مثل أخطبوط.

أنا غير متزوج، ولا شأن لي بالجنباء، أنا كما أنا، باستثناء المرتشين، وموظفي المقالات الباهتة، ومدراء مكاتب الوزراء، وموظفي دائرة الطابو، والمحاكم، وبكل استثناءات السمك المقلي، والعجوز بالسوق.

لم أتوقع أن المدير الأعور سيسنتني فصلي، ويراني بعينه السليمة، وكما صلافة ووقاحة هذا الزمن؛ رأني بعينه العوراء.

انتهت الوليمة بهاتف صديقي المصور:

- يبلغك المدير أن الصّحفي المخادع لا حقوق له في نهاية الخدمة، خاصة من أمثالك، ممن ينكرون الجميل.

أغلقت الهاتف مستغرياً عن أي جميل يتحدث سعادته، وعلى وجه السرعة أنهى خدمتي متناسياً أن في سوق السمك ثمة امرأة عجوز، وسعال أطفال من الأتربة والغبار، بحاجة إلى صوت يسعد عاطفتهم وشعورهم بأمل حياة أكثر رحمة.

نظرت من النافذة، كان المطر جاحداً والمستنقعات أكثر وحلاً من ذي قبل.

ما يُنهكني الآن، ليست الكتابة بأسلوب جديد، أو باسم مستعار لأكسب كامل حريتي، تُنهكني المدينة العملاقة، رغم متانة جدران بناياتها، بدأ تعاضم فحيح الثعابين يحوم حول أكشاك الكسبة، يبدو لي أننا في زمن تعدد الآلهة. تُرى، هل سيكون بينهم إله للفقر؟

كُلّ شيء أخرس ورائع، وبعيني جنونٌ بحاجة لإله إبداع مجنون مثلي؛ يوقظ الصوت على مداه الواسع، ويطلع من قلب الأشجار.

في قلبي مصباح يصرخ، وعمرُّ أغرقته المواعيد الكاذبة، وأعوام
تصرُّ على أن تكون حليفة للفراغ، حتى الأبواب التي لا تُشبه
نفسها لها أمكنة في قلبي.

السَّاعة الآن لا تُشير إلى أصابعي لأعزف، مواقيتها مدانة، لم
تصحُ منذ أن ضربني المعلم على كفيّ، وأدار وجهي إلى الحائط
اغتيالاً لطفولتي.



صرتُ أشبههُ

يرافقني، أرافقه، يشبهني، أشبهه، سيّان، ابتسمتُ عندما لاحظته يقف أمام المرأة بذات البيجامة الطويلة الواسعة، يوغل في التمعّن في زجاجها باحثًا عن شيء مفقود، يندفع فجأة باتجاه النافذة خاطفًا، يتوجه نحوي، ويعود للمرأة، تعاضّم عليه إصرار عجيب اليوم للاكتشاف.

تركته ورحت أسلق بعض البيض، قبل أن أبادره بالسؤال أشار إلى بعدم قدرته على الأكل، مؤكدًا أن مثله لا يأكل، تركت المطبخ عائداً إلى الكمبيوتر؛ تحضيرًا لمقال جديد، إنما باسم مستعار! متضامن مع "جان جاك روسو" في قوله: (إنّ القلب نفسه يدق في كلّ الصُّدور الإنسانية).

الأسماء في موقع التواصل الاجتماعي أغلبها مستعارة، مجهولٌ يحاور مجهولًا، وبين المجهولين صوت ناطق بلا خوف، وبحريّة.

تقدّمني بأسلوبه الجديد في التعامل معي، قادتني حركاته إلى
رعدة غريبة في جسدي، وجدّثني واقفًا أمام مرآة في غرفة نومي
متسائلًا:

- أيُّهما أنا؟

تركّني أهذي وفتح التلفاز .

وأنا أتابع معه؛ خطرت في بالي عدة أسئلة أهمها:

- مَنْ منّا الآخر؟ وسؤال مهم جدًّا:

- هل ما زال تأنيب الضمير مومسًا عرجاء؟ استغربت فعلاً من
أسألتي، بينما التلفاز يعرض موجز الأخبار .

كان صاحبي ينوء من عدم تمكنه لمعايشة الواقع، إنه اعتداء على
قدسيّتنا الروحية وعلى حياتنا، هل يعتقد الإعلاميون أننا جهلة؟
ما ذنب الإنسان البسيط يستمع إلى هذه الأقاويل ويتصرف بعد
ذلك عن قناعة مع الأمور؟

إن الصّفة الحقيقية المسيطرة على الواقع ومن يحالفها يتحلّى
بـ"الذنبية المتوحشة"، صفة كسّرت عن أنيابها على ثروات العراق

بحجة تحسين الاقتصاد العراقي، هل تسمع؟ أم أسمع وأرى أنا
عناك؟

هل ما زلتَ راجبًا في النظر من النافذة؟ أية وجوه مشوّهة سترى؟
هؤلاء يبحثون عن أمان العراق وتحسين اقتصاده خوفًا على
مصالحهم ومن مشى على خطاهم.

ما رأيك لو نغّي للشهداء الذين أعدمتهم داعش، المؤدّجة
بالخطابين، المحمية من كلا الطرفين؟

نحن بحاجة إلى إبر نوخزها بأعين قوادي العصر، أو بحاجة إلى
كراهية مقيّنة ونستدّث لمواجهة الذئاب!

لا يكفينا أن نحيا بجسد ستلتهمه الأرض، وستبقى عظامنا الشاهد
الحقيقي على كل حركاتنا. لا بدّ أن نفكّك الشكّ ونُبقي أثرًا منّا
للأجيال القادمة.

ترنّج سكرانًا مُدرّكًا مثلي سرّ الموسمية السّياسية، كش ملك، اقتل
ملك، ضع ضميرًا تالفًا، أو معنوها، لا يهم، طالما هناك نباح من
نوع آخر وعواء؛ ولنواجه ذلك لا بدّ من شجاعة مؤمنة بقدرة
الإنسان على النّصوع.

رقص سروال البيجامة فرحًا، لأول مرة أسمع صوتًا صادرًا منه،
همهمة غير واضحة، تشبه العواء المكبوت، ربما خُيل إليّ، كوني
بحاجة لأي صوت.

يبدو استذأب رفيقي، أعذره، فهو في كُلِّ حالاته يفضح عديمي
الأخلاق الجالسين على العروش. ولو بتأييد وإشارة؛ أحيانًا تكون
الإشارات منفذًا للعبور.

عليّ اختيار عنوانًا لمقالي الجديد، والاتفاق مع صديقي المصور
"فيصل" بالنشر، أو الاتفاق مع صحف أخرى تتقبل نقدي اللاذع،
ويبقى اسمي مستعارًا والسُر بيننا فقط.

"المستذنبون" أممم، جميل هذا العنوان.

المستذنبون خائفون على العراق، ويؤكدون خبر انفجار عبوة
ناسفة أدت إلى استشهاد عدد من الضحايا. مسلحون مجهولون
يغتالون شخصين في سيارة بمسدس كاتم. وزير يستضيف عددًا
من العلماء لمأدبة رمضانية، بدعة من بدع "هارون الرشيد"،
التقرب إلى الشعب باستغلال أسماء العلماء والفلاسفة، لعلهم
سيدعون عمال النظافة، أطفالًا أكفهم كحراشف السمك المجفف،
وعجوزًا تأكل المصارين.

ألا نستحدث نائباً يتحدث باسم " الألم"؟

الكلمة سهم يجب إلّا يُخطى، حتى لو قصدته سهام مخفية لإسكاته.

كم طبيب نفساني نحتاج لشفاء ظلامنا من الانفصام؟

مأدبة واحدة تكفي عمّال "مرائب السيارات" وسط بغداد، وأية مدينة تُقام بها مآدب استعراض العضلات؟ "مرائب" مهياة هي وأصحابها لحزام ناسف من مهرج في الدولة.

عذراً أيها القارئ، لو استعذبت قلبي؛ أعلم أنّي لست المتفرج الوحيد على هذه المهزلة. أنت مشترك معي في مؤامرة التخفي.

التوقيع:

قلم مجهول.

يعتقد صديقي "فيصل" أنه انتصر عليّ، فعلاً انتصر، نعم فعلاً. إجابة مستقيمة لقلم أعوج ينتظر قارئاً مثله لكاتب مجهول.

ترى أين سينشر "فيصل" مقالي المختصر المكثف؟

أحب التكثيف بقدر كراهيتي للثرثرة الإعلامية، ونواح صحف تبيع القبح بالمجان.

الأسفلت يعرف أن اليتيم حق، وطاعة الحاكم حق، والرأي المسروق من الأفواه حق، وتزيين التراب بفيض الدم حق الحق. سأبادر بالتخفي باسم مستعار، مع علمي بحاجتنا الملحة لرجل المبادرة!

رجل مختلف، يعيش بين الناس، بدون ألقاب، وحرس وسيارات فارهة ومرافقين مفتولي العضلات، مدفوعة رواتبهم من أرياق أصحاب سوق السمك، وسوق الخضار.

ضحايا كثيرون صاروا علامة التعجب في كتاباتي، لا أسئلة بحجم ما يحدث، لا أسئلة بحجم صمت السماء، لا أسئلة لأيامنا التي أصبحت حقل تجارب بيد الشيطان الأكبر. إنه خوف من نوع آخر، لا ينتظر مغفرة أو انتقامًا، لا يملك قدرة لإزاحة الكابوس.

حين فكرت بمقالتي الجديد؛ شعرت برعشة تسري في بدني، الصحافة تريد العناوين الرنانة وإن كانت مزيفة، حتى لو حقيقية

تزيّفها حسب ما تؤمّر به من سادتها وعليّ إلّا أنحني، وألا أكتب
بلغة عسيرة غير قريبة من الناس في الشارع حتى لو تفشى مرض
الرقابة من جديد في بلد تدعي الديمقراطية والحرية، ولكي ينتهي
زمن الحرس والرقيب؛ سأكتب.

لكني كلما بدأت في الكتابة، لاحت لي تلك العجوز في سوق
الرحمة؛ فقد تلبّسني ظلها، وأرى من خلاله عدد سياط الحياة على
ظهرها. سوق الرحمة، وبلي من رحمة الأمل الأرعن.

لا أستطيع الإفلات منها، وأرغب بتوظيف صورتها لحناً، ولو أنّ
وجهها صعب ترجمته، وعليّ معرفة كلّ شيء عنها، لقد رفض
الحن محاولاتي لكنه يحاصرني حتى في الحلم.

أحاول الهروب منه، أشغل المسجل على أغاني أم كلثوم، وخاصة
أغنية

(بعيد عنك) "بعيد عنك حياتي عذاب"، فأرى العذاب سواء كان
قريباً أو بعيداً؛ نعيشه في كلّ ثوانينا.

إمّا أخون ذاتي وأغير من هياّتي لكيلا يعرفني الدائنون، أو أبقى
معرضاً للدهس بسيارة مارقة أو مسدس كاتم، أو الاختفاء على يد

جهلة؛ لأصبح مجهولاً حقيقياً وليس اسماً فقط، مع تشويه لسمعتي
وكتابات عن خيانتني أو أي مسمى سيلفّق عليّ وعلى مبادئ غير
الخائنة لوطني وشعبي.

كلما ظهر أمامي الساكن معي بمنامتي دون جسد؛ أدركت لماذا
ألغى جسده ليصبح منامة. إنه مجرد كتلة، وحالم يتوق لروح،
ينتهي ويصبح قابلاً لتراب القبر.

إنني أحسد التراب، الذي سيخنق هو الآخر ما تبقى منا ويقدمه
وليمة للدود. وسيبقى متفجعاً على أسرارنا المخبأة في أدراج
الصدور، يا له من متواطئ على إنهاء ما بقي من بشريتنا!

النّسر لا يخاف الأعالي الموحشة، حتى حين يظن الغراب أنه
انتصر عليه وهو يحط على ظهره، لم يدر بأنّ النّسر أكثر منه
شيطنة وقوة في ارتفاعه عالياً، وصدرة غير مهياً لتلك الأعالي،
وكلما ارتفع؛ ازداد اختناق الغراب وهوى ميتاً.

سأهتدي بالنسر حتى لو باسم مستعار، فكلما حلّقْتُ عالياً؛ كلما
انتهى غرابان واقعنا الزّاهن.

أرغب أن يكون صوتي مضيئاً بين الضجيج؛ من هنا سأري
لحيّتي، ليس كتقليد ديني، وألبس نظارتي الطبية، ل طالما أمرني
الطبيب بها، وعصيانى المتكرر حان وقته. وسأري شاري، لا
يحتاج منى ذلك سوى أسبوعين، وسأستعذب بسؤال العجوز فى
سوق السمك، وهى تخرجه من فمها الأرد، سترى شخصاً غير
الذى اعتادت رؤيته كلّ أسبوع حاملاً بيده أضمامة سمك،
وستنظر إلي باستغراب، وتضع يدها على صدرها شاكرة
ومبتسمة؛ أحميها من أكل المصارين.

كلّ شيء يهبّ معاكساً، حتى الرياح وقتما تمرّ على المصارين،
والعجوز تخونها قدماها فى المشى، يطول الطريق أمامها؛ فتزكم
الآخرين، لكنها ستطهو ويأكلون هبة الزمن وإن كانت برائحة
مقرفة.

الأسبوعان مرّاً سريعاً، ينموان بداخلي كأنهما جيش من الأيام،
والسؤال ذاته يراودنى:

- ترى هل أكل النائب والوزير مصارين السمك وباتا دون أكل
ليومين؟

لكل خطوة من خطواتي باتجاه ذلك السُّق ثبات وتحكّم، ليس لدخول فصل الربيع وتضاؤل وحل الأمطار؛ بل لأن مرافقي تناسى الأشياء القديمة كلها، بل أخذ يستطيل قليلاً بقامته الرشيفة النحيلة وخطواته الثابتة وشعره الذي اكتساه الشيب.

ما زال يطرح الأسئلة وهو متوجه للسوق، ويردُّ:

- سأكتب الجواب حال عودتي من السوق، ليكون عنوانًا لمقال قادم.

دخل معي السوق فرحًا لفرحي، باستقبال سيدة المصارين العجوز. ، إنما لم نجدّها، وقد اشتريت لها حصتها مع حصتي من السمك قاصدًا الزاوية المعتادة لجلوسها.

كنتُ موعلاً بفرح التغيير، فصرتُ موعلاً بالحزن والتعجّب، إذ لا أحد يعرف دارها، على الرغم من سُوالي لأكثر الباعة في السُّوق. وقفتُ أمام برميل القمامة خائبًا، كنتُ ناويًا رمي السمك كله؛ شعرتُ بيد قوية تمسك بيدي:

- لا ترميه، لقد أوصتني "أم علي" ساعة احتضارها بأخذ مكانها في السُّوق.

وقع أريج الخبر كعطر متشح بالسواد وهو يخاطبني:

- لا ترمه ابني، أنا سأتكفل الصغيرين بوجبة المصارين، على الرغم من مرضي وعكازي القديم الذي لم يعد يتحمل جسدي الأحذب، فقد بُترت رجلي كلها إثر قنبلة عشوائية وقت انتفاضة تشرين، وبقيت عاجزاً كما تراني. أنا أسكن قرب دار "أم علي".

شكرته بحزن: ما اسمك يا والدي؟

أجاب بصوت متحشرج بالحزن: "سعود".

قلت سأرافقك كي أعرف مكانك وأحمل عنك الكيس.

وافق على مرافقتي، وقد أدهشني حديثه الحلو وثقافته الواسعة وأيضاً أثار استغرابي!

تبين أن داره وزوجته احترقا، ونجا هو برجل واحدة ويد محروقة مشوهة.

سكن قرب العجوز ذات الحفيدين اليتيمين، بدار خربة، هي منطقة كاملة الآن يسكنها آلاف العراقيين من ذوي العوز.

طلبت منه عدم المجيء إلى السوق، أنا سأحضر لهم ما تيسر من أكل وملبس يكفيهم لمدة أسبوع.

نظر إلي بعينين شاكرتين:

- كلهم يعانون من الظروف القاسية على مدار السنة، لا سيّما في فصلي الصيف والشتاء.

كان يتحدث بألم شديد، مُعرباً عن قلقه حيال الأطفال وهم لا يجدون أبسط مقومات الحياة في هذه المناطق التي لا تصلح سكناً للبشر، بحسب وصفه.

أعداء الطفولة لم يأتوا من الخارج، أتوا من الداخل، ومن فوق، من الذين يراقبون تحركاتهم لينهبوا البلد ويبقوا أسياداً وهم العبيد.

أعلم أن أغلب هذه المناطق غير مشمولة بالخدمات، والكهرباء، الأمر الذي يدفعهم إلى تدبير أمورهم من خلال الاستعانة بخدمات المناطق القريبة. وبعضهم يستأجر صوته النخبون، والبعض الآخر لجأ إلى المخدرات.

كم وليمة تُقيمها الدولة؟ ترى شروق الشمس يندثر بليل الوقت
تحت رحمة الحياة الغافلة، والدولة المتغافلة عن هؤلاء. نحتاج
قدرة هائلة لنكتب، ونمحو الوهم من قواميسه.

أحب أن أكون وحدي دائماً، والآن ترافقني أنت، وأنا أعانق جذع
نخلة، وأستمع إلى هديل الحمام، حزين هو؛ لكنه عاشق مثلي،
يشاركني الكلمات، وأشاركه الاحتضان.

أتمنى أن يقول لي أحد: خيالك جميل.

هل رأيت نفسك جميلاً في المرأة؟ فقد وقفت طويلاً تستعرض
وجهك، هل عثرت على اللامحدود فيك؟

لم يعرفني الباعة في السوق بشكلي الجديد، ومن رأني عرفني
باسمي الآخر "مناضل" نسوا اسمي "قاسم" أو استغربوا غياب
"قاسم" ظانين أنه رحل عن العراق وهاجر كهجرة الأنقياء
والإعلاميين والمفكرين.

عدت إلى داري مع رفيقي الحزين، نتقاسم أشكالنا وملابسنا.

يستعذب مرافقته مع الوهم والواقع على الرغم من رغبته في البقاء
في حتمية الوهم؟

أخذله مرات ويخذلني هو، وقتما يصبح جريئاً ويسبقني. أغافله
مازحاً لأتحرر منه، ولأنه بدوني لا قيمة له؛ يبقى ملازماً
تحركاتي؛ فلولاى لما أصبح له وجوداً، أنا الجسد الحاجب عنه
الضوء، الآن صرْتُ المحجوب عن جسدي على الجدران وعلى
الأرض.

كان يُشبهني، وباسمي المستعار صرْتُ أشبهه. صرْتُ مرتبطاً
به، متحولاً إلى مجهولٍ جريء.

لعله يفكر الآن مثلي أن الحلم سيبقى مجهولاً وظلاً في بلد النفط.
الذين كتبوا في الصحافة مقالات وأشعاراً تمجّد القائد الضرورة أيام
الحرب العراقية الإيرانية، هم ذاتهم الآن، كمرتزقة يمجّدون
ويعظمون الذين على شاكلتهم.

علينا قراءة الواقع بشكل مقلوب، طالما ثورة الشعب المطالب
بأبسط حقوقه؛ صارت أصواتاً لا بُدَّ من خنقها، وطالما نقطة
البداية صارت نهايةً مخنّطة.

لا بأس في ذلك، هم السّادة الآن، والمتلونون، بكل الأزمان، وألف
لا بأس على امتلائي بذاتي الرافضة، فما زلتُ أكافح لتلمس
الشمس الدافئة أجساد العراة في دور الصّفيح.

أسمعهم يلقون الخطابات الرثانة في التليفزيونات، والاحتفاليات؛
وأبصق بأقرب منفضة للسجائر.

الطفلان في بيوت خربة، بل الأطفال جميعًا في بيوت غير آمنة
من مطر وشمس وبرد، جُمعت أبوابها من الأزال وما جادت به
من خرق بالية، تلك الأزال الرحيمة على الفقراء.

خرجتُ أبحث عن الطفلين والرجل العجوز وفي بالي أشياء كثيرة
لهم، مررت بالسوق واشتريت ما أقيهم به من جوع لمدة أسبوع،
كلّ الأبواب مفتوحة، لا أقفال فيها سوى موارية بسيطة، لم أجدهما
في مكانهما المعتاد، تجولت هنا وهناك، وعيون الأطفال محدقة
بي، لم أجد الشيخ لأعطيه المشتريات.

قادني أحد الأطفال إلى الطفلين، كان يلعب قريبهما، وجدتهما
جالسين في سيارة مهترئة من (السكراب)، الولد جالس قرب المقود

وينظر لأخته بفرح غامر، وكأنهما امتلکا الدنيا، أو تخيلا مستقبلا
لهما في ذهنيهما.

رأيتهما ذبلاً مثل ليمونة أهلكها القيظ، ذكرني منظرهما بالشاعر
الأرميني "أوهانس تومانيان" مؤسس الأدب الأرميني للأطفال:

(ضدّ عقلي تتجمع جيوش لا عدّ لها، وتدوس وجهك وحقوقك
المزهرة، وقد حولتك قطعان السّفاحين بصيحاتهم الوحشية الظمأى
إلى الخرائب والعريدات الدامية).

رفيقي الذي ارتدى هذا الصباح بنطالي وقميصي الصيفي، أثار
استغراب الأطفال؛ كونهم يرون ملابس تتحرك، ومن عادة
الأطفال يركضون خلف كلّ غريب، كانت ملابسني تركض، وهم
يركضون مصفقين:

- اطلع، اطلع اطلع يا مجنون.

يبدو أنه سرق كيس الحلوى من داري، فوقف بينهم وفرد كمّي
قميصي المملوءتين بالحلوى، فتحلّق الأطفال حول المجهول
المجنون بالنسبة إليهم. لماذا ظهر لهم لا أدري. المفترض أنه لي
وحيدي، لكنه بدا استعراضياً اليوم. بيده حزمة ورقية عمل منها

مراكب صغيرة للصغار، مشيرًا إلى جهة النهر، أي نهر سيستقبل هذين الرسولين ومركبيهما بوسع مداه، ربما ظهوره إليهما رسالة - ولو بملابس وشخص مختبئ - تدعوهما إلى خطى ثابتة، غير متعثرة نحو النهر، هما أبناء الماء! أبناء "جلجامش" الذي تحدى الصعاب.

حتى الأخيلة تبحث عن الجاريات من الأمواه، وبذراعيها تحتضن المستحيل.

إن أكبرهم في العاشرة، يقضون النهار بين التسوّل والأزبال بحثًا عن علب فارغة، ملابس ممزقة، أكياس، براميل، لعب مكسورة، يجلبونها معهم آخر النهار، كي يحتموا بها من الضّجر.

أعطيت العجوز والطفلين المشتريات ووعدتهم بزيارة قريبة.

وجدت ملابسي قد سبقتني إلى الدار، هاربة من ذاتها ومما رأته.

تناولتُ وجبة خفيفة وشرعتُ أكتب مقالة جديدة، أفكاري مشوّشة لا أعرف عن ماذا وماذا سأكتب، كان قلبي عالقًا بين الأطفال، ومتخيلًا سقوط المطر الغزير، وعبث الريح، وشمس تموز وآب،

كيف يحتمي الإنسان من أمثالهم من قسوة الطقس، وأي إنسان سيكون!

تغيّر اسمي إلى "مناضل صالح". حين كان اسمي "قاسم" ارتأوا تقسيمه على شاكلتهم، مرة مخادع، مرة مزيف، مرة كاذب، ومرة أخرى مجرد قلم وهمي لأفكارهم، وخداعهم للشارع والناس؛ كي تمتلئ جيوبهم وأرصدتهم في البنوك خارج العراق، ويسكنون القصور الكبيرة ويقودون السيارات الفارهة ويرتدون الملابس المستوردة، ولن أكون على شاكلتهم، وتعسفهم في فصلي من العمل، كانت لي حياة نابضة، نابضة بأرواح قاطني الصفيح، باحثة لهم عن ملجأ لحياة آمنة، ولو بأضعف الإيمان "الكلمة".

في البريد الإلكتروني أرسلت صديقي "فيصل" وهو يتصرف بنشر مقالاتي على طريقته.

كان يرفدني بكل جديد عن المؤتمرات والاجتماعات التي ستعقد في البرلمان

ودراسة عمل لجان الانتخابات القادمة، ويرفدني بالصور لو حضر إحدى قاعات الفنادق الفاخرة وسط بغداد، وأنا أكتب ما أراه من وجهة نظري، وننشر في صحف مختلفة.

سأبذل جهدًا كبيرًا لإيصال صوتي الحر للقارئ، وأتمنى أن يفعل الكثيرون مثلي؛ كي لا يبقى العراق من قائمة الدول المعادية للصحافة والصحفيين الأحرار.

وقد شهد مجزرة بحق الإعلام، وبالذات منذ انطلاق المظاهرات التي عمّت العراق ومناطق الوسط والجنوب، فقد اعتبر شهر أكتوبر، من الشهور المهمة، وفقدَ العشرات من الصحفيين والناشطين المدنيين، سواء على يد القوات الأمنية أو الجماعات المسلحة.

سيبقى الوضع المزري، ونقرأ بعدد أيام الأسبوع يومًا داميًا.

يرجعون لمناصبهم ثانية. وكأن الأرواح التي زُهِقت في مشفى للعلاج من "كوفيد" لا قيمة لها، وستمر القضية كما مرت سابقتها، وننسى وينسون!

اثنان وثمانون قتيلاً، مائة وعشرة جريحاً، حسبما ذكرت التقارير:

- إن انفجارَ أسطوانة أوكسجين في قسم العناية الفائقة الذي يرقد فيه المرضى الموصولون بأجهزة التنفّس وغير قادرين على الحركة؛ هو ما أدى إلى اندلاع الحريق.

كثيرون ماتوا بسبب فصلهم عن الأوكسجين بينما اختنق آخرون بسبب الدخان، حقيقة الخبر مظلة ضائعة بين مصداقية الجهة والتفريق، ما أسمع أنا عنك؟ أم

عن اسم مستعار؟ لا بأس، سأكتب معلناً عن الهجمة الإعلامية ضدنا، قطع أرزاقنا وتهديدنا ومصير الكثير من الإعلاميين ما زال مجهولاً.

التعقيم الإعلامي على كُـلِّ الضحايا في الانفجارات والأسباب لا تعيق الأحرار، على الرغم من تعيين إعلام ناطق باسم الدولة، مهمته التبرير للعقوبات بصورة باتت مكشوفة للجميع.

أمثالنا من الشرفاء وأصحاب المبادئ النبيلة لا يراهم الساسة والنفعيون، ويتوقعون أننا نكتب عن الشعب لغرض ومنفعة، صحيح وكل يرى الناس بعين طبيعته.

تعودوا على عدم المصداقية، بل آفوها، بينما يبقى الشك حاضراً في عيون الحقيقيين. وسنبقى نعمل ونواجه الزيف حتى نتحقق الأمنية.

تأسرني لحظات آمنة أرتجئها، حتى العثرات الهائلة، أضمرها
بجناحي كطائر حريص وأكتب.

تناقشتُ مع مَنْ يرتدي منامتي في أمور كثير:

- تعرف يا رفيقي أن الناس غير المدركين أكثر سعادة منا، واعلم
إنَّ أشياء كثيرة يقوم بها كثيرون غير مرضية، لكن بحكم العادة
آلفوها وأصبحت عادة.

والدليل أنني تعايشت معك الآن على الرغم من استغرابي من
تصرفاتك؛ وصرنا نستأنس بعضنا.

في بداية استئجاري لشقتي، لم يعجبني دهانها الغامق، لأنني أكره
القتامة في كُلِّ شيء، ولكنَّ ما عشنا تلك القتامة منذ طفولتنا؛
صرت أكرهها وأحب الألوان الزاهية؛ لهذا حين اشتريتها دهنتها
بنفسي باللون الأبيض والزهري الفاتح.

الصورتان المعلقتان على الحائط في الصالون لأبي وأمي، والذي
يتوسطهما أخي الأصغر مني.

قبل أية إشارة منه للسؤال عنهم أجبتُه:

- ماتا حرقاً في أحد الانفجارات وسط بغداد بحزام ناسف من جهة مجهولة.

أعطاني ظهره، كان ينصت إليّ بإمعان، وأنا بدوري لم أكرث لذلك:

- عائلتي ليست من بغداد، بل من الريف، جئنا وقت تريبف المدن وهجرة الفلاحين لطلب حياة أفضل.

ليتنا لم ننزح لما ضاعت أسرتي، وضاعت حقيقة موتها وموت من معها. . نعم تضيع الحقائق بسبب الإعلام البوق لسلطته.

اشتغل أبي حارساً في مدرسة للبنين، ومن خلال مديرتها اشتغلت أُمي منظفة في مدرسة للبنات. عمل أبي في مدرسة ابتدائية، وأُمي في مدرسة متوسطة للبنات.

كان أخي صغيراً فاصطحبه أبي معه إلى نفس المدرسة وسجله فيها، كان في الصف الرابع، بينما أنا قدمت لدراسة الإعلام في جامعة بغداد.

موظف الاستعلامات بالجامعة مريض نفسياً وحقوقه، ينظر لطابور الطلبة بعين ملؤها الحقد، وكلما سأله أحد عن معلومة؛ عضّ على أسنانه مستمتعاً بتأخيرنا وإشعارنا بذل الانتظار، وانتصاره على شباب بعمر الزهور.

ما يحزنني يا رفيقي أنني لم أحصل على جثة أخي، وأبي وأمي صحيحة الملامح، كانا قطعة فحم بالكاد تعرفت عليهما، بينما أخي ذابت جثته وضاعت مع مَنْ ضاعوا.

تخرجت أنا وصديقي "فيسل" في السنة ذاتها، ولازمنا بعضنا في كلّ التحقيقات وتصوير الأحداث والمشاهدات على أرض الواقع.

لكن كانت تُفرض علينا عناوين ومقالات توافّقاً مع الخط العام، كوننا نعمل بصحيفة حكومية.

في بلدنا لا نستطيع سد رمق العيش إلا إذا كنا ضد مبادئنا وضد ذاتنا!

المغالطات الكثيرة تُصدع رأسي؛ حتى أنني، من قلة النوم؛ أفقد توازني في مرات عديدة. يبقى الشعور بالدوار يلزمني ولم يصل

معه الأطباء إلى نتيجة، علماً أنني زرت مختصين كبار. لا شك
أن السرّ ليس في الصداع، بل بما يُصدع رأسي.

بعد فحوصات كثيرة أوعز أحد الأطباء أن مرضي حالة نفسية
تسيطر عليّ؛ ولا بُدَّ من مراجعة طبيب نفسي، كما أنني أعاني
من كوابيس متكررة.

تخيلت يوماً عزفاً باسم أخي الصغير، هل تتصور العزف عن لحم
مهترئ؟

مرت جثة أمي بين أصابعي على مقام (الحجاز)، انتقلت لأبي
المنقح إلى (الهزام)، فانتفضت كمن بلع جمرًا، وتخيل جمرًا
وانطفأت انطفاء الخفت الحزين المتقد بهدوء يلطي لحظاتي.

في أية ليلة أفكر بمستقبل، أي مستقبل حتى لو بعيد، تكون
الكوابيس مشوشة، مرعبة، دوامات سوداء تحاصرني وتضغط على
صدري، فأصحو مرعوبًا، أفتح النافذة لأستششق هواءً نقيًا؛ لكني
أرى القنران تعبت بالمزابل، ورائحة عفونة الشارع المتسخ بالنفائات
ترزمني؛ أضطر لمغافلة الليل وأفتح الضوء، فأراك ماثلاً أمامي
كعادتك مرتدياً منامتي.

هذا لا يعني أن كلّ شيء قبيح، فهناك وجه بغداد يصلح لكل وجوه الجمال، سترافقني في جولة لهذا الجمال.

تحملني وأنا أطرح الأسئلة، حتى لو كان السؤال غيباً؛ هناك مَنْ ينتظر منا الكثير.

صحفي ترافقه منامته ويكتب باسم مستعار، هذا أنا الآن، وهكذا صرنا نتشابه، الفرق الوحيد بيننا، أنا أمارس صوتي بكل حرية، وأنت أخرس، مجرد إشارة أو خطوة.

مسقط رأسك أنا، خطواتك أنا، أرضك، رنينك أنا، نعم رنينك، رنينك أنا، يا لخبيتي!

مَنْ منّا الشاهد على الآخر؟ كلانا مسافر إلى أقاصي الدنيا، ولا يعرف أين ستأخذه عربة الحياة، وكلانا يشبه العراق، لونه بوضوح النهار أزرق معتم، ولون ناصع البياض. نقيضان يعيشان في روحي، أكتب عنهما بهما، وأعيش كأني بطلٌ لكل كتاباتي.

أنت تختبئ في بيجامتي، وأنا أختبئ فيما بقي لي من ذاتي، الجزء الذي لم تلوّثه الخيبات.

(الحياة إمّا تكون مغامرة جريئة أو لا شيء)، هذا ما قالته "هيلين كلر".

لكن هذا الامتداد الممزق من ذاكرتي، كيف سأعالجه وأكون منه شيئاً يرضيك يا "هيلين"؟



لا يرتبك انسجامنا.. هناك الأجل حتماً

- أنفاسك تُريكني اليوم، هل وضعنا سيئ لهذا الحد؟

أشار بكمّيه الاثنين بعلامة مبهمة، بين الاستغراب والنفي والجواب، انغمَس كمّ منامتي اليمين في مرق البامياء، كأنها لعبة وتسلية ثم غمسها ثانية وتسلّى، لماذا يقول مثلي لا يأكل؟ أهذا تغيير مفاجئ؟ ألهذا الحد جعلت منه البامياء متمرّداً شاردًا من أمانيه إليها؟ وهل أنا أراقب نفسي، أم أراقبه؟ هل هذا الكم المبلل بالبامياء لي؟ أم له؟

يبدو أنني بحاجة إلى الكثير من كرم إنسانيتي لأنهي المرض المرافق لي، هوس أم جنون، سيّان، المهم أنا أعرف الذي يتحرك أمامي، هذا المتمرّد الجديد، سأواجهه يومًا ليعرف حقيقته.

بدأت اليوم بأولى المواجهات:

- هل سنتقاضى أجرة مقال بالقطعة، ومقال غير خاضع للدولار؟
لا شيء، رفيقي الغالي، هي لسد الرمق، هذا إذا لم تُرفض
بالأساس.

يقول "إليوت": (إنّ الزمن الصحيح غائب، والمكان الصحيح
غائب)، لكنني أقول: في العراق كلّ شيء حاضر، ابتداءً من الموت
والحياة إلى الأمكنة والأزمنة.

الحرارة مرتفعة اليوم، وقيظ تموز كافر يمر على الأطفال الذين
يبيعون السجائر في الشارع بلعنة كفره، وعلى سجيته يلتصق
بجلود النّاس، فما الذي ستفعله الديانات والقوميات والأحزاب
لهؤلاء؟

هم أبناء النفط، أين هي إعالة اليتيم، وذوي العوز، ونذور المراقد
المقدّسة؟

هيا يا رفيقي، لنذهب هناك مارين في طريقنا في السوق لشراء ما
يلزم بعض العوائل وخاصة الأطفال، قد يجدون عندنا ما
ينتظرونه، وما يأملونه، علما أنني أعلم مسبقاً أنّ ما يأملونه
ليست الأكياس التي نحملها إليهم.

يأملون إلا تقسو عليهم الحياة، فلهم الحق في كرامة الإنسان على أرضه.

وأنت تسبقني لفتح الباب حاول ارتداء قميص النُصوع، واكتب معي حين عودتنا عن مشاهداتك، وما الغاية من وجودنا؟ إنه سؤال فلسفي، وما الغاية من عيش بين الصفيح! في بلد تعددت فيه الأديان والمذاهب والقوميات؟!

أكتب عما تبقى لنا من يقظة، نحاول النهوض بها حتى ولو نُخرج الموتى من قبورهم؛ المهم نكتب، افتح أزرار القميص، ها أنا ذا فتحتها، وسأطلق صيحاتي في الهواء لعل الساكنين في بروج عالية يسمعونها.

في الغالب سنحدّق في الهائل من التغيير لعلنا نمسك طرف إصبع من أصابعه!

حتى لو سالت دماؤنا من قوة التشبّث به، فالثمر لا يأتي جزافاً، نحرت الأرض (يعني نجرحها بمعاولنا)، بمناجلنا؛ كي نسوي تربة صالحه لماء جهدنا.

أحيانا حتى الكارثة تُثبت معجزة، ومن الجرح ينبت التحدي،
لنخطو؛ كي نسمع خطواتنا الشوارع الأخرى.

في انسجام خطواتنا سرنا، أبطئ، يبطئ هو، أسرع يسرع، أقف،
يقف. جميل انسجامنا، لا ضير في ذلك طالما صرنا نتشابه.

رائحة الهواء تُحرق الأنفاس والصدور، والطريق طويل إليهم؛ فلا
بدَّ من سيارة أجرة توصلنا، كنا صامتَيْن، ينظر أحدهما إلى الآخر،
ويصمت ثانية، ليس في ذهنينا غير الأطفال هناك. متخيل مثلي
هو، أعرف أننا أمام تلك الطفلة بيضاء البشرة ذات العينين
الزرقاوين، ترقد فوق خرقة على الأرض، وشعرها الذهبي منسدل
على جبينها وكتفئها، "جواهر" اسم على مسمّى، بعمر الخامسة،
تُشدّي التراب الساخن، متخيلة المتلجات والحلوى.

اشتريت لها ما يفتح شهيتها على التمني، وما يجعل مخيلتها
واقعا؛ لستُ ساكتًا عنها، سأوصل صورها إلى العالم الساكن
وأفضحه. الكثير من الصور أثارت ضجة حول العالم. أما
الشهوات في العراق لا تخلق تلك الضجة بقدر ما تثيرها راقصة
في ملهى وتعلن أنه فن، الفن الرخيص المبتذل في لغة الأغنية

والعرض الشبق من أجل مئات الدولارات تنثر فوق رأسها، تطعم
آلاف الذين تأكلت جلودهم من الشمس.

حين وصلنا وجدناهم يمشون عل الأرض حفاة، وبشراتهم ازرقّت
واحمرّت مثل خبز محروق في تنّور الحياة.

لماذا يا ابنة ربّ واحد؟ رب الوزير والفقير، ربّ عامل النظافة
والكراسي، لنا قرآن واحد ولو اختلف التأويل، وشريعة واحدة ولو
تم تجبيرها على هوى الراغبين، ولنا أديان وقوميات وخرائط غير
عامرة بالالتحام والتوحد، لنا الكثير مما يبعدنا، القليل القليل جدّا
مما يقربنا.

لماذا القيظ يحرق هذه البشرات اللدنة والتبريد يحمي أبناء
الصوص؟

الكبار يتفرجون من بعيد مانحين الفرصة لصغارهم في التحلّق
حولنا والاستمتاع بالمتلجات.

اقترحت على العم "سعود" أن آخذ الطفلين، "همام، وجواهر" معي
أقوم برعايتهما، وسالته أن يحضر لي أوراقهما الثبوتية، هز رأسه
قائلاً:

- أخبرتني جدتهما أنّ كلّ شيء احترق في احتراق البيت، ولم يبق غير هذين اليتيمين.

- وكيف نجيا والعجوز؟

- كانوا في بيت أختها في ضواحي بغداد، وبالتفاف شاهدت ما جرى إثر عبوة ناسفة أحرقت الأرواح والدور القريبة من الحادث.

أمّا العجوز، ذهبت إلى المكان لعلها تحصل على شيء من ماضيها، من شقاء رحمها وعناء سهرها، من دقائق عاشتها من أجل ابنها الوحيد وأسرته. لم تجد غير التحليل السياسي والمقابلات مع مسؤولين في الدولة، والشجب والاستنكار.

- طيب، سيعيشان معي، وإذا تحب أنت أيضاً تعال نقيم معاً، لي غرفتان واحدة ستكون لنا معاً، والأخرى للطفلين، وما يعود به الرزق نفتسمه.

كانت الأمهات فرحات ينظرن لأطفالهن واستمتاع أفواههم بالمرطبات، والرجال ينظرون بألم يُزهق الروح. لفتت انتباهي شابة في العشرين، أزاحت ستارة من الخيش، يبدو أنها جمعت اثنتين أو ثلاث منها من الأزيال وخطتهم ستارة تقي من الداخل وتستره.

كانت غاية في الجمال، بيضاء احمّرت وجنتاها من وهج السُّموم، أخفت نصف جسدها ولم تُظهر منها غير نصف الصدر والرأس والرقبة.

في عيناها كلّ أسئلة التيه والاستغراب والقهر، نظرت إليّ بنظرة مليئة بالأسئلة، ابتسمت، وبخجل أفلتت الستارة من يدها ودخلت.

سألت العم "سعود" عنها، وعن اسمها، وهل تعيش لوحدها أم مع أسرتها؟

لم يرد عل سؤالي فقط قال:

- هل رأيت الشرطة، إنهم يبحثون عن عصابات بيع المخدرات هنا، هذا كلّ الذي يقدرّون عليه، عقابنا وانتقاء شبابنا للموت والسجون، وتلفيق التهم حسبما يرغبون بتشويش الناس وتضليلهم عن التجار الأصليين، يأخذون من هنا شبابًا يافعين بحجة ترويج المخدرات بين الشباب، ويقدمونهم في التلفزة على أنهم قبضوا على المجرمين، المجرمون في قصورهم يستوردون من إيران وبلدان أخرى كلّ ما يقتل هذا الجيل.

- نعم نعم، أعرف ذلك وقد أشرت له سابقًا في كتاباتي، لكن ليس بهذا الوضوح بل إشارة إليه، كنت أخاف على رزقي، لهذا كان مرافقي قزمًا، إنما الآن أراه يأخذ بالطول كلما اتخذت قرارًا جديدًا حتى صرت أشبهه.

سألته ثانية: وما قصتها؟

أجاب: لا أعرف، ولم يجرؤ أحد على هذا السؤال، هي تعيش وحدها، ودائمًا في خدمة الآخرين جميعًا، وتقدم ذلك بكل حب.

- نعم، نعم، لكن المسافة بين الإنسان وحلمه تحتاج من يضبط توقيت عقارب ساعته!

أوصلتهم إلى شقتي، وطلبت منهم أن يرتاحوا ريثما أرجع، مررت بمحلات ملابس الأطفال، واشتريت للطفلين مختلف الملابس، للبيت، وخارجه فيما إذا خرجنا في نزهة، أما الشيخ فهو نحيف وطويل، سأشاركه دولاب ملابس، على الرغم من مشاركة المنزل لها، لأنه يرتدي دائمًا لونًا واحدًا وقطعة واحدة حتى أطلب منه التغيير.

مررتُ بسوق السمك والخضار والبقالة والقصابة، ملأت سيارة
الأجرة بما اشتريت ورجعت قاصداً شقتي، في الطريق تذكرت
العجوز، ولم أر وأشعر بأي وتر يصفها إلى الآن، كانت في
عينها شعلة من حنان وقهر وكرامة لا تدوزنها نغمة أوتار.

لم أنس شراء الصحيفة اليومية والمناوئة لصحيفة السلطة
المسمومة بأخبار كاذبة، لكن ما أثار انتباهي لماذا لم تُغلق هذه
الصحيفة حتى الآن؟ هل هو جس نبض الثائرين؛ كي يعرفونهم
ويلقون القبض عليهم؟ لعلها متعاونة هي الأخرى، أجل متعاونة
بامتصاص غضب الشارع، وتعري أצלما أمام المخابرات.

فرح الجميع وقت شاهدوني، أدخلت الطفلين الحمام، كانا فرحين
بالاستحمام بالشامبو ورائحته العطرة والصابون، وبالمناشف
النظيفة والملابس الجميلة واللعب.

لم أنس العم "سعود" تبضعت له زجاجتي عطر، ومنامة ذات لون
أزرق غامق تليق بقيافته وهيبته.

أعددت وجبة من سمك مقلي وأرز بالسمن الطبيعي وجلسنا نأكل
بحب.

كان الطفلان يأكلان بنهم، فأشار إليهما العجوز أن يلتزما بلباقة المائدة، فطلبت منه أن يدعهما يأخذان راحتهما هنا؛ ليشعرا أنهما في دارهما وبين أهلهما.

مع كأس الشاي فتحت الجريدة، تابعت كل زواياها، انشغل الطفلان باللعب والمرح والركض في الشقة، وظهر جمالهما المخبوء بأوساخ وأتربة.

كنت أتساءل: ما ذنبهما أن يولدا في بلد ثري بكل شيء، ليقاسيا شظف العيش والبرد والزمهرير؟!

كما تساءل العم "سعود": أنت تقول، نحن بلد الحضارة، والحضارة يصنعها المتمرّدون!

- نعم عمّاه، وأنا متمرّد يغنيّ بلا انقطاع.

تذكرت الشيخ الأعمى الجالس على قارعة الطريق يبيع "الليف"، اعتذرت لـ "جلجامش"، ولكرامتنا. اعتذرتُ لكل الخواطر العليلة التي يُحاك على مقاساتها الخوف المؤدّج.

- امرحا طالما الحياة في بلدنا أصبحت لعبة.

بقي وجه الفتاة عالقاً في ذهني، وخطرت لي فكرة كتابة مقال بعنوان: (الجواهر تحتمي بستارة من خيش).

سألت وكلّي وجل:

- فكروا ماذا بوسعي أن أعمل لها، وكيف أنقذها ممّا هي عليه؟
ثرى هل لها رغبة في ذلك؟ ماذا أعمل حيال حيّ بأكمله؟

تتكرر في ذهني التساؤلات:

- هل على الصحفي إرضاء القارئ، أم يكتب ما يُملّي عليه ضميره؟

في أجواء الانفلات الأمني ضاعت مصداقية الصحافة، ظهرت أقلام مأجورة، وبقيت مجرد صراعات أقلام. هذا لا يعني كلّ الأقسام وكل الصحف، فهناك خط آخر لكنه يكافح بقوة في ظروف إلغاء الصّوت الحر والوطني، وتعتيم وغلق الصحافة أحياناً.

كانوا سابقاً يمجّدون الفرد الواحد المطلق، والآن تعدد التمجيد لجهة متسلطين، وبعضهم غير متعلم، بل لطّام في منابر العزاء

الحسينية، والصدفة العوراء جعلت من قاصر المعرفة والتعليم سيداً
ذا نفوذ، لا يخرج إلا بحرس خاص، وله جيش خاص وسجن
وسجانين، وقتلة جهلة يحملون اسمه، ويعيثون في البلد فساداً
وترهيباً.

صباح اليوم دخل رفيقي مرتدياً منامة أخرى لي، كأنه يقلد الشيخ
العجوز، وتفوح منه رائحة عطري الجديد، لكنه استطل وأصبح
فعلاً يشبهني بالطول والقامة والنحافة، ولم أرَ منامتي تخط وراءه
على أرضية الشقة، سابقاً كنت أجاهد في تنظيفها حتى أنني
رميت بعضها.

في كلّ صباح على مائدة الطعام، يلمح لي الشيخ بكلامه
المعسول عن الفتاة والواجب إنقاذها من العيون الشبقة وخاصة
الشرطة الباحثين عن مروجي المخدرات، الذين ينشرون العدالة
والباحثين عنها، ولا يصونون عرض البلد وابنته وشرفها.

كما تعرضت كثيراً للاغتصاب بحجة أنها تخبيئ أسماء ومكان
مروجي المخدرات، وعلى هذا الأساس يسمحون لأنفسهم بسجنها
أو احتجازها في مخفر الشرطة، هذه الذريعة يعرفها كلنا؛ ثم

يعيدونها جثة هامة، لا تقبل بمساعدة أحد كي لا يرون ضعفها ووضعها، كانت تعطف عليها العجوز وامرأة أخرى في الخمسين من عمرها تسكن هي وأخوها في غرفة، أخوها يعمل في البناء بأجر زهيد يسد الرمق فقط، بسبب انتهاز ذوي النفوذ أصحاب المشاريع في بناء المطاعم الكبيرة والعمارات والأسواق، واستغلال هذه الشريحة لتنفيذ مآربهم.

ثم يكرر: إنقاذها ممّا هي عليه شرف لكل رجل!

أبتسمُ بوجهه، وظلي يهز رأسه تعاطفًا.

فكرت صباح اليوم في شراء ملابس لشخصين بنفس مقاسي، وأنا في الطريق قررت المرور على الحي، وقفت بنفس المكان متأملًا الأوضاع والوجوه، منتظرًا أن تطلّ الشابة بابتسامتها الجميلة، ليس كلّ مَنْ ابتسم ابتسمت عيناه معه، وهي تتصف بهذه الصفة. سألت عنها، لم يرد أحد سوى رجل قال:

- أخذتها الشرطة أمس، ولا ندري متى يرجعونها. ليس من حقهم سؤال الشرطة، تجرأ موضحًا: هم أنفسهم كلّ مرة.

رجعنا أنا وظلي حزينين، هو يفكر بشيء لا أعرفه، وأنا أفكر بعنوان مقالتي الجديدة، ولحني المختبئ بين "الصبا والحجاز".

قلت له: عليّ ألاّ أتجزأ، وعليك ان تساعدني، سأكتب عن هذه الفتاة، لكن أولاً لا بُدّ من معرفة أين يأخذها الشرطيان، وماذا يجري لها هناك.

أشار لي بأنه سيفعل، وفهمت من أن الظل لا يحتاج لترخيص أو مساءلة في الحضور لأي اجتماع أو مكان، ستأتيني أخبار الفتاة بواسطته، رد عليّ مؤكداً احتمالاه ثم حرك أصابعه توضيحاً:

- لكن ليس الآن، ولا بُدّ أن تأخذني للمعالم الجميلة، لم أر منك غير النكد.

قلت نعم، علينا ملازمة المكان والتربص للشريطين، سأخذك لرؤية نصب الشهيد، وجمال بغداد لتراها بصورة مختلفة، إنما الآن لنا وجه واحد ومحدّد ووجهة واحدة.

ثم أردف بشيء من إشارة الإيجاب والقبول: سيصعد معهما في السيارة ويأتيني بأدق التفاصيل، بعد أن يرى نصب الشهيد.

راقت لي الفكرة، خاصة أنني سأجند ظلي مستقبلاً، فقد رسخت الفكرة في ذهني، وأرسل الصحف أو الأشخاص الباحثين عن الحقيقة. وسأشتري له هاتفاً ليصور لي كل ما يجري في المهمة التي سأוכלها إليه، وبعد كل خبر أريه معلماً من معالم بغداد. وأيضاً هي فرصة لضرب الأحزاب فيما بينهم، ومعرفة من مع من وضد من، فالأغلبية تتظاهر بغير حقيقتها!

وحتى نكون مرآة صادقة تعكس إرادة الشارع؛ علينا أن نحترم شرف المهنة، والقسم الذي أقسمناه.

تمادى الأشرار، وصمت الأخيار المرتجى بأصواتهم ومواقفهم، وهذا لا يعني أن نقف مكتوفي الأيدي.

اتفقت مع ظلي على الذهاب إلى منطقة بيوت العشوائيات، وحذرتني كثيراً العم "سعود" من تكرار تواجدي هناك خشية عليّ ومراقبة الشرطة:

- احترس، ستكون نهايتك.

- لكني أريد إنقاذها، وتعريتهم.

في الصباح الباكر، احتسيت الشاي وتناولت شطيرة خبز بالجبن، وخرجت مسرعًا باتجاه المحرومين من ملذات الحياة، وقد حالمني الحظ بوجود سيارتين بكل منها شرطيان ما عدا السائق. نزل اثنان من إحداهما، وبقي الآخرون ينتظرون، وبحركة مفتعلة راحا يفتحان الأبواب المهترئة، يستوقفون هذا، ويتركون غيره، حتى اقتريا من دار على شكل غرفة تسترها ستارة من "الخيش" أزاحا الستارة، وأمام الجميع راح أحدهما يستجوب الفتاة، وصفع شابًا آخر استدراجاً للتمويه، وسحبوهما لإحدى السيارات، ثم ربطوا أكفهما بالأصفاد.

وضعوا الفتاة في سيارة أخرى، وسارت كُلّ سيارة باتجاه آخر.

من المصادفة وقفت سيارة أجرة؛ فاستوقفتها، وسرنا ننتبع إحداها؛ بينما التي فيها الفتاة أسرع، ولم نلحق بها ونعرف وجهتها، بحثت عن ظلي فلم أجده، نظرت في كُلّ الاتجاهات؛ لم أعثر على أثر له.

نزلت مقابل مركز الشرطة، حيث اقتادوا الفتى لعلّي أجد ردًا عن مكان الفتاة، عند الباب طلب مني الشرطي هويتي، وسبب مجيئي هنا، بيّنتُ له أنني أريد تقديم شكوى عن تحرّش بابني الصغير.

سألني عن اسمي، وهو ينظر إلى هويتي، حين أجبتة اسمي في الهوية استنكر ردي، وأشار إلى أحد الأبواب لتقديم الشكوى.

صعدت السلم لأرى أين أخذوا الفتى، كل شيء غاب، أين لا أعرف، أخذتني الحيرة وأنا أنظر في كل الأرجاء، بين الحين والآخر يخرج رجل يترنح وآثار الصفع والضرب على وجهه، وملابسه توحى عن تمرّغه في الأرض. آخر طرده وهو يصرخ ألماً يئن بوجع خفوت. رجعت خائباً دون جدوى إلى شقتي، فوجدت ظلّي جالساً وملامح انتصاره عليّ واضحة في حركاته، يبدو كأن لديه معلومات لا أعرفها، كما وجدت العم "سعود" قد طبخ لنا وجبة الغداء من الأرز والدجاج المقلي. الطفلان "جواهر وهمام" يلهوان باللعب، يبدو أنهما سبقنا وتناولوا وجبتيهما.

سألته ما شرك اليوم؟ لم يجب وأشار للطفلين، فقلت له لاحقاً نتحدث.

على الرغم من أن العم "سعود" غير مهتم بشكله، وشعره الطويل الأبيض ولحيته، إذ طالبت منه مراراً الذهاب لـ"صالون الرجال" إنما رفضه ذلك ينم عن زهده في الحياة.

مجالسته متعة مليئة بالأفكار والآراء والثقافة المتعددة، في الاقتصاد والسياسة والأدب وعلم النفس، والفلسفة؛ تُغني عن قراءة العشرات من الكتب.

رجل متحصن بالثقافة، حين أتحدث معه أنسى هموم الشارع والناس والقبح خارج الدار، وأنسى أنني أصبحت ظلاً لاسمي السابق، ولو للحظات، كون الألم يتضاعف ولست ممن يرى ويصمت أو يبيع ذمته وانتماءه لوطنه وشعبه بمقابل لا يستحق البسقة من وجهة نظري، حتى البساق أثمن منه.

التفتُ صوب ظلي أسأله، فقد أخذ القلق يأكل قلبي على الشابة "جميلة" واقتربت منه هامساً: هل هي بخير؟

غادرني ووقف عند البرّاد ينظر لمحتوياته كأنه يهرب من الجواب.

- هي الآن تشتكي بصوت خفوت، تننّ بألم كبير ومذلة.

أخيراً نطق، أخيراً نطق. لم يسمعه أحد، ربما تهياً لي، هو لي أنا، ولم يره غيري.

هذا كان كلامي وفرحي به، إنما استفزني كلامه، وفقدت السيطرة على نفسي قمت لأضربه، تحرك بسرعة، ووقف خلف العم "سعود"؛ احتمى به.

صرخت به:

- عد، لا مفر من مصادقتك فأنت حتى في الضوضاء تشبهني! وبين المسافات خطوتك لا تضل الطريق، يكفي مرافقتي في المشي والركض.

استغرب العم "سعود" كلامي، إذ بدوت كأني أصرخ به، لوى رقبته وغادر إلى الغرفة، سرت خلفه أستسمحه وأقسم له أنني لم أقصده هو، بل الآخر.

- أي آخر بُني؟! أنت صرخت بوجهي.

من المستحيل إقناعه، والظل يقف مبتسمًا، هو لا يدرك أو يدرك ما فعله بي. ، قلت له:

- ما رأيك لو نخرج قليلًا في الحديقة القريبة من منزلنا؟

نعم، قالها وأسرع يسبقني إلى الباب، كنت حزينًا أفكر بكيفية إرضاء العم "سعود".

في قرب حلول المساء"، كنا أربعة؛ أنا وهو وشاب مع عشيقته، اختارا شجرة كبيرة، وجلسا تحت ظلها يتسامران.

كانا ينظران إلي باستغراب، ويضحكان كأنهما شاهدا مهرجًا. لا ألومهما، فأنا أبدو هكذا حين أتحدث مع ظلي، أقف أمامه مثل مجنون، المجانين في الشارع أما يكلمون أنفسهم، أو ظلالهم، أو يعترضون الماشين.

قل لي: ماذا رأيت في مخفر الشرطة، هل اعتدوا على "جميلة"؟ هل اغتصبوها؟

- لا هي حصة مدير الشرطة، والشاب حصة مساعده، ألم ترى جماله وشعره وعينيهِ الكحيلتين؟

- يا ويلي، يا ويلي!

صرخت بصوت عال:

- يا ويلي، يا ويلي، واستذكرت المثل الشعبي: (حاميه حراميه).

- اسمع صديقي سنذهب ليلاً ونأتي بها.

- وهل ستأتي بكل ذي مشكلة؟! المشاكل كثيرة، وكل واحدة بلون من القهر.

استأجرت سيارة في الليل، ودخلت عليها فجأة، وجدت مرمية على الأرض وتحتها ملاء ممزقة.

لم تفه بكلمة، بالكاد نهضت، وغطت نفسها بقميص مرمي قربها، ولم تسألني ماذا أريد. أمسكت بيدها، قذتها إلى السيارة، ودخلنا الشقة، وقتما رآها العم "سعود" صرخ:

- هكذا هي الشهامة في بلدنا، لكن كن حذرًا!

في الصباح الباكر طلب الظل أن أفي بوعدتي له، لا بدّ من ذلك، ثم أوضح لا أريد معلمًا واحدًا، كلّ يوم تأخذني إلى مكان!

حسنًا قلت، وأخبرته اليوم نذهب فحضر نفسك!

ضحك:

- أنت حضر نفسك ما أنا إلا تابع لك.

- هيا لنخرج.

ونحن في سيارة الأجرة أوضحت له بعض المعلومات عن النصب، الذي يرمز الى الجنود العراقيين الذين استشهدوا في الحرب العراقية الإيرانية، (نصب الشهيد)، عبارة عن قلبين كبيرين تخليدًا للشهداء. يقع في جانب الرصافة من بغداد.

حين اقتربنا، أعجبه اللون الأزرق، وضخامة البناء وجماله، قلت له:

- العراقيون يحبون هذا اللون، خاصة أنهم أوّل من ابتكر السيراميك وأعطوه اللون الازرق، ثم طوره بإضافة الوان أخرى، وأوّل من استعمل الحجر المفخور من الطين. أوّل من استخدم الطابوق في البناء.

هو من أبرز المعالم المعمارية في بغداد، يقع إلى جانب الرصافة، إذ يرمز إلى تضحية الشهداء في سبيل الوطن.

- نعم نعم العراقيون متمسكون بوطنيتهم من أمثالك.

- ولأني وطني أيها الظل فقدت عملي.

- لا عليك تبقى أنت الأفضل، هيا أكمل عن النصب.

- تكمن عبقرية التصميم في الخداع البصري في النصب المقام على أرض مفتوحة مترامية الأطراف، إذ يشاهد المار حول النصب أن شطري القبة التي تبدو مغلقة عند بداية الشارع، ويبدآن بالابتعاد أحدهما عن الآخر، وكأن بوابة تتفتح أمامه تمهيداً لخروج شيء ما، وعندما يدخل الزائر موقع النصب يجد العلم العراقي الذي يرتفع إلى الأعلى تجسيدا لارتفاع روح الشهيد.

لدينا الوقت الكافي، سنذهب لنُصب آخر "الجندي المجهول" في ساحة الاحتفالات الكبرى، استُخدم فيه مواد الصلب والنحاس والرخام والزجاج والجرانيت والخرسانة المسلحة والإكريليك. والنصب على تل اصطناعي.

يمثل النُصب درعاً تقليدياً يسقط من قبضة محارب عراقي يحتضر. القُبَّة مصنوعة من الخرسانة المسلَّحة، على جانب القبة برج حلزوني يشبه ملوية سامراء. أما السطح الخارجي فمُغطى بالنحاس، وسطحه الداخلي مُغطى بغطاءات منضدة، مع وحدة هرمية بسقف شبه دائري بصفائح فولاذية مثله.

أسفل الدرع مكعب من سبع طبقات من المعدن يمثل المستويات السبعة في الجنة داخل طبقات المعدن صفائح من الكريليك الأحمر تمثل دماء الجنود القتلى، وبه تُحف تحت الأرض.

كان منبهراً، أنا أشرح له التفاصيل وهو يدقق بها ليتعرف ويستمتع. لم يشأ الدخول للمعرض؛ كونه تحت الأرض وهذا يذكره بالقبر.

قلت له سأريك مكاناً سيعجبك، سألني ما هو؟ فأجبت: إلى بقايا بيوت اليهود في العراق.

برم شفتيه بدلالة عدم الرغبة بذلك، كوني أحب الخرائب دائماً، لكنني أوضحت له بأننا سنذهب لأماكن جميلة أعدك بذلك!

ونحن في سيارة الأجرة استغرب السائق من طلبي، في زيارة منطقة اليهود قائلاً:

- إنها خرابة الآن، بقايا بيوت متهدمة كانت على شكل شناسيل. يتحدث وهو خائف، صارت الناس تخاف من دسيصة، لكنه شعر باطمئنان من خلال حديثي.

قلت له أنا صحفي، وتهمني أدق التفاصيل عن بغداد، فاسترسل بالكلام وقدم نفسه أنه مؤرخ ومتقّف له عدة مؤلفات، لكن شظف العيش قاده إلى العمل في السواعة.

نظر لي ظلي يستشف المزيد من حديثنا، ثم همس في أذني:

- ألا تظن أن هذا السائق من أصول يهودية؟

سحبت ورقة وقلمًا من حقيبتي، وكتبت:

- ليس بالضرورة، كما أن الرجل مُتَقَفٌّ ومُؤرِّخ، وأنت ستنتشف من خلال كلامه، وتحصل على معلومات تفيدك.

وكي أفيد ظلي قلت:

- إنَّهم عاشوا في العراق منذ السبي البابلي، في مناطق مختلفة، بغداد والبصرة وبابل والشمال، حتى تأسيس الدولة الإسرائيلية، فهاجروا من العراق، وصودرت أملاكهم وبيوتهم، وأسقطت عنهم الجنسية العراقية، سُمي عام "الفرهود" وقتها.

وهناك أيضًا ضريح النبي "ذو الكفل" في بابل، وسوق لليهود ما زال قائمًا.

أيد السائق معلوماتي:

- لقد مروا بالشد والجذب بين الحكم الساساني والإسلامي، تحديدًا
زمن "هارون الرشيد" والحكم العثماني، ها نحن وصلنا.

لم يقبل بأخذ الأجرة، رفض وبقوة.

وراح يحدث نفسه بصوت مسموع:

- سترك ربي من المجانين، هل نصيبي أن يركب معي رجل
مهووس يكلم نفسه، ويؤثر بكلتا يديه كأنه يخاطب أحدًا؟! أعوذ
بك ربي من شر شيطان رجيم.

تذمر الظل كثيرًا، وأزعجني سلوكه وهو يركل بعض الحجارة:

- لا تأخذك الخرائب إلى المزيد من الضجر، تخيل كم حكاية
عشق كانت زاهية هنا؟ وكم عزف جميل قاد الكثير من الفنانين
إلى مجلس مهم؟ اليهود علّموا أصول المقامات إلى العراقيين.
كانت لي رغبة عارمة في تصوير المكان، بينما هو سبقني يريد
الرجوع، قلت له:

- لن يقف لك أي سائق، أنت مرئي لي أنا وحدي.

أطمح بإرضائه؛ كي تبقى ذاكرة المكان عالقة في ذهنه حين
نسافر. صمتَ دون ضجة، صمت عميق، أشعر به، فالكلام
العميق يصبح عاصفة. لا يهم أين نذهب، وماذا نقرأ أو نكتب،
إنما باستطاعة الفجر أن يبرز في داخلنا وهو يستخرج الصور
للمقارنة، فالكثابة سفر آخر من أقصى الحنين إلى أقصاه.

حينما لا نستطيع قول شيء أكبر من تخيلنا؛ نتجاوز ذلك باحثين
عن شجرة

تترجم ذلك إلى لحن.

أيها اللحن العصي، أينك؟

تعال، بأعذب نغم؛ ونمضي إلى البوح المغرم في شفاهنا. الحب
يطوي، ويفتح رئة الخبز.

فلنعبر الحدود إلى المطافات، شمالاً، جنوباً، إلى انغماس كلي في
الشوارع والحارات ونكتب. هكذا يولد الصوت، هادراً من مجراه
النقي الأصيل.



نزِيلٌ جَدِيدٌ .. وَظِلُّ هَامِسٍ

وأنا أتصفح أوراقِي القديمة؛ وجدتُ ملاحظة، لا أدري متى كتبتها، ولماذا احتفظت بها بين أوراقِي، "الأمل صحن مقلوب".

رافقتني ظلي إلى السوق لشراء ملابس لـ"جميلة"، كان متخفياً سابقاً وقزماً، يبدو لأنني لم آخذ قراراً بعد، أو أنني حسمت أمري كي يستطيل هو، ويصبح كما قامتي.

إنه لا يعير أهمية لأشعة الشمس عليّ؛ ليتّصف بصفة الضوء الحاجب بيني وبينه ومتناغم مع الأرض. قراره كان صائباً وقتما صادقتني، وصار مرافقي أينما ذهبت.

كنتُ بحاجة لملاذ آمن وصديق يسمعني، وأصبحتُ الآن أسمع نحيبهم حتى لو كانوا صامتين، في أعماق "جميلة" شيء مفقود؛ طفولتها، شبابها، حزنها، والألم العميق في عينيها، لا بُدَّ من الوصول إليه.

كان الظل يسمع جلجة الأسئلة في روعي، سألته وأنا متوقع رده:

- كيف عامل مدير الشرطة "جميلة"؟ هل عاملها بلطف، هل أحبها لذلك كلما اشتاق إليها لفق الشرطيان لها تهمة؟

انطق، أنت الآن تتكلم ولست أخرسًا. أسمعك وحدي فلا تخف، إذا لا يخونني حدسي أنك راضٍ الآن، بسبب قراري الأخير. أعرف حين يكون وضعي في مكان مظلم تهرب أنت، حياتي هي مظلمة لا شمس، لا ضوء فيها، وهروبك مني من أجل البحث عن حقيقة أسعى إليها!

ثم تساءلت بلغة عارمة لمعرفة رده:

- هل استمتعت ذكورتك أثناء تعري "جميلة" أمام مدير الشرطة؟
وقف أمامي مثل شبح آتٍ من بعيد.

قفز مبتعدًا عني أثناء مشينا للسوق، ونظر إليّ بتهكّم:

- أستغرب سؤالك، ألم تر نفسك في المرايا؟ ألا تعرف نفسك؟ لو كنت مكاني ماذا سيكون تصرفك؟

أنا ظهرت لك بكامل هيأتي لأنني عرفتكَ جيداً، وانتظرت أن تكون حاسماً لأحسم أمري معك، ليس معك الحق لتسألني هذا السؤال التافه؟

كيف سيكون موقفك وأنت ترى شرف امرأة شابة يُنتهك من مدير الشرطة، وعذرية يافع من معاونه؟

- لا تستشيط غضباً، إننا نتحاور، والحوار أخذ وردّ.

لم يعجبه كلامي ومشى صامتاً، دخلنا محلاً لبيع الملابس النسائية، واشتريت لـ"جميلة" أغلب ما تحتاجه المرأة، وسوف أرى لاحقاً فيما إذا تريد شيئاً آخر؛ فأنا لم أتزوج ومعرفتي بلوازم المرأة غير دقيقة.

توقفت عند صيدالية في السوق، اشتريت ضمادات ودواء لتخفيف الأورام والكدمات، فقد كانت "جميلة" قطعة زرقاء، وآثار عضّ وأسنان على ساعديها، لربما لدى الصيدلاني دواء لذلك، وحالما سألته عن دواء لعضّات، بادرني هو بالسؤال:

- هل الكلب من الكلاب السائبة في الشارع؟ لأن عضّاتهم مسمومة، ولا بُدّ من أخذ المريض للمشفى، وأخذ الحقن في البطن؛ وإلا سيصاب بداء الكلب، وتأخذه نوبه سعال تشبه النباح.

أحبته شكرًا، وخرجت خجلًا منه ومن "جميلة"، ورحت أتمتم:

- لا أعرف بالضبط، فالنباح في كُلِّ مكان، تُرى مَنْ يعرف أي حرف سيحرك الشفاه!

أتخيل بكاءها، والشراسة تستولي على جسدها وروحها. كُلُّ شيء يشفى، إلا الكرامة حين تُطعن. كُلُّ المشهد أمامي، أتخيله من أول دمعة حتى الانطفاء الأخير.

الحقيقة كائن معوّق، لا تشفيه معاركنا الكلامية؛ لهذا يخنقني صمتي وألجأ إلى ظل.

لم يكن السائق عجولاً وهو يقلني إلى منطقة سكني؛ لذا مررنا بساحة التحرير

وقد شدَّ انتباه ظلي "نصب الحرية"؛ مدَّ رأسه من النافذة بعد أن أنزل الزجاج متسائلاً عن اسم النحات.

- هو الفنان "جواد سليم"، ونصب الحرية عبارة عن سجل مُصور صاغه الفنان من خلالها سرد أحداث رافقت تاريخ العراق. مزج خلالها بين القديم والحديث، حيث تتخلل النُصب الفنون والنقوش

البابلية والآشورية والسومرية القديمة، إضافة إلى رواية أحداث ثورة الرابع عشر من تموز، ودورها وأثرها على الشعب العراقي، وكثير من الموضوعات التي استلهمها من قلب العراق، ولعل أهم ما يجذب الشخص عندما يطالع النُصب للوهلة الأولى؛ هو الجندي الذي يكسر قضبان السجن في وسط النصب؛ لما فيه من قوة وإصرار ونقطة تحول تتقل قصة النُصب من مرحلة الاضطراب والغضب والمعاناة إلى السلام والازدهار.

يحتوي النُصب على أربع عشرة قطعة حيث يرمز عددها إلى يوم (الرابع عشر من تموز في المصبوبات البرونزية المنفصلة)، وبعد أن كانت الحركة مضطربة يمين النصب، فإنها ومع التحرك نحو اليسار تنتظم وتصبح نابضة بالعزيمة والإصرار بصورة إنسان يتقدم إلى الأمام، وبعدها ترتفع اللافتات والرايات الجديدة في السماء، بعد ذلك يطالعنا رمز البراءة والأمل على هيئة طفل صغير يشير إلى بداية الطريق، تطالعنا بعدها امرأة مشحونة بالانفعال والغضب والحزن، ومن ثم منظر مؤثر حيث تحتضن الأم ابنا الشهيد وتبكي عليه. ولعل هذا الأمر كثير الوجود في التاريخ العراقي سواء أكان القديم منه أم الحديث، لأن النُصب

برموزه الأربعة عشر -والتي يمكن اختزالها إلى اثني عشر رمزًا -
إنما ترمز إلى شهور السنة الواحدة المشحونة بالغضب والانفعال
والحزن في العراق.

تلي هذه الرموز صورة الأمومة التي تغمر الحياة الجديدة بالحب
والحنان، فقد تكون للثورات والمآسي ضحاياها، لكنها تملك في
الوقت ذاته أجيالها الجديدة، ولعل في ذلك التفاتة جميلة من الفنان
لنبد اليأس.

بعد ذلك يصل إلى الجزء الأوسط، وهو الجزء الأهم في النُصب
حيث يشير إلى نقطة التحول، وهو يتألف من ثلاثة تماثيل على
اليمين؛ يطالعنا تمثال السجين السياسي الذي تبدو الزنزانة فيه
على وشك الانهيار تحت تأثير رجل مزقت ظهره الشياطين، ولكن
القضبان لا تتفصل في النهاية إلا بإصرار وقوة وجهه الجندي
الذي يظهر في الوسط، وذلك اعترافاً بأهمية دور الجيش في ثورة
الرابع عشر من تموز.

لهذا النُصب أثره على المجتمع العراقي على مختلف الثورات
والعصور، فلم يتوحد العراقيون برمز يوماً كما توحدوا باتفاقهم بأن
هذا النُصب هو رمزٌ للتخلص من العبودية والظلم.

بعد ذلك تتقلب صفحة المعاناة والمآسي لتحل صفحة السلام والازدهار والحرية، حيث يظهر لنا مجسم امرأة تمسك مشعلًا، وهو رمز الحرية الإغريقي، وتتدفع نحو محررها، وبعد الانفصال يأتي الهدوء؛ فيتوقف الغضب ومواجه الثورة، وتحل الراحة والسكينة في القلوب، وتتحوّل بعدها القضبان الحديدية إلى أغصان. وكذلك نهر دجلة والفرات يُعتبران العمود الفقري لحضارة وادي الرافدين، لم يغيبا عن النُصب؛ حيث يفسر البعض نهر دجلة بأنه أشجار النخيل، ونهر الفرات بمعنى الخصب تمثلهما امرأتان؛ إحداهما تحمل سعف النخيل، والأخرى حبلًا. وثمة فلاحان يرمزان إلى العرب والكورد.

وكذلك هنالك رمز عراقي آخر وهو الثور الذي يُعد رمزًا سومريًا، بينما يظهر الجانب الصناعي في أقصى اليسار على هيئة عامل مفعم بالنقطة.

كان ينظر إلي وملء فمه استفسارات وتوضيحات عن بعض الأسماء، ومعرفة ثورة "عبد الكريم قاسم"، وما إلى ذلك، وجدت لمعانًا في نظرات عينيه، لكنني تهربت منه، وبيّنت له قلقي على "جميلة" وباقي الأسرة؛ فقد تأخرنا عليهم، وإلا قرنا المرور في معلم آخر.

وقت دخولنا الشقة؛ بدت "جميلة" بأفضل حال من ليلة البارحة، أخذت حمامًا وانتعشت، وظهرت التعضنات وآثار الاعتداء الوحشي عليها.

فرحت بالملابس وراحت تستعرضها أمامنا، وتضع كُلّ فستان على جسدها وترى بالمرآة شكلها، التفتت إلي:

- هل لديكم خرقًا بالية؟

أجبتها بالنفي، وقدمت لها فوطة جديدة من المطبخ، شكرتني ودخلت الغرفة المخصصة للطفلين.

همس العم "سعود" في أذني:

- واضح أنك قليل التجربة بالنساء، إنها تريد فوط غيار المرأة، وقد لاحظتها تنزف قبل قليل، وتدخل للحمام بكثرة.

- كيف لم أفهم ذلك، حاليًا سأرجع للسوق، وأتيها بفوط النساء، لكنك قلت: تنزف، ربما تحتاج لطبيبة.

- سلها بُني قبل أن تخرج، وأظنها فعلاً بحاجة لطبيب، شكلها مؤسف.

أجبتة:

- لا عليك سأخرج الآن، لي صديق طبيب سأجلبه معي؛ لأنني لا أريد أن يراها أحد هنا خوفاً عليها.

لم تمض ساعة على خروجي، جئت والطبيب "أيمن معي" استأذنتها في الدخول وأذنت لي، كانت تتألم بشدة وبدمع مكبوت، طلب مني الطبيب الخروج وإبقائه معها للفحص.

كنا جميعا قلقين عليها، لحظات وخرج الدكتور:

- زوجتك في حالة إجهاض، وفي الشهر الثاني.

لا بُدَّ من أخذها للمشفى.

اختليت به فهو صديق قديم وظن هي زوجتي، أخبرته إنها زوجة صديق لي توفي منذ شهر، وجاءت لزيارتي هنا بحثاً عن عمل. وهي مطاردة من الميليشيات، تخشى الدخول للمشافي، وطلبت منه التصرف.

تركني، واتّصل بشخص لا أعرف ماذا قال له، ثم طلب مني نقلها بسيارته والذهاب معه.

فوجئت إنها عيادة طبية صديقة للدكتور "أيمن" وتعمل عمليات
إجهاض بمقابل، في عيادتها.

استغربت وضع "جميلة"، متسائلة: ما سر الكدمات على جسدها؟
أجبته: سقطت من سلّم في البناية وهي راجعة من تقديم طلب
للعمل، وهذا سبب حالتها الآن.

انتظرت لوحدي في صالة العيادة، غادر الدكتور "أيمن" وتركني
في حيرتي لا أعرف ثمن العملية. كلّ ما فعلته اتّصلت بصديقي
المخلص "فيصل"، وطلبت منه إحضار مبلغًا كبيرًا، وأعطيته
العنوان.

كانت لحظات حرجة وقلقة بالنسبة لي، تعانقت مع "فيصل"
وسرقنا الحديث عن العمل، ومستقبلي، وكيف أقضي يومي دون
عمل إذ لا بُدَّ من رزق.

قال: أخاف عليك من أسلوبك الجديد في الكتابة، ثم لا أستطيع
إرسال مقالاتك لأي صحيفة، حتى لو كان محرر الصفحة
السياسية أو الثقافية صديقي، كلنا سنخضع للمساءلة في النهاية.

- لكنني غيرت اسمي يا صديقي، اسمي الآن لستُ قاسمًا، بل "مناضل صالح".

- حتى هذا غيرهِ، فيه تأويل وكأنك فقط المناضل والصالح بهذا الوطن؛ إنه يثير الشك.

- ماذا تقترح علي؟

- كُلّ مرة اكتب باسم؛ مرة فتاة، مرة امرأة، مرة رجل، فتاة وغازل رئيس التحرير ليمرر منشورك، حتى لو مخنث، صدقني سيتلقفون منشورك بسرعة، وضحك ضحكة عالية.

- هكذا أصبحت الدنيا الآن صديقي، وهذا الوضع يرفع التافهين، ويجعل من أمثالك متخفيين.

- أنا كتبت موضوعًا عن بيوت الصفيح.

- الموضوع جميل، وتناوله كثيرون، لكن أسلوبك يخيفني، لذلك اكتب باسم فتاة، إلى اللقاء صديقي، بيننا هاتف قريبًا.

ناديته: انتظر أرجوك، سنعود بسيارتك، هي أيضًا مثلي متخفية.

أعطتني الطبية الوصفة الطبية، وأوصت برعايتها جيدًا؛ فالشابة ضعيفة البنية، وتحتاج تغذية جيدة.

لم يبقَ من المبلغ الذي جلبه صديقي "فيصل" إلا القليل، أوصلت "جميلة"، وخرجت أتبضع الفاكهة.

أصبحت لي عائلة كبيرة، بعد أن كنت وحيدًا، أصعب شيء على الإنسان أن يأكل وينام وحيدًا، لا أحد يهتم به، يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، لعل الطيور تغني في داري، وأرى الربيع بوجوه أسرتي الجديدة.

كان حلمي هادئًا ليلة أمس، بعد أن رحبنا جميعًا ببعض، وتبادلنا المُرَحَ الراقية الجميلة، وتحدّثنا بأمر شتّى مبهجة، بعيدًا عن أية هموم ومشاكل.

سمعتني أذكر أسماء فنانيين عراقيين، وأتحدث عن الفن في وقت لا مجال لذكره؛ فاستغربوا دخولي هكذا، لكن الظلّ الملعون كان يهز رأسه استمتاعًا لأنه همس لي راغبًا بذلك.

- تاريخنا مليء بالنحاتين، وحاضرنا أيضًا، الفن الآشوري، والسومري والبابلي، وأحفادهم،

"جواد سليم، وخالد الرحال، ومحمد غني حكمت، إسماعيل فتاح
الترك". . . كثيرون، كثيرون يا صاحبي!

كانوا ينظرون في وجوه بعضهم، وكنا نمزح، سألتني "جميلة": من
هو صاحبك الذي كلمته؟ وما اسمه؟ لا أحد بيننا غير العم
ونحن!

رقص هو فرحاً، متلمظاً بطريقة أزعجتني، وأنا أتفادى الإحراج
وأقول: سأخرج لشراء (أكلة الباجة)، ومن لا يحب ذلك ليخبرني.

وجدت الجميع راغباً بها، بينما الطفلان وهما يمرحان قالوا بنفس
الوقت:

- لم نذق اللحم منذ فترة إلا حين جئنا هنا. كانت جدتنا تطهو
مصارين السمك كلّ يوم ونأكلها لثلاث وجبات.

هل نحن بحاجة للحم أم للحب! سمعني أقرأ شعراً عن الحب، نظاً
أمامي:

- أنا أحببتكم، لم أعد مثل باقي الظلال، مجرد توابع، كما أنني
صرت رفيقاً لك، أشاطرك أفراحك وأحزانك.

أنت حولتني من مجرد ظل إلى صديق، على الرغم من اختلافي
معك بأمور كثيرة، أحببت أن أسمع وأرى، لكن لا آكل (الباجة)
يكفيني أن أراكم تشبعون، لا تأكل الضلال.

خرج معي إلى السوق الشعبي لشراء الخبز والفول وأكلتنا المنتظرة
من الجميع، وأيضاً اشتريت "الكاهي والقيمر" للإفطار، مع علبة
من "الدبس".

- هل ستأخذني في جولة اليوم؟ بودي لو نخرج جميعاً؛ فالأطفال
و"جميلة والعم سعود" بحاجة لنزهة، كلنا بحاجة لنزهة أسرية.

- ولم لا نخرج؟

أجبتَه بألم:

- أخشى عليكم من الذئاب.

- الذئاب؟

- أجل يا رفيقي الظل، الذئاب تستحوذ على المدينة.

- وهل أنتم عاجزون عن طردها؟

- دعنا بعد الغداء ندخل عالم الموسيقى، نتجلى بعض الشيء،
لعلنا نصل إلى اكتشاف لحن يطردهم ولو بالعزف.

ما زلت في خصام مع آلة العود، لا أدري كلما أمسكت الريشة
رجفت يدي.

أخاف عليها، خاصة تحذيرات العم وأحترز بحذر. كُلّ يوم
يستضيء وجهها قليلاً، تتلاشى خشيتي، وأنظر إلى جمالها
الحزين. في العمارة يعرفونني جيداً لا زوجة وأخت، ولو أخرجتها
في نزهة سأمّر في تساؤلات وتبريرات لسنا في حاجة إليها الآن.

فكرت في ارتدائها الحجاب الكامل، وأجهضت الفكرة، فأنا ضدها،
قلت لهم:

- لنلعب لعبة "المحييس"، والفريق الفائز يشتري له الخاسر كُلّ ما
يطلبه، هم ثلاثة ضد اثنين، أنا والعم فريق، والطفلان و"جميلة"
فريق، غمزت للعم أن نأخذ كفة الخسارة، وفهم قصدي.

الفريق الراح طلب مني العزف، والعم يرقص.

ضحكنا بأعلى أصواتنا، منذ أمد بعيد لم يضحك قلبي هكذا، العم
يرقص، هاهاها.

أشار لي ظلي: وأنا سأرقص، المهم أن تعزف ما سيرقصنا، أبعد
عنك عناد أصابعك. أخرج اللهب الكامن فيك.

أنقذني العم حالما شاهد تلعثمي، كأنه أشتم عطراً لانبعاث
مكبوت، غير قادر على الخروج من زنزانته. فاستدرك:

- من رأيي أن يشتري "مناضل" المثلجات والبيتزا، ما رأيكم؟

حمدت ربي وشكرت العم، نظر لي بعمق: أعرفك، وأقدّر ذلك.

في الصباح تذكرت كلام العم "سعود":

- أنت بحاجة لطبيب، مع هذا اكتب، ولا تبقَ في الظل.

في الظل؟ لن أبقى في الظل، ولا بُدَّ من تحمل النتائج. الأدب
الذي لا يساوم على الكلمة والمبدأ. وها أنا فُصلت من عملي
لأنني لم أساوم على مبدأ الصحافة، ودور الصحفي الملتزم.

كي نحجب الحقيقة عن المتلقي، ونقدمها مشوهة بالوهم والزيف،
والدعاية والترويج لفلان وفلان؟

في بلاد النفط وفي زمن التكنولوجيا والتقدم، ونحن نقدم ثقافة اللطم، ثقافة الميليشيات والجهل؟

إذا أردنا السيطرة؛ علينا تجهيل العقول، وإغراقها بالمال والتحكم بعباد الله.

أنتقاسم والعم "سعود" الآراء والنقاشات، وأجده يحمل نفس أفكارى ورؤيتى تجاه ما يجري.

على مائدة الطعام صباحًا، سحبت الشابة "جميلة" كرسيًا، وجلست معنا، كانت في أحسن حال من ذي قبل، وبدا عليها إشراق العافية التدريجي.

تجرات لأسأل عما آل إليه حالها:

- العم "سعود" أخبرني عن سبب سكنك في بيوت الصفيح، لكن السؤال الذي أريد طرحه:

- هل مدير الشرطة وحشي إلى هذا الحد في التعامل مع الجمال والرشاقة؟

ابتسمت على مضض، وارتشفت رشفة شاي، ثم أعادت الكرة حتى أنهت الكوب كله، عدلت من جلستها؛ لتروي لنا والألم بادٍ بوضوح على معاناتها:

- الجمال والرشاقة نقمة على المرأة في عيون حرس بلدك، وحمايته، ومدير الشرطة له سماسة يبحثون عن كثيرات مثلي ليستمتع بهن، وجلدهن بوحشية لو اعترضن على أية طريقة مقرزة لمعاشرتهم والعبث بأجسادهن، بعضهن اختفين في ظروف غامضة، وغبن لا أحد يعرف مصيرهن.

أيدها العم "سعود" بقوة، وغاب بعيداً كأنه في استنكار أمر يوجعه.

سألته "جميلة": ما بك عمّاه؟

- هذا ما أوصلني إلى التيه ابنتي.

كنت مديراً لمدرسة في منطقة نائية بعيداً عن العاصمة بغداد، وفي المدرسة تعيش عائلة من الحواسم، إذ بات في العراق العديد من أحياء "الحواسم"، وتنتشر غالبية هذه الأحياء في مناطق وسط وجنوب البلاد. كما لا تخلو المحافظات الغربية منها، وحتى

الشمالية، أن عدد من يسكن تلك المناطق بمئات الآلاف، وأخيرًا باتت تُستهدف سياسيًا كونها تمثل سلسلة أصوات دسمة للأحزاب، إذ تستغلّ قوى سياسية عدة أصوات ساكنيها عبر تقديم هدايا ومبالغ مالية أو وعود لهم بتمليكهم الأراضي التي شيّدوا عليها منازلهم وتشريع قانون خاص، واستغلالهم باسم الدين والحماية، أغلبهم غير متعلم، لذلك من السهل لِيَّ عودهم وتطويعه حسبما يحلو للميليشيات.

المهم، بين أفراد عائلة الحواسم التي استغلت المدرسة النائية شابة مطلّقة، وقع بصر أحد أعضاء ميليشية دينية عليها، فهي جميلة كما جميلتنا هذه، وراح يتودد إليَّ ليعرف عن تلك الأسرة الشريفة، لم نر منهم مكروهاً، بل كانت أسرة متعفة، حتى لم يطلب أي أحد منهم مساعدة من كادر المعلمين، أو مني كمدير المدرسة.

بدأ يتحرش بالشابة المطلقة، شكت لأبيها حالها، اكتشفت أنّ الأب خائف من ذلك المشوّه شكلاً وخلقاً، لم يرد على ابنته خوفاً عليها وعلى باقي الأسرة، صادفه مرة يسحب ابنته بقوة، ويختلي بها في الليل في أحد الصفوف، خاصة شحة الكهرباء تجعل المكان أظلمًا وليله دامسًا، صرخت الابنة؛ فهرع أبوها على أثر صراخها

باحثًا عنها، فوجدها ممزقة الملابس وعارية، أخذها إلى الدار
باكياً لا يعرف ماذا يفعل حيال شرفه، لكنه وعدّها بأخذ الثأر
لشرفها وشرف أسرتها.

في الصباح جاءني الأب شاكياً طالبا مني التدخل، ووعدته بذلك،
رأيت ذلك الوحش سيئ الصيت، ومعه شاب مفتول العضلات
يرتدي حزاماً غليظاً، وقد أظهر كعب مسدسه تعمدًا. اقتربت من
الرجل الذي يلاحق الأسرة، واستأذنته للكلام لوحدها، رجلاً لرجل،
لم يلتفت إليّ فتحدثت أثناء وجود صديقه.

بعد يومين اختفت الفتاة والأسرة لا أعرف مصيرهم، وتم فصلي
من المدرسة، وحرق بيتي أثناء فترة الدوام الرسمي، كانت في
داري أُمي القعيدة العمياء وزوجتي وابني الرضع. ماتوا حرقاً.

وها أنا ذا بينكم، كنت ساكنًا في غرفة ذات جدار واحد من
(البلوك)، لولا كرم الأستاذ "مناضل" لأكلنا الدود والحر والبعوض
والذباب!

وبدلاً من إعادة إعمار ما خلفته الحروب انتشرت العشوائيات،
شوّهت وجه المدن حضارياً، وكل ذلك بسبب الانفلات الأمني،
وغياب النظام والرقابة، وغياب القانون.

المؤسف نحن في صراع إعلامي، وناس تسقط ناساً، ولأجل
تبعيتها لغير العراق تُباع الذمم.

يتذمر ظلّي دائماً ولا تعجبه المناقشات، كونها تبقى مجرد كلام،
وهو يبحث عن الفعل، ويطلب مني المشي مع التيار، لن أجنبي
غير المصيبة من آرائي وكتاباتي، عش لحظّاتك، استمتع بالحياة
قصيرة، هذا كلامه الدائم، حتى أنه هدد بتركي لو بقيت هكذا.

يروني أحكي، ولا يرون لمن أوجه كلامي، فأتعجج بأنّي أحكي
نفسي، لم يصدقني العم "سعود"، ثم بان عليه الاستغراب وعقد
حاجبيه:

- صرتُ أخشى عليك بُني من الحوار مع ذاتك بصوت عالٍ! لا
تجعل الأحداث تصيبك بالوهم.

ضحكتُ عالياً، وضحكت معي "جميلة" على أسلوبِي في الإفلات
من تساؤلاته، طلبت منه أن يولي عنايته بتعليم الطفلين، ويهتم

بهما، ويثقفهما، ويحاول عن طريق معارفه استنساخ جنسية لهما،
وإعادة دخولهما المدرسة.

وأوصيت بشدة الشابة "جميلة" الاهتمام بهما، وتعويضهما عن
حنان الأم، قائلاً:

- لا بُدَّ من الحرص على مستقبلهما، وتعويضهما عن خساراتهما؛
فالأسى يحيط بنا جميعاً.

على الرغم من ترنّحي من شدة التّيه، لكنهما المستقبل الذي أطمح
أن نعيد له هيئته.

ابتسمت في وجهي "جميلة"، بادلتها الابتسامة:

- كم عذبة أنت يا جميلة! يشعُّ بي الأمل كلما نظرتِ إليك.

أومأت بإشارة إعجاباً:

- محسودة أنا؛ كون لعيني نظرة إشعاع الأمل. ، مثلك قليل أستاذ
"قاسم".

- التواصل مع الآخر يحتاج طاقة مشعة خاصة العيون.

قلت ذلك، وشكرتها على ردها الجميل.

وأنا أنظر إلى الطفلين يلهوان بمرح تحت أشعة الشمس المظلة من النافذة غير مباليين بحرارتها، تذكرت تألفهما مع القيقز الحارق، أحيانا الحياة تجبر الإنسان على أن يكون جزءاً من قسوتها، ويتصالح معها.

قال العم "سعود":

- ساعد لهما برنامجاً دراسياً، ريثما نستطيع استخراج أوراقهما الثبوتية من دائرة الجنسية.

واستدرك قائلاً بعد رشفة شاي بالهال أعدته "جميلة":

- لعلك تستطيع تبنيهما، وإدخالهما المدرسة.

رعدة خوف ترقرت من عيني "جميلة":

- نحن في غاب، ومن يدري ما ينتظرهما، وبأي شكل سيكون وجه المستقبل!

قبل مجيئنا هنا؛ تكاثرت السيارات الفارهة في حيّنا، العطايا المخادعة بحجة الدين لشراء أصواتنا؛ وهذا حالنا كلما حان وقت

انتخابات، لذلك بنظري المستقبل مجهول، خاصة باستمرار تسيد هذه الشرائح على رقابنا، وعلى مصيرنا ومصير العراق.

الخطب التي تصف لنا النار من منابرها يوم الجمعة مهزلة يعممها الجهلة للتخويف والسيطرة على العقول، وخاصة الشباب؛ وهنا الكارثة.

الدين محبة وأخلاق وسلام، وتقرب إلى الله بأخلاقنا وسلوكنا.

كان ظلي يستمع صامتاً كعادته في أغلب الأحاديث، يستغربون حينما يرونني أعطي إشارة ما، أو أتكلم أو أهمس له؛ حتى أن العم "سعود" ظن أن بي مساً أو انفصاماً في شخصيتي، مما سمح لنفسه مرة أن يسألني فيما إذا عرضت نفسي على طبيب نفسي.

فأجيب بالنفي مبتسماً وأخبره:

- ليس أنا من يحتاج هكذا طبيب، بل حكومتنا كلها ودوائرها ورؤسائها وقادتها؛ فهم مصابون بداء العظمة، وداء السقوط.

ثم أشير إلى ظلي بعيني: هل استمتعت بهذا المرض والالتهام؟

يضحك ويعرف قصدي من ذلك، لكن تبقى علاقتي معه محط الشك بالنسبة إليه؛ لأنني الوحيد الذي يراه.

لم ينبته لهذا الانسجام بيني وبين ظلي، وتطابق حركاتنا، كما أن العم "سعود" لم ير إشارتي بإصبع ظلي؛ إلا بانعكاس الضوء علي.

إنها حركات ذات صلة بي، أحيانًا يكون المرء ظلًا لظله، كما هو وضعي الآن.

نعم، أنا ظله الآن؛ فقد اخترت الكتابة بأسماء مستعارة كثيرة، حتى أنني سأكون امرأة، أو فتاة مراهقة.

كنت المسيطر عليه، الآن هو صاحب السيادة والسيطرة، لا أكتب إلا بحضوره، حتى لو كانت لي مشاهدات، التقطتها من خلال التلفزة والصحف؛ لهذا أشك بمصادقية ما أرى وأسمع وأقرأ.

الإعلام لا ينقل لنا ما وراء الكواليس.

بدأ ينشق عليّ، حركاته لا تشبه حركاتي، حتى لو أدت وجهي، يدور هو بالاتجاه المعاكس؛ إمّا أن يكون متدمرًا، أو أصيبَ بمَلل من الواقع.

أشعر أنه يملك ثورة عارمة حتى وهو ساكن.

لم أستطع أن أنطقه اليوم، أنا الذي استنطق الشوارع والأزقة، كيف أعجز اليوم عن استنطاق ظل تائر!

هي فعلاً فنتازيا غريبة، أقول له لا أحب المال؛ يهزأ مني: المال يفتح أبواب الحياة، كُلّ الحياة بما فيها الجاه.

- لكن المال يعمي العيون، ويفسد، لم يدعني أكمل، وهذه المرة هو أشار إلي بإصبعه:

- لو كنت تملك المال؛ لرفع رئيسك بالجريدة لك القبعة، وسجد على قدميك، ولفصلته أنت حسب خياراتك مواردك المالية!

- أنا عازف أبحث في عزفي عن المفقود.

ستبقى أنت المفقود.

قالها لكن آلمي بذلك، هذا لقب جديد لي "المفقود".

ربما فيه غيظ؛ فاقتربت منه كي لا يراني الآخرون، ويتهمونني بانفصام الشخصية، وأكلم حوائط الدار:

- بلدي يضيع، بلدي يضيع ظلي العزيز والوطن بلا وطن. .
الذئاب في مسقط رأسي تنهش حتى أقمطة الرضع؛ أحنُّ إلى
بكائي بحضن أمي، حتى عذابها، شكواها أحن إلى كلِّ شيء
فيها.

لم يحرك ظلي ساكنًا، ولم يهززه كلامي وحنيني، وأنا ممزق أحن
إلى لحظة فرح وطمأنينة، كلِّ ما فيه مرعب، ويقود إلى حمّامات
من دم.

آه من لعنة البترول التي تطاردنا مثل ظل، مثلك يا صديقي،
ومتلي الآن.

سمعتني العم "سعود"، نظر إلي نظرة غريبة، لم أفهم قصده، ولم
أستطع تحليل غموضها. دخل إلى المطبخ وعاد حاملاً ثلاثة
فناجين من القهوة بالهال، قدم واحدًا لي، وجلس قبالي مناديا
السيدة "جميلة" لتشاركنا.

كان قاصدًا انتشالي من هذيانني، متوقعًا أنني رجعت لحالتي
المرضية. ، الكل متوهم، لست مريضًا ولا بي أي عارض؛ إنما

مريض بوطني، وظلي يريد مني أن ينزف قلبي بدل نزف الطعن العشوائي.

ارتشف قليلاً من قهوته، وسألني:

- ماذا ستعمل للطفلين؟

تركتهما وجلبت من المطبخ بعض الكيك، فقد عمل القهوة مرة، قدمت لهما، وجلست أقضم قطعة من الكيك، وأرتشف رشفة قهوة:

- ألا يكفي مُرُّ الواقع يا عم؛ لنعمل لنا قهوة مرة؟!

- دعك من الهروب من كلامي، وأجبنني ماذا عن الطفلين؟

- لم أهرب، وبعثت لصديقي "فيصل" عن ضياع الجنسيتين، وسأذهب للمحكمة أسجل بلاغاً بذلك.

علماً بأنني سألت صديقاً لي في المحكمة فيما إذا ممكن الاستغناء عن ذلك وأوضحت له أن الجنسيتين غير مفقودتين، بل احترقتا مع بيت الطفلين وأسرتيهما، لكن كلامي لم يفلح مع القانون، وحيثيات ضياع المستمسكات صارمة، ولا بُدَّ منها.

صارمة على الشعب، سحقاً لهؤلاء!

غداً يا عم سأقوم بكامل الإجراءات، وأقدم الملف لدائرة الجنسية.

- ماذا عنك يا "جميلة"؟

مررت أصابعها بين خصلات شعرها، لتغويني بغنجها:

- لم تضع أوراقك، جنسيتي والبطاقة الموحدة، بل وضعت أنا،
كلانا ضائع بين أضلعه ضائع.

كنت بحاجة الخروج من ذاتي، واشتقت لملامسة شيء حقيقي، لم
يلوثة الزيف، استأذنتهم جميعاً، أوضحت لهم عن رغبتني في
الخروج. التحق بي وجاء مسرعاً، ولكزني من كتفي:

- تريد الإفلات مني؟

- بل أريد الإفلات من روحي، هيا لنخرج ونتوجه صوب برج
بغداد.

فرح لذلك وصار يمشي الخيلاء، لا أدري غروراً كان أم تشفيماً،
كلما رأني ضجراً.

العناق مع الظل انزلاق بأعين العابرين، كيف سأعانقه؟ وأنا الآن
كمن يمر بسحابة محاولاً احتضانه، ليس لي سوى أن أفتح شرايين

الطفل الذي كنته بقدر ما أملكه من طهر؛ ونجدل أيامنا مثل
طفلة مهووسة بالأمشاط.

استأجرنا سيارة لنقلنا إلى البرج، وكعادته يريد المعلومات مسبقاً
كي يستمتع بالمشهد والمنظر، وعقله مليء بالتفاصيل.
فشرعت أوضح له كلّ التفاصيل بدقة، آملاً أن دهشة المكان
ستعجبه:

- برج المأمون في بغداد أو برج بغداد السياحي، يعرف سابقاً
باسم برج صدام الدولي، هو برج سياحي يقع في "حي المأمون -
منطقة اليرموك" غرب بغداد-، ويبلغ ارتفاعه حوالي مائتين
 وخمسة أمتار، ويوجد في أعلى قمة البرج عبارة (الله أكبر)
 والمطعم الدوار، بدأ البناء فيه سنة ألف تسعمائة وواحد وتسعين.

في عام ألفين وسبعة أعلن عن بدء إعادة إعمار برج بغداد، حيث
تم تغيير محيط البرج ليحتوي على أراضٍ خضراء وخدمات
ترفيهية من مقاهي ومطاعم وخدمات بريدية ومواقف سيارات،
ويُعد مبنى البرج الذي بجانبه يقع مركز بوابة العراق الدولية
الرئيسية لاستقبال وإرسال كل أنواع الاتصالات، من ضمنها
الاتصالات الأرضية والمحمولة والإنترنت.

وأقيم بجانبه أكبر احتفال مركزي بمناسبة رأس السنة الميلادية، لكنه أُغلق بسبب الوضع الأمني غير المستقر بالبلاد، ومن ثم أعلن وزير الاتصالات العراقي عن إعادة تأهيل البرج، وافتتاحه أمام المواطنين.

شملت عملية التأهيل وضع إنارة حديثة للبرج وتأهيل المصاعد والحدائق والشكل الخارجي وكذلك تأهيل المطعم الدوّار، وإنشاء قاعة مناسبات ورفع الكتل الكونكريتية المحيطة بالبرج، من قبل كوادِر أمانة بغداد ووزارة الاتّصالات العراقية.

حين اقتربنا بدأت أنوار البرج تشع في الليل من قاعدته الدائرية المذهبة، إلى تدرج ألوانه بين الأبيض والأزرق، بطواقه ثم القبة البنفسجية التي شعت منها الأنوار البنفسجية، والزرقاء وهي المطعم الدائري الزاهي، حتى آخر مرتفع فيه.

ظلي كونه عرف التفاصيل؛ لم يسألني أي سؤال كعادته الملحة. أعجبه الجلوس في أحد المقاهي بعد الصعود للمطعم الدائري؛ لرؤية معالم بغداد.

مطاعم فاخرة ومقاهٍ، بغداد مضيئة ليلاً، لم أكن جائعاً، أو بالأحرى لا أملك نقوداً كافية للعشاء في هكذا أماكن فاخرة، لكني جلست على كرسي خشبي قرب بائع (الحمص المسلوق والذرة المسلوقة) والشاي العراقي بالهال، وعادة العراقيين لا يغنون الشاي إلا على الفحم، لذلك له نكهته الخاصة.

قلت له: غداً سأجلب الطفلين نهائياً لرؤية (برج الزوراء)، وبالوقت ذاته يلهمون بالألعاب بعض الوقت.

كان الهواء عليلاً، وكل شيء سحري في المكان. فتألف المارة والحاضرون والسلام العراقي الخاص (شلونك، عيني، هلا عيني)، هذه (العيني) جعلتني أنسى الجريدة وهمومها وجبروت رئيسها، ارتشفت الشاي وكأنني أحتسي نبيذاً معتقاً.

نعم أسكرتني بغداد، وأسرنى حاضرها وماضيها، حتى ظلي كان صامتاً مسحوراً بالمكان كُلّ الوقت. ربما انتقلت إليه أحاسيسي، وشباب الشعب الذي لا يموت في روعي!

لا يموت ابن الحضارة الأولى، والقانون الأول، والعلوم الأولى سيبقى حياً، فقد أزهـر من عباءته الشعر والإبداع.

اللحظة بالذات خطر في بالي لحناً شجياً لبغداد، فهي ما فارقتني لحظة، أفطر بأريجها لو جعلتني الحياة صائماً مدى الدهر.

وإن أرعدت سماؤها تبقى توازني وحيي، أشياء كثيرة في بغداد، أنظر من خلالها إلى الآخرين، كما العجوز في سوق السمك، لكل منهما نغمته وتنغيمه في القلب.

تسمّر ظلي أمام شابة عراقية في غاية الجمال، كان مسحوراً بعينيتها وشعرها الأسود الطويل المفرد على كتفيها، وابتسامتها المشرقة.

قلت له، وكلي ابتسامة:

- هذا هو الجمال العراقي الساحر، تقف أمامه مشدوهاً، لا تدري أنت في حلم أو علم.

انتصف الليل وهو غير راغب في العودة، وأنا مثله تلاًلات بلغة الشعب، سانطلق منها بمواضيع جديدة، لغة الشعب لها نكهة لاتشبهها نكهات الفاكهة. ولو باسم مستعار، حين أكتب عن الشعب لن تُرضي عناويني المُتسيدين على الصحف، ولا الخط العام في البلد.

في سيارة الأجرة لم أنطق بأية كلمة، كنت مأخوذاً وآملاً بانبعاث جديد، حتى أنني اتخذت قراراً بالكتابة عن "خبز الفرح" موضوع شيق سيكون حتماً!

كلانا صامت، يفكر بما هو مأخوذ به، أنا بخبز الفرح، وهو بعيني الشابة العراقية، حتى حين دخلنا الشقة؛ دخل معي غرفتي، ارتدى بيجامتي، ونام قربي في السرير.

نمنا متقابلين لبعضنا، كان الفراش غريباً علي، أشعر بوخز في الغطاء، وفي الوسادة، لاحظته مثلي، يميل برأسه في الاتجاهين باحثاً عن هدوء لينام.

تذكرت أنني سأخذ الطفلين للنزهة صباحاً، وخاطر يقول لي:

- أنا يتيم مثلهما، هما من فقد الأبوين، أنا من فقد الوطن.

أنهكني السرير، لكأني فقدت صدري. حاولت التمسك بأعضائي لئلا تهرب مني، صرت أتفحصها مفصلاً مفصلاً، وهو يقلدني.

ناديت كل الشعراء والفنانين والكتّاب، فتحت أبوابهم، غنيت لـ"بدر" عن أنشودة مطره، عن الاتجاهات والسواحل والضفاف، صور من "تموز وأور وأكاد" مرت تتفقد الضائع فيّ.

أسمع وقع خطى غريبة في الدار، أصوات لم أسمعها من قبل،
فأصحو من هوسي على لعنة الكراسي والظلاميين.

هز الظل كنتقي:

- تسلل إلي، سأكون أمانك وأمنيتك، كنت تهذي يا صديقي، نحن
نعيش في خدعة الصهيل، أوهمتنا الحكايات، الآن نرى فيلمًا
مرعبًا في سينما الواقع.

هرعت إلى الدولاب؛ أتفقد شهادة ميلادي، في الغرفة والصالة،
أمشي والظل يتبع خطوي، هناك زاوية في داري لم أرها بعد،
لمسني ظلي لأصحو، ربما ارتديت حلمي والأفق الرحب في بغداد
تلبّسني، سمعت صوت الطفلين، وخطوهما نحوي: -هل تأخذنا
اليوم في جولة؟

حول البيوت والحدائق، الأسواق والجسور، جذوع النخيل وزغب
العصافير؛ فأدركتُ أن شجونها في روحي.

انتعشت، وأمسكت الطفلين: -لنفطر، ونجهز لجولتنا، ففي بغداد
يحلو الطواف.

قلتها باعتداد الشموخ، وأنا أهیی أفكاري لمحطات تأسر القلب.



ضائعٌ يبحثُ عن ضائعٍ

هل فشلُ الولايات المتحدة في كارثة دخولها لتضعنا أمام كارثة أخرى؟

هذا عنوان مقالي الجديد، الفشل قادنا إلى الرجوع إلى الوراء خمسين سنةً، والاتفاق القادم على التغيير سيقودنا إلى الظلام. الثورات لها أرضيات تنطلق منها الشرارة، وتستمر بقوة الجيش والشعب المساند.

انطلقت شرارة " تشرين " لكن ليس هناك جيش يساندها والشعب مجزأ، أغلبه تابع؛ إعلامياً، برلمانياً، والولاءات ليست للوطن، ستبقين "يا جميلة" ضائعة تبحث عن ضائع، واللغز الضائع.

القارئ الجميل؛ قد تستغرب من هي "جميلة" في مقالي؛ أخبرك أنها في بيتك وبيت جيرانك والأزقة، والبيوت والشوارع والمقاهي

والمشافي المريضة التي بحاجة لعلاج وعقاقير؛ لشفاء العقول والضمائر.

هذه "جميلة"، فليأتِ إليَّ مَنْ يعثر عليها!

تركت المقال عند هذا الحدّ، وخرجت، لعلي أخرج من حالة الألم وأعود إليه، حتى لو كانت مقالاتي مختصرة؛ لا بُدَّ من إكمال موضوع "جميلة الضائعة"!

بين المحكمة والروتين الممل في رفع قضية ضياع مستمسكات ثبوتية، والتحقيق عن صفتي بالنسبة إلى الطفلين، قضيت ست ساعات في العمل، بين الانتظار في تشريف المسؤول، وبين استنساخ بطاقتي الموحدة وسكني وعنواني ومهنتي، خرجت ألعن التابعين، والكراسي، الجحيم.

بينما صديقي "فيصل" قام بنشر خبر ضياع ثبوتيات شخصية الطفلين بنفس الأسبوع في الصحيفة التي يعمل فيها.

لعل النار حزنت وهي تحرق ما يثبت أحقية الطفلين بوثيقة الحياة.

فوجئت به يهاتفني:

- "قاسم"، بعد اليوم لا أستطيع النشر لأي كلام تكتبه حتى لو بأسماء مستعارة.

فقد هددني المدير بالفصل لو لم أثبت له هوية هذا الكاتب المثير للجدل والشغب، لم ينظر إلى إنكاري بعدم معرفتك بعين الاعتبار، أشار بإصبعه وقربه من عيني:

- قل لصاحبكم: أنا أعرف أسلوبه حتى لو تخفى باسم شيطان، ولو نشرت له ستلحقه أنت.

قلت: لا بأس، حين يصدر الإعلان في الصحيفة أرسل لي نسخة منها على عنوان البيت. مع ودي ومحبتي لجهودك من أجلي. لا تقلق بشأنني واحترز، لديك أسرة وأطفال، وأخشى عليك من المدير، سأندبر أمري.

وقف ظلي بجانبني يقرأ مقالي القادم:

- المدير عرفك، وقرر فصل "فيصل" أيضاً ستعرف قريباً، هذا الأسبوع، كنتُ هناك دون أن أستاذن منك دخلت غرفته بأثاثها الفاخر، وسكرتيرته الجميلة لم ترني، وقفت خلفه أقرأ قرار فصل "فيصل"، ولفت انتباهي ما دونه نهاية القرار:

نسخة منه إلى المالية، بخضم نهاية الخدمة، وعدم تسليمها
لصحفي متواطئ.

نسخة منه إلى قسم الأمن في الجريدة.

سيمر "فيصل" في تحقيقات ربما تؤدي إلى السجن!

- نعم نعم، في بلد اللا معقول، يصبح كلُّ شيء معقولاً.

أجاب: إذا كنتَ تريد الحفاظ على الجميل؛ تحفّظ في كتابتك،
واخفض صوتك، أو اخنقه.

- لكنني لستُ هكذا، ولن أصمت.

- ستمتّع الصحف عن نشر مقالاتك، ألا ترى المضايقات على
الإعلام الحر؟

- لا شيء أخشى عليه فأنا غير متزوج وأسرتي ماتت.

- لا، لديك "جميلة وجواهر، وهَمّام، والعم".

- وماذا عن العم "سعود"؟

سيموت قريباً، أنا دخلت معكما في مراجعتكما عند طبيب الصدر، وقد أثبتت الفحوصات والأشعة أنه مصاب بسرطان الرئة المستفحل، وليس لديه سوى أيام، خشية عليه لم يخبركما الطبيب، وترك الأمر لقضاء الله القريب.

ما الذي أفعله يا إلهي! تطاردني الأقدار دائماً، لا بُدَّ من التفكير بكل ما وتدبير الأمر، خاصة أنني عرض علي عمل كمراسل متجول في البلدان، أنقل مشاهداتي هناك، كما لي حرية اختيار مواضيعي، والتحقيق فيها.

كان الجميع ينظر إليّ باستغراب وذهول؛ العم "سعود، وجميلة، والطفلان؛ همّام وجواهر"، ويشاهدون القهر الجريء كيف تغلّب على ملامح وجهي وصوتي.

لم أكن أكثر قلقاً في حياتي كما أنا الآن، كنت أتساءل: كانت بلدنا جميلة، كلّ ما فيها جميل، الآن حتى براءة الأطفال ضاعت، كنا نغني ونلهو بكل حرية لأننا في فضاء رحب يعرف أن الحياة عطاء ومحبة، وكانت بغداد جوهرة في جنة.

طمحنا بالتغيير - أي نعم - وتغيرنا إلى الخراب والتجهيل،
والقهر.

أنا الآن قريب جداً من الحزن، أفرد ذراعِي للفرح الغائب، متمنياً
ألا أطيل الوقوف، وبما تبقى لي من أشيائي؛ أفكر بطريقة تشدني
إلى العودة لبغداد، وأعود بحقيبة تلميذ يحلم بالنجاة، بشمس ولو
صغيرة، ولو بظماً، المهم أعود غارقاً بالحقول والموسيقى. أنا
موقن أن إله الفرح له وجه ينتظرني عند باب وردة، وجه واحد
غير متواطئ مع إله يصفع جراحنا ويتلذذ.

ليتني أقابله واضعاً يده على صفته النبيلة؛ أخبره أنها لم تترك
فقيراً أو وطنياً وعاملاً ومزارعاً وكاسباً إلا وفقات عينه، وحرقت
جسده.

هرعت "جميلة" لإعداد كوب الشاي بالهال، تعرف أنني أفضله
هكذا دائماً؛ كي تجعلني أفيق من هول الصدمة التي أنا فيها،
ومن إشارات أصابعي وحديثي مع ظلٍ صعقتني بخبر العم
"سعود"، ومن ظنّها بجنوني والكلام الهائج في فمي، كلام قريب
من الثرثرة، حميم مع الرحيل.

كُلّ شيء أصبح معاكساً، هبوبه كما رياح عاتية تشل مفاصلي، تناولت كوب الشاي على مضض، وأنا في حضرة صمت الجميع.

التجأت إلى الصمت، فلم يعد بمقدوري التفوّه بأيّة كلمة. مرت ساعة وأنا على هذا الحال، حتى أفقت على رنة الهاتف من رئيس المجلة التي سأعمل كمراسل لها خارج العراق، لا أعرف كيف حصل على هاتفي. أخبرني بأنه قد هياً تذكرة السفر، وحجز لي في فندق في إحدى ضواحي مدينة (موسكو)، وحالما تكتمل مقالاتي ومواضيع أخرى سيتولى أمرها، يسجل المجلة في بغداد.

لم أرد عليه، فقط استطعت قول، شكراً، وأغلقت الهاتف.

رحلة من بيوت القهر إلى (موسكو) هي فرصة لا تعوّض بثمن، إنما مَنْ سيعوضني عن أسرتي الجديدة؟ وماذا لو مات العم "سعود" ولم يرني في لحظاته الأخيرة وتودعني عيناه؟

اللحن يدور في ذهني وسمعي، توسّدت الأريكة الحمراء في غرفة الاستقبال، واللحن العصي يحاصرني، شعرت باختراق اللون الأحمر تسلل إلى جسدي وذهني، لم أنتبه أن في شفتنا أريكة

حمرء تخرق الإنسان إلّا الآن. كنت على وشك سماعه كاملاً،
أيقنت أن نغماً شجياً يحدّر الحواس ليبقى هو الوحيد اليقظ!

فيما كنت غارقاً في تحريك أصابعي صعوداً ونزولاً، وصديقي
الظل سعيد يقلّد اتجاهات أصابعي؛ طرق الباب صديقي الوفي
"فيصل" رحب به الجميع متأملين إنقاذي من لوثة الجنون ونوباته
كُلّ حين.

كان بادياً عليّ الارتباك وقت دخوله، حييته قائلاً: جئت في
وقتكَ.

وطلبت من "جميلة" إعداد القهوة فهو لا يحب الشاي بقدر حبه
لها، لاحظت أنها تبادلته الابتسام بنظرة فيها كلام كثير، وشراعه
فرح بهذا الرسو. فرحت من أعماقي لتبادل النظرات، ورحبت به
فقد جاء في وقته، وجدته متحمساً لخطة حماية أسرتي، ومتابعها
وأنا مطمئن.

طلبت من صديقي الذهاب للحديقة؛ فاستجاب لطلبي، وذلك
لرؤيته وضعي القلق مما جعله يستشعر أن أمراً ما قد حصل.

تفاجأ لطلبي وفتح فمه وعينه:

- غريب طلبك هذا، كيف أتزوج "جميلة" وأنا متزوج؟ وهذه أول مرة تبتسم لي، سابقًا فقط نتبادل النظرات، صحيح لستُ على وئام مع زوجتي؛ لكني لم أفكر في الزواج عليها.
قلت له:- من اللحظة فكَر.

أمسكته من يده، وضعتها على قلبي:

- أقسم أنك ستلبي طلبي، وأنا أخبرك السبب، لأن أسرتي غالية علي، وأنت الوحيد الذي أعتمد على ثقتي به، والرجل صاحب المهمات الحقيقية.

أجاب بالرضا والتنفيذ لسبب واحد؛ سماعه دقائق قلبي، وبها وعليها تم القسم.

كما هناك تبادل إعجاب واضح بينهما، ونحن على عتبة الشقة، مسكت يده بقوة واحتضنته:

- خير البر عاجله، أول دخولك قدم لي طلب الزواج منها كأني لم أطلب منك بل أنت جئت خاطبًا لها.

بعد أن أكلنا الكيك، وشربنا عصير التفاح؛ وجهت كلامي إلى العم "سعود":

- عمّاه، صديقي الأعز طلب يد ابنتك "جميلة" حليّة له، وأنا
أترك لك ولها الرد.

أسرع خطبة رأيتها في حياتي؛ لا شروط للمهر، ولا مقدم، ولا
مؤخر تعجيزياً.

القنّاعة والقبول، تسالت الطمأنينة إلى قلبي، كتسلل رائحة التراب
المرشوش بالماء عصرًا، وعناق الطين للماء.

خرجنا معًا لجلب الشيخ، وفي طريقنا جلبنا الحلوى والفاكهة
والمكسرات، والعصائر.

كان فرحًا، وقلقًا من النتائج، وجه كلامه إلي:

- ماذا لو علمت زوجتي؟ ستقع الكارثة حتمًا!

- لا تُشعرها بأي نقص، أشبعها غزلاً وهدايا كي لا تشك، ثم هذه
حالة في منتهى الإنسانية، وأنت أهل لها.

حفرت السهرة ثقبًا في قلبي، عجنّت قهري بالفرح والاطمئنان،
وكنّت كمن يضع جمرًا على حطب، وعسلًا على مُرّ.

رقصت أصابعي في الهواء، ورقصتُ معها، الكل يتصور هذا
رقص الفرح. كنتُ مأخوذاً بالفرح والاختناق، كُلّ شيء تدفق إلى
روحي، حتى المياه الراكدة في شوارعنا ورائحتها ونقيق الضفادع،
وطنين البعوض والذباب.

والظل صامتٌ ينقل حركاتي للهواء، فيستجيب الهواء كأنه طفل
بيد خيال أو ظل.

كلهم حضروا الليلة، باعة الخضار والأسماك، ووجه أم علي، أبي
وأمي وأخي، أسرة العم "سعود"، وأبو "جواهر وهمام، وأُسرة
جميلة"، كُلّ ما حولي كان مقدّساً، وعيناوي تلمعان، شاخصتان
باتّجاه العود المتربع على طاولة الطعام.

سمعت صوت نغم آتٍ من بعيد، أخذ يقترب شيئاً فشيئاً، يدنو مني
ويرجع خطوات إلى الوراء.

- أأسمعون؟

لم يلتفت إليّ أحد، ولم يعرني اهتماماً، فقد تعود تصوره على
جنوبي وانفصامي، جثوثٌ على الأرض مثل عبدٍ أمام سيّده،
حاولت النطق، التصق لساني في لهاتي، أوقفت الدقائق عند زمن

النغمة الأولى من حضور طاغ لمقام (الصبا)، أفلتت منّي لتعود
إلى نقطتها الأخرى. كان حجاب شفاف يفصلني عن العود،
استطالت رقبتة وراح ينظر إليّ، كأب يودّع ابنه.

غناء شجي في روعي، وصوته الأشجى اختصر الأمكنة الهاربة
مني؛ قديمها وجديدها التي أعرفها والتي أجهل محطاتها، وكان
العود يستتق أوتاره في شجاء الحزين، لعله أدرك سر الفراق
القريب، هل يدري بأني سأفارقهم جسداً؟

مؤكدًا يدري، فهو انطلق من توهج الدم في شراييني، نحن الآن
جمع انتصارات وخذلان، فمن يفارق بغداد؛ تبقى روحه ملتصقة
في حوائطها. يأخذ معه طلوع الشمس والخطى، وسنابل يتدّرع بها
الكلام، رغم أن شعوري مثل زورق هارب؛ لكنه يصافح ليودّع،
يودّع ليستقبل.

في الصباح طلبت من الطفلين الاستعداد لأخذهما في جولة،
وأخبرت "جميلة" ألا تقلق علينا، ربما نتأخر، بينما العم "سعود"
طلب مني شراء بعض الكتب له من (شارع المتنبّي)؛ تثري وقته
في غيابي والسفر.

عند مدخل منتزه الزوراء العالي، أفلت الطفلان من يدي فرحاً؛
فركضت خلفهما طالباً عدم إعادة التهور ثانية، بل يرافقاني بكل
خطوة.

البوابة عالية تقودنا إلى ساحة لوقوف السيارات، وخارطة للمنتزه
وكيفية الوصول لكل معلم فيه، خاصة البرج.

ما أجمل النخيل على جانبي الشارع والممرات في الداخل،
والجوانب المشرقة بزهور تلامس ألوانها القلب.

في الأراجيح والألعاب الكبيرة المتعددة احتفال لهما غير عادي،
حتى أنني شعرت بقشعريرة في جسدي كله لابتسامة عيونهما.

بعدها أخذتهما إلى حديقة الحيوان، وهي تحتوي مجموعة كبيرة من
الحيوانات المفترسة والأليفة والطيور، وبعض الحيوانات النادرة.

قدماً للقردة بعضاً من الفستق، والفرحة لا تفارقهما. ثم جلسنا في
مطعم صغير لتناول المثلجات، لم يكن لهما رغبة في الأكل بقدر
تشوقهما بالإسراع لرؤية لعبة أخرى يلهوان بها. قلت لهما:

- دعونا نذهب للبرج، ونحاول بعدها رؤية مكان آخر.

كان ظلي مرحاً يتركني ويصعد أينما صعد الطفلان، أشار إلي في الصعود إلى قبة برج الزوراء الزجاجية الكبيرة لنرى من خلالها المنطقة، وأثناء ذلك تساءل عن تأسيسه.

قلت له دعك من التفاصيل واستمتع.

حاولت النزول بهما سريعاً كي لا يفوتني الوقت؛ لشراء كتب إلى العم "سعود".

دائماً تكون صحبتي مع سائق أجرة مثقف، وهذا من حسن الحظ، أحمد ربي عليه، لتكون وجهتنا لشارع المتني غنية بالحوارات الثقافية.

أشعر بجسم وصدر إلى جانبي، لم أكرث له، لأستمع إلى صوت الفنان "ياس خضر" من كاسيت السيارة، سألت السائق فيما إذا لديه أغنية "عزاز".

استجاب لطلبي، وسحرنى صوت المطرب الشجي، وتغلغل في كلّ أعضائي، بينما الطفلان يتهيآن لإخبار "جميلة" والعم "سعود" عن جولتهما الجميلة، وكل واحد اتفق أن يخبر أحداً منهما.

البنائيات المتراففة على كلا الجانبين في الشارع، والكتب المفروشة على الأرض، في شارع احتشد بطالبي الثقافة والإبداع، وصلات للمعروضات الفنية، دخلت إلى مقهى (الشابندر) بتاريخها العريق والصور المعلقة على الجدران، ورائحة الشاي امتزجت بصوت الطرب العراقي الأصيل. فهو أشهر مقاهي بغداد، كان مطبعة سابقاً بنفس الاسم يملكها "موسى الشابندر"، التقيت هنا ثلّة من أصدقائي الصحفيين والكتاب والشعراء، وأخذتنا الحوارات الثقافية إلى درجة أنستنا الوقت، لكن التقت إليّ الصديق "سامر" قائلاً:

- متى تزوجت؟

فهمت قصده فقلت له أفرحني سؤالك، وهذان الطفلان ابنا صديق لي سافر لأسبوع؛ فأخذتهما في جولة!

قال آخر: جولة هنا لأطفال؟

- ولم لا؛ وسأشتري لهما قصصاً للأطفال وبعض كتب تتفهما، ودّعت الجميع، وظلي واقف عن الباب يتصيّد جميلات بغداد، خاصة أن المقهى في صدر البناية التي تمتد إلى جانبي الشارع،

بإمكانه التخيّل بهدوء. المكان يختلف كثيرًا عن المقاهي الأخرى؛ فهو بمثابة المنتدى الدائم للثقافة والفكر والأدب ولا يخلو من نقاشات سياسية، وبعيدًا عن ألعاب التسلية المنتشرة في المقاهي الأخرى، فأبوابه مفتوحة للجميع.

لا بُدَّ من أكل (كَبَّة السراي) اللذيذة، دخلنا المطعم المليء بالصور واللوحات، داخل سوق فرعي ضيق ومسقوف بالزجاج، وقد ازدحم المكان بالزبائن، رغم مساحته الصغيرة، وذلك لشهرة (أكلة الكبة) المحشوة باللحم والشحم اللذيذ، يقدمها المطعم مع (الصمون) الحار والمخللات، أكلنا واشترت طبقين حصة العم "سعود، وجميلة".

اشترت بعضًا من الكتب المتنوعة بين الأدب والسياسة والتاريخ، ولم أنس كتبًا للأطفال، ثم التقطنا صورًا قرب تمثال "أبي الطيب المتنبي"، وأقفلنا راجعين إلى الشقة.

وصلنا متأخرين عليهما، ويبدو عملا أكلة خفيفة ريثما نعود، وتطهو لنا "جميلة"، عندما وضعت الكبة على الطاولة، وحين شم رائحتها العم "سعود" نهض من مكانه ليضعها في أناء قائلاً:

- أن تقرأ أكثر مما تأكل تلك هي الحياة، لكن لا ضير من (الكبة) الآن، فرائحتها فتحت شهيتي.

كنت أنظر إليهما يأكلان، والطفلان جالسان قريهما يحكيان لهما عن جولتنا، العم فرح بأسرته، وكذلك "جميلة"، لكن في عينيها أسئلة كثيرة، تختفي كأنها عصافير في ابتسامتها الرائعة، فتشرق أسنانها البيضاء البراقة.

كأن الوقت يتأمر علينا، بعد ربع ساعة تألم العم من مغص حاد واستفراغ ودوار.

حاولت الاتصال بصديقي الطبيب، لم يرد، يبدو أن لديه مناوبة ليلية، فجعلت العم يتكئ عليّ، ونزلنا للذهاب إلى المشفى، أصابه وهن غريب لم أره عليه سابقاً، ومن المصادفة الجميلة نرى جارنا النزول الجديد؛ فأسنده معي متسائلاً عن وضعه، حالما عرف أن وجهتي إلى المشفى قال زوجتي طيبة، ارجعا إلى شقتكما، وسنأتي معاً.

أجلسته على الأريكة مصفر الوجه ومزرق الشفتين، رن جرس الباب؛ فهرعت إليه مُرحباً بالطبيبة وزوجها، فقد أنزلهما ربي نعمة علينا اليوم.

بعد فحص الطيبية الدقيق، أوضحت ألا يأكل وجبة دسمة، بعد أن سألت عما أكله، وأشارت إليّ بحجة إعطائي وصفة الدواء، لكن باختلافها بي قالت إنه مصاب بمرض في الرئة، ولا دخل للأكل بنوبته هذه، وعليكم نقله إلى المشفى، أو الاعتناء به هنا، مع مراعاة استخدام الدواء بانتظام.

هاتفني صباحاً رئيس المجلة السيد "مالك"، وبصوته نبرة كأنها تلوي ذراعي:

- أمامك أسبوع؛ لتجهز نفسك للسفر.

قلت: حسنا، بين اليأس والألم، والطفان يمسان بي راجين رحلة جديدة لمعالم أخرى. ظلي انقلب إلى شخص آخر، كأنما تلبسته هوية غير هويتي، وهئية غير هيئتي.

عرفت حينها أنه انشق عليّ، قد يكون سوء الفهم إيجابياً أحياناً؛ في حال أن ظني كان في محله.

ونحن على الإفطار طلبت من الطفلين أن يجهزا، لم أسمع غير كلمة راقصة على شفتيهما، هي فرحة، هو حب الاستطلاع والمعرفة، والخروج من رتابة الشقة:

- أين سنذهب اليوم؟

- سأريكما متحف الطفل العراقي، لم تمض بعض دقائق إلا ورأيتهما قد ارتديا الملابس الجديدة، ووقفنا يستعرضان ذلك أمامنا جميعاً.

سألا فيما إذا سأشتري لهما المثلجات، فأجبتهما بالإيجاب، شرط ألا يبتعدا عني أثناء دخولنا المتحف، وإذا احتاجا لأي استفسار أوضحه لهما.

فتحنا نافذتي السيارة وجلس كلّ منها قرب نافذة، يستشق هواء بغداد، وأنا أجلس بالأمام مستمتعاً بفرحهما، وأيضاً بامتلاء صدري بنفحات هواء بغداد قبل أن أغادرها.

جلس ظلي قربيهما مستمتع هو الآخر، ونحن نمر أمام المآذن والساعات، لكنهما ما زالا يتحدثان عن حديقة الزوراء.

شاهدنا نصب الفانوس السحري، فأعجبهما المنظر، وطلبنا النزول لرؤيته والتصوير قربه. أخبرت السائق أنني سأعطيه أجرة مضاعفة لو رافقنا رحلتنا؛ فوافق على الفور قائلاً:

- أستاذ، أنا تخصصي ماجستير هندسة، ولأن مجالات العمل أصبحت شحيحة أعمل سائق أجرة، كما أن السيارة ليست ملكي، بل لبقال في حيننا، وأنا أجرتي حسب المدخول اليومي، أي باليوم وليس راتباً شهرياً.

نظرت إلى ظلي: ألم أقل لك إنه الألم اللذيذ، ويبدو سيرافقنا في تجوالنا!

- من تقصد السائق؟

- لا، الألم اللذيذ!

أمسكت الطفلين أوضح لهما عن هذا الفانوس:

- نحن الآن في ساحة، وذلك المبنى الكبير أمامنا هو (المسرح الوطني) وهذا مصباح من قصصنا المعروفة (ألف ليلة وليلة).

- وما هي ألف ليلة وليلة؟

هكذا سألاً بكل عفوية؛ فأرقت بهما، وقلت حين نرجع سأقص عليكم حكايات منها، وسأشتري هذا الكتاب شرط أن تقرأ فيه، ويساعدكما العم "سعود" في ذلك، إنها قصص حكته "شهرزاد"

للملك "شهریار" الذي كان يقتل في أول صباح زوجاته، لكن "شهرزاد" ابنة وزيره تغلبت عليه، في خطة هذه الحكايات، كل ليلة تحكي له قصة غير مكتملة، ثم تكملها في الليلة التي تليها، وتبدأ بأخرى، وهكذا حافظت على نفسها من القتل، والكتاب تراث أدبي كبير، اقتبس منه أدباء من حول العالم، وهذا المصباح وبطله هو إحدى هذه القصص.

والملك شهریار خانته زوجته الأولى، فأصبح يكره كل النساء، إلا "شهرزاد" استطاعت أن تتغلب عليه لما تملكه من ذكاء وفطنة وحكمة، حكّت له ألف قصة بألف ليلة وليلة، حتى شفى الملك من حالة كراهيته للنساء، وأحب زوجته "شهرزاد"، سأتابع معكما هذه القصص حتى لو كنت مسافراً، هذا المصباح وقع بيد بطل من أبطال الحكايات، اسمه "علاء الدين"، وهو شاب بغدادى فقير جداً ويتيم الأب.

كانا مشدوهين بالحكاية، وغرابتها، فأوضحت لهما: ستجدان الكثير في الكتاب، وتمنيت أن يكون لي هذا المصباح الآن.

أخبرني السائق أن متحف الطفل مغلق الآن؛ لذا سنغير وجهتنا إلى مكان آخر.

ضحك ظلي على ضحكة أطلقها السائق الشاب، فاستغربت
منهما، المفروض أنا من يتولى مبادرة الضحك على نفسه، كيف
أعيش في بغداد ولا أعلم أن المتحف مغلق، وكأنني أعيش في
عالم آخر.

لكن الظل أوضح سبب ضحكته: ماذا ستفعل بالمصباح لو كان
في حوزتك؟

قلت: أقلها استرجع الفرحة القديمة في عيون الناس، نحن بحاجة
لمصابيح ومردة كثر لنغيّر.

أحتاج، ذاك الذي أعرفه فيّ؛ لأضع إصبعي عل الجرح؛ وأصيح
بأعلى صوتي:

- بغداد ما أجمل وأعذب ألمك!

طلبت من السائق رقم هاتفه؛ لأتواصل معه، وأطلبه لأية فرصة
أخرى.

سألت ظلي:

- هل استمتعت جيداً، وأنت ترى عالمنا العراقي الجميل؟

لكني متألم وما أغناه من ألم، ونحن نملك كلّ هذا الكون من تراث
وتاريخ وحضارات يشع فيها الإنسان؛ ثم أغادره أنا بسبب فصلي
من عملي، وأمشي مثلك كالظل خلف رئيس مجلة جاهل، بيده
مصير أرزاق الناس!

حين تراني أبكي، فهذا الدمع الحار ليس من عيني، بل قلبي الذي
يدمع، تخيل أننا نملك كلّ هذا، والنفط والمعادن والمياه والمزارات،
والحضارات وتتصور جوعاً عجوز يتصدق عليها باعة السمك
بالمصارين.

عالم جميل وسياحي كبير لو استثمرناه لكسرنا طوق عزز الكثير
من الأسر.

أنا حفيد "جلجامش" أطرده من عملي كوني حقيقياً، لا أساوم على
كلمة الشرف!

لكنه يبقى الألم اللذيذ كما قلت، لذيق لأنه من بلدي.

وإذا شئنا أن نتعم أعيننا بالضوء؛ علينا ألا نطأطئ رؤوسنا، هي
بغداد المسموعة، المرئية، المشمومة، المحسوسة.

لم تعجب الطفلان فكرة الرجوع إلى الدار، تمللوا، وبكيا تصنعاً،
أعرف أنها حجة وتصنع، طلبت من السائق أن يأخذنا إلى متحف
"عبد الكريم قاسم"

ابتسمتُ في وجهه وقتما قال هو أكثر رجل وطني حكم العراق،
قلبه على الشعب على الرغم من بعض هفواته.

أجبتة: أكبر هفوة، طبييته، وإخراج "عبد السلام عارف من
السجن".

فانعطف نحو شارع الرشيد، وصلنا إلى بيت من البيوتات العراقية
القديمة.

أوضحت للطفلين أن شخصية هذا الرجل وطنية، وهو رئيس
وزراء عراقي تُعرض هنا مقتنياته الشخصية وبعض الهدايا النادرة،
وحين قتلوه لم يكن له دار وقصر فخم، ولا أرصدة في البنوك
كمثل الذين جاءوا بعده.

ويعد هذا المبنى من المباني التراثية المتميزة في بغداد من حيث
التخطيط والعناصر المعمارية والأعمال الخشبية المتميزة
(الشناشيل).

بعد هذه التوضيحات دخلنا الدار، في وسط الساحة تمثال كبير للزعيم الراحل وهو رافع يديه، نُصب على قاعدة متوسطة الارتفاع ونصب على واجهتها الأمامية شعار "عبد الكريم قاسم" على شكل شمس وسيفين متقابلين حول شعلة.

شعرت براحة كبيرة وأنا في المتحف، حتى متحفه يحتوي البساطة كما هو طبعه في الحقيقة.

في المتحف خمس قاعات تضم صور الزعيم، وبدلتين عسكريتين؛ واحدة صيفية والأخرى شتوية، وأقلامه، ومصاحف استقبلها كهدايا، وبنادق ومسدسات استخدمها أثناء فترته العسكرية، وصوراً لزيارات قادة، وأوسمة وميداليات.

إضافة إلى البطاقة الشخصية ويظهر فيها تاريخ ولادته، كما شاهدنا طابعاً عراقياً عليه صورة الزعيم.

ركن السائق سيارته، ورافقنا في جولتنا، وكنا نتحدث عن الفرق بين هذا المتحف والدار البسيطة، وبين قصر السلام في المنطقة الخضراء المحاط بأسوار كبيرة وأبراج مراقبة، بينما هنا لا أبراج ولا سور، كان الزعيم للشعب، ومتحفه مفتوح للشعب. لم نجد هنا

أعمدة هائلة الحجم، مثل قصور أخرى للرئيس "صدام حسين"، لم نستطع الدخول إليها، أو تصورها في مخيلتنا.

ماذا نعمل حين يقاطع الصمت الأسئلة؟ وكأن الأشجار تنتحب في صمت الخضرة!

- لنذهب إذاً إلى مكان آخر ونشتري للطفلين كتاب ألف ليلة وليلة، لن أضعه بين أيديهما، بل سأتركه تحت تصرف العم "سعود"، وهو يختار القصة ويقرأها عليهما، لنتجه إلى أية مكتبة قريبة.

- مَنْ العم "سعود"؟

- صديق يعيش معي.

اشتريت لهما بعض الحلوى والعصائر تقيهما من جوع حتى انتهاء جولتنا لهذا اليوم.

أحاول قدر استطاعتي التملص منهما، لأعود للكتابة، كُلّ ما في بغداد يجعلني رجلاً شامخاً، وكل ما فيها يأسرني همّة!

مفارقة غريبة، لكنها في وضعنا الراهن ليست غريبة. لم أفكر إلى أي مكان سنقصد في جولتنا. كُلّ تفكيري انصبَّ في وجوه الناس الذين رأيتهم، وكيف أترجمها لحناً أو مقالة أو نصّاً أدبياً، وهل سيفهمني أحد في البلدان الأخرى التي سأقصدّها!

التوتر في سلوك الناس، هل عليّ البحث عن ذاتي فيه؟ هل بين تلك الذوات التي احرقتها الشمس وعرق جبينها المنهمر من أجل توفير لقمة العيش؟ فأنا لا أجيد تصوير أصحاب القصور والأسواق والمراكز التجارية بكل محتوياتها وماركاتها العالمية. أشعرها غريبة عني، لستُ منها وليست منّي.

لم أنتبه لسؤالهما عن المكان الذي سنتناول به المرطبات، كنت محاصراً ببغداد

لكنني أفقت على صوتيهما واهتزاز يدي بقوة:

- عمّاه ما بك؟

لا شيء، قلّتها ولم يصدقاني، ارتعاش قوي هزّ بدني:

- لماذا لانغني، نعم، نغني، أصبحت جريئاً بشكل لم يسبقني إليه الصحفي الذي أحمله في قلبي وقلبي، دعونا نغني ضد كل من يسرق أحلامنا، نلعب ونمرح. وقفت على رصيف الشارع، وأخذت بالدوران مع الطفلين صائحا بأعلى صوتي:

- بغداد يا حبيبة الشعب وليس الحكومات.

سحبني السائق الشاب من يدي وأدخلني السيارة، والطفلان دخلا يرددان ما أفصحت به عن بغداد، بينما ظلي احتضن صدره بذراعيه وأطرق رأسه، ثم رفعها عالياً.

أمسكني "همّام" من يدي: أين سنذهب؟

- سنشتري وجبة دسمة ونأكلها في الشقة مع العم "سعود وجميلة".

الطفلان يجاهدان قدر استطاعتهما في تصفحهما للكتب، النقاط محتوى ومعنى ما وقع بصرهما عليه، بينما ظلي بدا عليه الملل.

أعرف أنه انشق عليّ، لي مسيرتي الحالية والقادمة!

اشتريت كتباً تعينني في سفري، لها علاقة بالعواصم التي سأكتب عنها.

وكل منهم يبحث عما يريده، أزعجهما الهدوء فيها، لم يعجبهما،
هما يبحثان عن لعب ولهو، ما شأنهما بكم من المعلومات؟!
فبادر الظل بهمسه:

- أما تشبع من الكتب، ذبحتني وأنا أتابعك، وأقرأ لك منشورات
وصحف، خذنا في نزهة تؤنسنا.

- سأخذك لوحذك إلى الحمامات وأماكن ستسرك، لكن بعد أن
نمر بمكان لهو للأطفال ونعود، لقد تأخرنا كثيرًا على العم "سعود،
وجميلة".

ونحن في الطريق تحدثت مع "محمد" السائق:

- منذ التاريخ وبلادنا مهتمة بالمسرح والتدوين والكتابة والقانون،
وكل شيء له علاقة بالجمال، كان المسرح نصف دائرة على شكل
مدرجات، تتوسطها "خشبة" خاصة بالمسرح لإقامة النشاطات،
وخلفها غرفة خاصة بالفرق المسرحية والتبديل وما شابه ذلك.

لكننا الآن متوجهون صوب المسرح، أتمنى لو أن هناك إعلانًا
عن عرض اليوم لدخلنا كلنا لمشاهدته.

هز الظل يده غير راغب بذلك.

وضع السائق كفه على كفي:

- أستاذ، أرفق بالطفلين ما زالا صغيرين، لنأخذهما لأي مركز تجاري فهناك الكثير من اللعب.

استمتع الطفلان بالعصير والحلويات، اشتراها لهما "محمد"، كما أن الأحاديث تكون غنية إذا كان المرافق مثقفاً.

توجهنا إلى (مول بغداد) صوب منطقة الحارثية للترفيه عنهما من الملل، واشتريت ما اختاراه بذوقيهما.

كنت أفكر بطريقة أخرى، ما الذي سأقدمه لهذين البريئين لاستمرارهما في الحياة؟ وهل سيعطيني الله عمراً حتى أراهما يتخرجان في أحسن الجامعات؟

عند مدخل البناية الزوجية وقفا بصمت يتأملان المشهد، ربما فكرا ماذا سيشتريان من هكذا جمال من الخارج، وماذا سيكون في الداخل، مؤكداً سيكون مذهلاً. . هكذا توقعت.

لم يكن المول لشخص أو فرد، بل هو مشروع استثماري لخدمة الشعب تابع للحكومة العراقية.

على واجهة البناية لافتة تحمل اسم المول، تتوسط المبنى المكون من أربعة طوابق.

شكل البناية من الخارج مبهر جدًا كأنه نصف قوس من طوابق زجاجية، تتوسطه دائرة رائعة من الزجاج، يقع خلفها برج عال زجاجي، استكمالاً لتصميم المبنى كاملاً.

صعدنا السلم الكهربائي متجولين في الطوابق ذات المحلات متعددة الاحتواء، من ملابس ولعب الأطفال، ومحلات خاصة بالملابس النسائية والرجالية والأحذية والمجوهرات.

في أي محل ندخله يتصرف الطفلان بطريقة المحروم الذي النقف لقمة شهية، بينما أنا أقرأ على الملصق سعر ما يختارانه، وأتهرب إلى غيره بقدر ما تحتويه محفظتي، خاصة أنني أنوي شراء هدية لـ"جميلة والعم سعود".

اشتريت بعض لعب للتسلية وأيضاً تنمّي ذهنية الطفل، منعت الطفل "همام" حين اختار مسدساً كبيراً، قائلاً:

- تكفينا مسدسات وبنادق الواقع، لا تختبرها ابني العزيز، بل اختر شيئاً يغذي الروح والموهبة، واخترت له دفاتر رسم وألوان متعددة الأنواع وكذلك للطفلة "جواهر"، إضافة لبعض الملابس الزاهية بألوانها المختلفة.

اشتريت "جميلة" ثوبين بلونين جميلين مثلها، وللعلم "سعود" جوارب وحذاء.

بعد التسوق نزلنا إلى الطابق السفلي وتناولنا وجبة سريعة حسب اختيار الطفلين، (هامبركر) مع البطاطة المقلية والعصير، طلبت وجبتين إضافيتين، وغادرنا راجعين، إلى الشقة، ودّعت الشاب طالباً منه الاستمرار معي في جولاتي حين اتّصل به.

فرحت "جميلة" والعم "سعود"، وتناولوا وجبتيهما، لكن السعال يرافق العم كلما تناول قضمه حتى لو كانت صغيرة؛ مما أثار قلقي الكبير عليه.

كان الطفلان فرحين بجولتهما والهدايا، وعندما شرع "همام" يرسم؛ تذكر قصة "ألف ليلة وليلة"؛ لأنني قلت له سأشرحها بالتفصيل في

البيت، فكانت مبادرة طيبة من العم "سعود" لشرح القصة كاملة،
لكن "جميلة" لها موقف آخر:

- لا تسمعا، الحقيقة أن من ادعى هذه الرواية هو رجل ضد
المرأة ليثبت خيانتها، ويحلل قتلها، بينما هو يستمتع بجواريه
ومحظياته يحل له ما يشاء، فطلبت من العم أن يترك الموضوع،
ولا يغذي في قلوبهما صفة القتل والحد، وشرعت ترسم معهما
أشكالاً متعددة من الورد، وتلون معهما:

- سأعلمكما فن الرسم قدر استطاعتي، وسنرسم معاً، ونكتب
قصصاً.

- نعم، ارسمي في عيونهما شمساً، قمراً، ورداً، واكسري الجدار
الحائل بين طفولتهما والحياة.

أشرتُ إليه:

- ماذا تقول؟

لم يستمع للحوار والحديث عن "شهریار"، ثم أشار بإصبعه موجهًا
إلى "جميلة" مؤيدًا.

ضحك العم "سعود"، ونظر إلى عيني "جميلة":

- لا مفرّ من خيالات "قاسم" ما زال يتوهم أحدًا أمامه ويكلمه، كم رجوته مراجعة الطبيب!

- أنا بحاجة إلى أناي، إلى ما يشير إليّ في مراياي، إلى عينيّن تريان عراقًا مخلصًا لا مصلوبًا، أحتاج أن تكون بغداد بوابة للحب يا عم "سعود"، وليس لطبيب يسأل عن الغامض في روحي!

روحي ممثلة بكم، بصدرك المريض، بـ"جواهر" وبكل المشابهين لكم، وإما أن أصير جناحًا، وظلًا يتبع ظله.

لو غادرت بغداد؛ سأنثر أحلامي على ذرى شمسها؛ متيقن أنها ستحتض أمالي، ولن تشيح بوجهها عني. ستجمع نثار حطامي، كصفارة إنذار لدموع المحاجر.



محاصر به حد اللعنة

لم أعتد السفر بالطائرات، كُلَّ حدود سفري كانت في الحافلة أو القطار وسيارة الأجرة.

حمدًا لله أنها رحلة مسائية؛ من بغداد إلى تركيا، انتظارًا لأربع ساعات ثم التوجه إلى موسكو.

المقعد في آخر الصفوف قرب الحمام، محجوز لي وقرب الممر، والكرسيان الآخران فارغان، لم تمض دقائق، إذ ما زلت أحتفظ بهدوئي، حتى حضر رجل وزوجته ليجلسا قربي، أثناء ما وضع الرجل حقيبته في المكان المخصص للحقائب اليدوية؛ شعر بضربة على ظهره، التفت إلي فوجدني مشغولًا بالكتابة، أما زوجته اختارت الجلوس قرب النافذة. أوعز ذلك لوهم أصابه أثناء رفع يديه عاليًا لوضع الحقيبة.

ضربة أخرى أنته على رقبتة، في بادئ الأمر تذمر، لكن لا تزال
قرصات متوحشة تسري في جسده؛ فطلب من المضيفة تغيير
مكانيهما. بالنسبة لي أعرف الفاعل، كائن يتبعني أنا.

حمره الوجه بادية علي وقتما تساءلت المضيفة عن سبب
انزعاجهما، خاصة في إجابة الرجل توجّس واضح:

- لا شيء سيدتي، فقط لا أريد الجلوس قرب هذا الرجل الغريب
الأطوار، ضربات على مؤخرتي أنا وزوجتي، وقرص مستمر.

برمت شفتيّ مستغرباً مؤكداً أنني لم أتصرف بما يسيء إليهما،
وأنهما اخترعا هذه البدعة ليجلسا في مكان آخر، ونظرْتُ لهما
وللمضيفة باستغراب. بحثت لهما عن مكان فارغ، ثم استدارت إليّ
بإشارة تأسف وابتسامة.

اخترقنا الغيم، ومن ذلك المنظر المذهل، تبادرت لي أفكار متعددة
للكتابة، منها اختيار الموضوع الذي سأرسله للمجلة.

طلبت علبي عصير. في حينها تمدد ظلي على الكرسيين وأسند
رأسه على كتفي، بينما كنتُ بحاجة لمن أستند عليه، فأنا قلق

على أسرتي وعلى العود الذي ودعني بنغمته الحزينة، والأمان
المفقود، والعم "سعود" وأجله القريب.

هربت من الخيانات والغش وغياب القانون والعنف والسرقة؛
ليأخذني الشراع إلى مناطق مختلفة. رائحة الأكل فتحت شهيتي،
لكني خجلت أن أطلب وجبتين، واكتفيت بما قُدم لي.

يبدو هو أيضًا جائع؛ لكنه اكتفى بالإشارة لرغبته ولم يستطع كونه
ظلاً. تناولت المجلات الجميلة لأتعرف على تركيا ومعالمها
السياحية، وقصور ملوكها ومحلاتها التجارية.

حتمًا سأفعل الشيء ذاته في الطائرة الأخرى، متشوق جدًا لرؤية
العالم الروسي، فقد عرفناه من خلال شعرائه وكتابه وفنانيه
الكبار، ومن خلال ثوراته، (أجل أحببتك صامتًا يائسًا، أحببتك في
خجل منك، أو في غيرة مضيئة)، الله عليك يا "بوشكين" كيف
أضأت الغيرة؟!

مرّ قربي رجل يبدو أنه (مثليّ) من سواره ومشيته وملابسه
والوشم، فاح منه عطر نسائي، ودخل الحمام، ذكرني حين
قصدت (حمام الحاج مهدي) العام في منطقة (الكرادة) ذات

شتاء، بعد خروجي من التوقيف وأنا ابن العشرين، بسبب مقالة كتبتها ووزعتها على الطلبة معي، كانت بعنوان: (أصوات نحو التغيير) بقيت في التوقيف عشرة أيام، لم يبيث في أمري، سوى التخويف والترهيب بين حين وآخر.

حين خرجت قصدت ذلك الحمام، لأنفص عني آثار الضرب والقمل الذي ملأ شعري.

الماء الساخن أعاد لي انتشائي المفقود، اخترت غرفة خاصة ليس تحفظاً، إنما لا أريد أن يرى أحد آثار الضرب على جسدي، نظرت إلى المسبح العام، الكل متعراً أمام حوضه الخاص أو المشترك مع رجل آخر، وكان بينهم شبه هذ الذي مرق أمامي، لكن دون وشم، كان ينظر لأكبر عورة ويقترب من حوض الماء ليغازل، الآن انتهت هذه الحمامات، وصارت بدلاً عنها صالات المساج، لم أدخلها، لا أعرف ولا أريد أن أعرف عنها، لأنها خاصة لمن مؤلها، ووضع اسماً لشخص آخر يديرها، كما المراقص والملاهي وصالات القمار.

استراح ظلي وفرح لانتقال الركاب إلى مكان آخر ليتربع قربي، كانت بغداد معي بكل عوالمها؛ مساجدها، شوارعها، ملاعبها، مكتباتها، صورها، ناسها، حاضرها وماضيها، وأسرتي الجديدة، حتى خيال "أم علي" مغروس في مسام جلدي ووجداني.

من أصعب اللحظات في حياتي هي لحظة التوديع، لذلك خرجت ولم أخبر أحداً، بساعة سفري تسللت من فراشي خفية، وخرجت بحقيبة صغيرة.

أسمع شخير الأغلبية عالياً، وبعضهم وضع السماعات لمشاهدة الأفلام، إلا أنا شريط بغداد يمرق أمام ناظري، كيف سأتحمل الانتظار في مطار تركيا وأنا منهك جسدياً وقلبياً وروحياً؟! أجل، ها هي المدرسة المستنصرية بجمالها وبنائها وطوبقتها، غرفها ومدارسها المتعددة، وساعتها التي تتبّه عن مواقيت الصلاة. المدرسة التي تُدرّس فيها مذاهب الفقه الأربعة: (الحنفي، والشافعي والمالكي والحنبلي)، الباب الخشبي الكبير، والمدخل بدرجاته، تقود إلى ساحة عريقة يتوسطها قوس نصف دائري، حتى السلام التي تقودنا إلى الطابق الثاني تفوح منها رائحة التاريخ والعراق.

مئة غرفة وقاعات ومكتبة عريقة، لم تكن الجدران عادية،
والأقواس المائلة، كانت بنقوش وزخارف إسلامية، الساحة الكبرى
تحيطها الغرف من كلا الطابقين، لا تخلو ساحة من وجود ساعة
شامخة كشموخ العراق، يا الله عليك يا بغداد ماذا تحتوين؟! كيف
يغفو جفن فيه صورك؟ وكيف يسافر كاتب عنها؟!

كُلّ شي يتحول إلى جناح حين يذكر اسمك. فتح الظل عينيه
ليتابع الشخير، ويترصد حركات وسكنات الآخرين، الخارج عن
طوره في غفوته والصاحي. ما زال الوقت يستدرجنا إلى النوم،
وأستدرجه للذكريات، الشقراء ذات القوام الرشيق، استرخت تنورتها
باسترخاء جسدها قليلاً؛ فبانّت سرتها، وهي شبه مستيقظة في
ذهابها إلى الحمام، شاب أفريقي تبعها صامتاً ومتحرشاً، فلم نسمع
سوى صفة على خد الراكب الأفريقي، اتهمته بالتحرش بها،
المسكين صعقته المفاجأة، وتلعثم لا يدري بماذا يرد عليها وعلى
نظرات الذين استفاقوا.

كيف أشكل فرحي في البلد الآخر وأنا في هذه الفوضى الروحية!
كما لو أنني متهيئ كعنق تحشرج فيه الكلام.

أعزي نفسي بالأمل ومرافقة الظل، بالتغزل في النساء، والأكل.
حمدًا لله هو مجرد ظل، لا يراه أحد سواي.

في هذا التأمل يبدو أنني غفوت، حتى صحت على صوت
المضيضة طالبة ربط الأحزمة، والتهيؤ للهبوط في مطار تركيا.
بضائع زاهية من السيراميك التركي، والحلويات المتنوعة المغرية
للشهية.

الملابس الفاخرة والحلي الأصلية؛ من الذهب والماسات والساعات
ذات الماركات العالمية، والإكسسوارات التي يصعب شراؤها على
مَن هم من أمثالي، كُلُّ ما فعلته في جولتي في قاعة الانتظار
(الترانزيت)؛ اشتريت حمالة مفاتيح بدولارين، وكيسين من
البطاطس المحمرة بالملح والفلفل، وزجاجتين من العطر الفاخر،
وساعة يد نسائية، صار ظلي لا يشتهي ما أحب وأشتهي،
وصارت له طلباته الخاصة وآراؤه.

على أريكة قرب فتاة شقراء جلستُ أسترجع ما قرأت "لناظم
حكمت" (تعال من فضلك قالت: تعال من فضلك، قالت، وأبقَ،
قالت: وابتسم، قالت: ومُتْ، جنُتُ بقيتُ، ابتسمتُ، مِتْ)، هل
سأموُتُ في رحلة من رحلاتي، أم مِتُّ حين خرجتُ؟

سأرى عجائب الجمال، والحرية، فعلامٌ يعتصرني الاكتئاب؟ أهو
الولاء التام للوطن؟ أعني يا إلهي؛ ليستمتع المحروم من هواء
نقي، قلم حر، ورأي وفكر متّقد، استجابة واحدة منك يا ربّاه؛ فأنا
ما زلتُ على قيد الحب والحياة!

أتابع دخول المسافرين أفواجًا منتظمة، في مقصورة الدرجة الأولى
دخل رجل أكرش يرتدي ملابس فاخرة، حاملاً بيده حقيبة صغيرة
من الجلد الفاخر بلون بني لامع، ودخل معه مرافقه، من الواضح
أنه مدير أعماله، هو الآخر يرتدي ملابس فاخرة، وساعة وصلني
بريقها قبل أن تسدل المضيئة الستارة الفاصلة بينهم وبيننا،
ابتسمت ابتسامة عريضة، فتساعل ظلي رافعاً إصبعه استفساراً
وإشارة، فأجبته:

تذكرت المثل المعروف: (كلب الوزير، وزير كلاب)، تعودنا
التبجيل لمن هم أصحاب القرار في مسيرة حياتنا، بدءاً من
الأرباب إلى الساسة ومدراء المدارس والمعلمين ورب الأسرة، حتى
ألغيت شخصياتنا، وأصبحنا تابع، حتى هذا الأكرش تابع وعبد،
نعم عبدٌ للدولار، إلهه الدولار، أما ترى المرافق كيف وقف؟ لم
يجلس حتى جلس رئيسه الأكرش.

شاهدتني امرأة عجوز أكلم نفسي، فرنت الجرس على المضيفة،
وشاورتها وهي تنتظر إلي، وأنا ما زلت أصف لظلي عن أنواع
العبيد والآلهة، فدنت مني المضيفة وسألنتي فيما إذا لديّ رغبة في
طلب كي تجلبه إلي؟ أشرت لها بالنفي دون التكلم معها.

من جهتي تابعت الكلام مع المرافق لي، وأغلب العيون تحدجني،
عدا الشاب الأشقر، تبسم لي وترك مكانه ليجلس قربي.

طلبت من الظل أن يأخذ مكانًا أبعد قليلًا؛ لنفسح للأشقر المكان،
فاستجاب لطلبي على مضض:

- لكنني سأتابع حركاتك وسكناتك، لا تتس أنك من أوصلنا لهذا
الحال، قلمك هو السبب.

جلس قربي يتحدث العربية بلكنة واضحة، فقلت له: إذا تجيد
الإنجليزية حدثني بها؛ فأنا أجيدها.

حسنًا، قالها بالعربية وواصل الحديث معي باللغة الإنجليزية،
عرف نفسه لي:

- أنا طبيب روسي، اختصاصي الطب النفسي، وتعلمت عدة لغات لأتواصل مع مرضاي بلغاتهم، نعرف عملنا يتطلب الدقة، لو استعنت بمترجم قد لا يصف حالته المريض مثل وصفة لنفسه. وكوني أجد الإنجليزية بادرته بابتسامة:

- جميل جدًا، وهل حضرتك من مدينة "موسكو"؟

- نعم، لكني أعيش في أطراف المدينة، عيادتي في وسط موسكو.

دارت الأحاديث الشيقة بيننا، والانسجام بالآراء وتقارب الأفكار، فهو طيب ومتقف، ظلي يؤشر لي بإنهاء الحديث، لم يعجبه الجلوس وحده، أعطاني الطبيب "دانييل" كارتته الشخصي، واتَّفَقنا على التواصل مع بعض.

قبل رجوعه لمقعده أثارني بكلام بقيت حائرًا به:

- أنتظر، فأنت بحاجة لي، ضروري، لا تنس!

نط الظل منزعًا:

- هذا الغبي أمّا يظنك مريضاً نفسياً، وهو الاحتمال الأرجح، أو شاذّاً، أغرته عضلاتك المفتولة وشكلك العربي، ربما قال لأجرب العرب، ها ها ها.

لم أعره اهتماماً وتناولت مجلة أمامي لأتصفحها وأعرف أكثر عن معالم المدينة المتجه إليها، ولو بالصور.

أخذتنا إغفاءة لا أعرف مدتها، سوى أن الطائرة حطت في مطار (شيريميتيفو الدولي). قرأت عنه في المجلة التعريفية بسياحة البلد، وانبهرت بصور المبنى.

لم يتدافع المسافرون لأخذ أماكنهم في انتظار الجوازات، حتى العرب أصابتهم عدوى النظام والهدوء والاستمتاع بمنظر البناء الجميل، وبالنساء الفارعات، والبشرة البيضاء اللامعة المضيئة.

وأنا أبحث عن عربة لنقل الحقائب؛ حاصرني السؤال: كيف يمكننا الإمساك بالزمن الهارب منا؟ ومن الذي أفلت من يد الآخر؟

وانتبهت إلى أنّ عليّ معانقة النظام هنا، وألا تفوّت عيناى أية صورة.

التصميم الزجاجي والقوس الكبير في الأعلى وكأنه جسر شاهق يقول للضيف نحن على موعد مع الجمال، لا يختلف عن التصميم الداخلي، أشبه بجسرين يتعانقان في أعلى المبنى.

تركني ظلي وراح يجري خلف فارعة شقراء، تتحدث عيناها بلغة الشبق.

لم تكن حقيبتني ثقيلة؛ فقد حملت معي ما خف وزنه من الملابس، وبعض الكتب.

رحت أبحث عن سائق يتحدث الإنجليزية، حصلت عليه بعد جهد كبير ففضلت الصعود معه، الذي لا يتكلم لغة البلد غريب في كل شيء.

استخرجت العنوان من حقيبة يدي وقدمته إليه، نظر لي باستغراب:

- ألا تريد فندقاً؟

- نعم، محجوز لي فندق على هذا العنوان.

- إنه بيت عجوز في أطراف المدينة تسكن مع ابنها كلنا نعرفها، لديها غرف إضافية تستأجرها للقادمين إلى (موسكو) أو للطالبات القادمات للدراسة، تقوم بتقديم الأكل والعناية بغسيل الملابس وكيها بأجر بسيط، عدا إيجار الغرفة.

مشت بنا السيارة أكثر من نصف ساعة وهي تخرق الشوارع الرئيسية بمبانيها العملاقة وشكلها الأثري بألوانه الزاهية كأننا نمر بمتحف، ذكرني هذا المنظر في مدينة (براغ) متحف في مدينة، كما أخبرني بعض الأصدقاء عن إحدى رحلاته السياحية، وصوره التذكارية على جسر كأنه متحف فعلاً، في أبهة ملوكية خاصة في الليل، وتوزيع الأضواء الهندسية عليه. لقد رأيت الفيديو كاملاً لرحلة صديقي.

لكني سألت السائق: كم المسافة بين وسط المدينة وبين العجوز؟ وكيف سأصل إذا طال بنا الطريق خاصة عملي يومياً وتجوالي؟ لا شيء يقلق هنا، فأنت في موسكو، هناك الحافلات الكهربائية، وخطوط الترام والميكرو باص والمترو، سيارات الأجرة غالية لكن باقي المواصلات تشتري تذاكرها من أي كشك.

كاد الملل يصيب ظلي، لولا أنه مد رقبتَه من النافذة لإشباع عينيه
بجمال السيدات، لم تفته واحدة حتى العجائز يبخلق بهن.

مختلفات عن عجائزنا؛ له الحق في ذلك.

كما من حق السائق وقتما طلب الأجرة مئة دولار، أنا مثلك الآن
يا "بوشكين"، (كأنني النسر الذي بُغت في وكره، سمعت صوت
الله يقول: قم أيها النبي، راقب، اصنع واعمل حساب مشيئتي،
طف في القفار والبحار، وبكلمتي أشعل النور في قلوب الناس).

نعم سأطوف، وهذا ما جئت من أجله.

بعد عناء وصلنا لدار تقع في شارع ضيق، لا يشبه الأزقة القديمة
في العراق، الفارق بينهما أنها مصبوغة بدهان أحمر وأبيض،
وبعضها أزرق وأبيض، وأغلبها بتدرج اللون الزهري، الزقاق نظيف
وأصص الأزهار أمام كُلّ باب، إضافة إلى الزهور المعلقة على
كلا الجانبين لكل باب.

لوحة فنية كأننا في حديقة وليس بزقاق ضيق. طرقتنا باب دار تقع
في وسط الدور، فتحت لنا امرأة عجوز كانت كما تخيلتها،
بهندامها الجميل الزاهي وجمال لم يبصم عليه الزمن شحوبًا.

شقة لا بأس بمساحتها، الصالون مطلية حوائطه باللون الزهري، على جداره عُلِّقت آلة وترية تشبه العود، لكنها تشبه المثلث، الأرائك قديمة، إنما نظيفة، وضعت عليها مساند مطرزة يدويًا، رحبت بي وأجلستني في الصالة وهي تشرح لي عن التحف وآلة العزف، والمساند المخملية المطرزة بأناملها. غابت دقائق وعادت تحمل صينية بكوبين مرسوم عليهما العلم الروسي، ذو الثلاثة ألوان؛ الأبيض والأزرق والأحمر، سألتني عن رئيسي بالمجلة، فهي تتكلم الإنجليزية بصعوبة، وبدأت تعرف الأستاذ "مالك"، ربما حصل على رقم هاتفها من أحد.

سألتها: لمن تعود هذه الآلة؟ أجابت بأن الآلة لزوجها المتوفي، والآن لابنها، هو يعزف بها وقت صفاء ذهنه.

- هل يسكن معك؟

- نعم يسكن بالغرفة المجاورة لك، هو في الثلاثين الآن، لكنه منطوٍ، ولا يخرج من غرفته منذ عشرات السنين، يأكل وحده، ويبقى وحده الوقت كله.

- كيف؟ هل يعزف وحده أيضا؟

- منذ صغره كانت تستوقفه الألحان، ويدندن بها وهو في الرابعة حتى بلغ العاشرة، لم يكن منطويًا، وظهرت عليه هذه العلة بشكل جلي بعد وفاة والده، حين كان في السادسة عشر؛ جلبت له مدرسة موسيقى، هو اختار آلة (البالالايك).

دخلت الغرفة المخصصة لي، قلت:

- سامحيني يا بغداد، بريئة أنتِ كبراءة العشق الأول، لا ليلك يشبه باقي الليالي، ولا نهارك، ثقي بأن هناك نبي ما زال يطوف في أزقتك، يحملها معه ليعشق الصور الأخرى، فقط ليراك فيها لو طال السفر، البقاء في حضنك يحتاج لكلمة، ولكي أكتب عليّ أن أتجزأ، وهذا صعب، كيف أجزئكِ وأنت في؟ لقد قبلتُ التحدي؛ لتبقي شامخة!

السرير واسع، يستوعبنا، ولو طلبت سريرًا لشخصين سأثير الاستغراب.

دخلت الحمام، اغتسلت، ونمت نومًا عميقًا، لم أنتبه إلا على صوت السيدة "غالينا" والتي تعني بالعربية "النور"، اسم رومانسي أعجبني، وسأشرح لها المعنى بلغتنا.

حان موعد الإفطار، قالت وهي تطرق الباب، خرجت لم أر ظلي
في السرير، فزعت، كيف غادرني!

سألت السيدة "غالينا" فيما إذا رأت أحدًا غريبًا؟

- لا يدخل الأغراب داري، فقط من يحجز ليسكن معي.

عاد ونحن على الإفطار، أشرت إليه، فأشار: خرجت أمتع ناظري
بالورد والناس، ما أجمل هذه الشمطاء!

لم يعجبني وصفه فأنذرتة: إنها إنسانة خلوقة وراقية؛ فلا تنعتها
بالشمطاء.

وجدت السيدة "غالينا" تبتسم، وتردد في هدوء بإنجليزيتها المتعثرة،
ربما حين وجدتني أكلم نفسي قصدت ذلك كي أسمعها: كنتُ في
واحد، أصبحت الآن باثتين.

- ألا يخرج ابنك ليتناول الإفطار معنا؟

- حبيبس غرفته، لا يخرج منها إلا نادرًا.

قلت لها: سأريك من سيخرجه الآن؟

تناولت الآلة ذات المسند الطويل، وذات الثلاثة أوتار، مسكتها
كما أمسك العود، قبّلَتها مرددًا: اشتقت إليك كثيرًا.

بدأت العزف على مقام "الصبا" نفسه الذي ودعني به عودي
الخاص، أشرب جرعة من الشاي، وعيني على باب غرفة الشاب،
ما أن مرّت لحظات؛ حتى رأينا الباب يُفتح تدريجيًا.

فرحت أمّه، وأشارت لي أن أكمل، أخذني النغم إلى أسرتي والعم
"سعود"، ونطقت نغمًا كسؤال عن صحته، حتى العجوز طربت
معى، وسال دمعها وهي تهز رأسها، ربما شوقًا لشخص، أو لحظة
وداع تذكرتها.

فُتح الباب، طل رأس بغرة شقراء ووجه بض جميل الملامح،
سبحان الله كيف يخلق الخالق هذا الانسجام في الملامح، والشنب
الأشقر الداكن أضاء الوجه كله.

وشيئًا فشيئًا خرج ذلك الشاب الرشيّق الممشوق القامة، وبهدوء
جلس قبّالتي يهتز ويشير بأصابعه محط ما أنقر أنا، فلا مهرب
مني الآن إلا أن أضع (البالايكا) بين يديه، وأنظر في عينيه
اللّتين أبرقتا بفعل الموسيقى.

أخذها مني، وراح يعزف على نفس الصبا مبتسما لي، وعيناه
تضجّان بالبريق، عينان عسليتان، وعلى ما أظن كانتا خضراوين
في صغره، فلونهما العسلي يميل إلى الخضرة.

لم أنتبه لصورة بإطار جميل لثلاثة أشخاص، رجل يرتدي الزي
الروسي التقليدي، وامرأة شابة بالزي ذاته، وطفل في الثالثة من
عمره يتوسطهما.

للموسيقى قلب آخر، لا يدركه إلا مَنْ تشبعت روحه ونَبَضَ
وجدانه بها، انبثق هذا الاحتضان الروحي، وأحاطنا بأذنه كأمّ
حنون.

دخلت السيدة "غالينا" المطبخ، وأعدّت لنا إفطاراً غنياً بكل ما
تشتهيه النفس،

وضعت الصينية على الطاولة، واحتضنتني، وقبّلت رأسي وجبيني
بامتنان الأم على صنيعة قدمتها لها، وأخرجت ابنها من عزلته.
نسيت أسألها عن اسم ابنها، وعرفته منذ رأيته تسأله؛ إذا لديه
رغبة في كوب شاي آخر.

قلت له "سيفاكس": ما رأيك لو أخذتي في جولة قريبة من الدار؟،
فأنا ضيفك وواجب صاحب الدار الضيافة.

لم يرد على طلبي، فقط كوكبان لمعا في عينيه، ربّاه كيف سيرى
الخارج الآن بعد كلّ هذه العزلة!. تركنا ودخل غرفته، لم نشأ
إزعاجه.

تُرى، كيف سيتفق الضوء مع نهارنا هذا؟ وكيف ستشرب
الأشجار؟

ماذا سأكتب للسيد "مالك"، وأي موضوع سأختاره؟

ربما سيسعفني الإلهام من خلال المدينة العريقة، أحياناً كلّ
الأفكار تنطلق من مشاهدة مؤثرة، أو عابرة تترك أثراً عميقاً، حتى
لو كانت كلمة تدفع بالمبدع إلى صياغة أحلامه بشكل غير
عادي ومبتكر!

خرجت السيدة "غالينا" من غرفتها تستفسر عن الغداء، فقلت لها
أية أكلة من يديك ستكون لذيذة، خاصة لو كانت من الأكلات
الشعبية الروسية.

وأنا أهم بالخروج؛ خرج "سيفاكس" من غرفته وناداني باللغة الروسية، سرعان ما ترجمت لي والدته عن رغبته بالسير معي خارجًا، مثلما ترجمت له كلُّ شيء في جلستنا الصباحية.

الأرض لم تسع السيدة، فأجهشت بصوت عال، قَبَلْتنا معًا وهي تؤدي حركات راقصة.

سرنا والصمت صديقنا الرابع، فظلي عبَّر عن فرحه ومشى أمامنا راقصًا، خاصة سنأخذه بجولة لم يحلم بها سابقًا.

وقفنا عند محطة الحافلات، كنا نسير في مدينة من متحف، كلما سأَلته باللغة الإنجليزية رد علي برطانتته وإشاراته، سأَلته لمعرفة وجهتنا، لم يرد، لكن صعدت شابة آية في الجمال ترتدي بلورًا بورود صغيرة متعددة الألوان وبنطالًا من الجينز، فلكنني بكتفي مشيرًا إلى قميصها، ظلُّ يتقمصني، ويختلف، تشاجر معي مرارًا لأغير مساري؛ لم يفهم عليَّ "سيفاكس" ينظر إليَّ، ويؤشر برطانة، أدركت منها أننا باتَّجاه "الساحة الحمراء".

قرأت عنها قبل سفري، وأيضًا في مجلة الطائرة، وأدهشتني صورها، كأننا نسير في متحف، ونحن في الحافلة على جهتي

الطريق أبهرتني الخضرة، والبنائات المصممة في طراز معماري
مذهل، والشوارع مليئة بالسواح وأهل المدينة الذاهبين إلى العمل.

لم أرَ متسولاً في طريقنا، لعلنا سنجده في الساحة الحمراء، ومن
جمال الصور أيقنت لماذا هي الساحة الرئيسية للمدينة!

فيها ضريح "لينين" بالقرب من جدار الكرملين، ما جعل الميدان
المركز الأيديولوجي لموسكو الحمراء، حيث اشتهرت بأنها مسرح
للاستعراضات العسكرية.

وأنا مشغول باندهاشي في جمال المكان لترسخ في ذهني أغلب
تفاصيله وأدونها لمشروعي الذي أتيت من أجله، غاب عني
"سيفاكس" قلقت لهذا الغياب؛ لأنني لم أدون اسم المحطة ورقم
الحافلة تحسباً للرجوع، لكنني فوجئت به يحمل كيساً، فتحه وقدم
لي (شطيرة محشوة بالمقانق)، لم أكن جائعاً، إنما سال لعبي على
الرائحة، وفي أول قضة منها سألته بإشارة إذا كان من لحم
الخنزير، فأشار بالإيجاب، أعدت شكري له وبررت عدم أكلي
بأنني في لهفة لطبخ والدته.

ما يميز المباني قبابها الكثيرة في الميدان، واللون الأحمر المعشّق بالذهبي،

كُلّ قبة تأخذ زخرفة خاصة بها منسجمة مع باقي القباب، كنت أعتقد أن تسميتها بالساحة الحمراء يعود لأهمية اللون الأحمر لدى الروس، لكن كتاب الدليل الذي اشتريته من كشك قريب من محطة الحافلة به ترجمة إنجليزية لكل المعالم المهمة، عرفت من قراءتي أن معنى الساحة الحمراء في اللغة الروسية يعني (الساحة الجميلة).

شكلها مربع وتحتوي على العديد من المعالم التاريخية والأشياء المعمارية الضخمة والمدهشة، يقصدها الزوار من كُلّ حذب وصوب.

حقاً شعرت كأني في كوكب آخر، وتألّمت لأننا قادرون على جعل العراق محجّاً للكثير من الزوار، فلدينا أهوارنا، ومراقنا المقدسة، وثرواتنا الحضارية والتاريخية، حقّ كُلّ هذا علينا.

حقك علينا يا بغداد، لنجعل منك عروس الشرق، وعلينا ألا نخبتئ، حين نقف أمامك؛ سنتلثم الموسيقى، أدرك أن لا آلة تترجم ماهيتك العظمى، طليقة أنت لا يسجنك أي وتر.

كاندرائية "القديس باسيل" أجمل تصميم فني معماري في موسكو، وهي أكثر المباني الروسية شهرة، وتعني هذه الكاندرائية بالنسبة للروس مثل برج إيفل بالنسبة للفرنسيين، كونها رمزًا مشرقًا لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

يزعم المؤرخون أنّ "إيفان الرهيب" أعمى مهندس كاندرائية "سانت باسيل" مباشرة بعد الانتهاء من البناء؛ لمنع من بناء كاندرائية أخرى رائعة مثلها.

وكانت جوانبها في الأصل خشبية، ولكن في عهد "كاترين الثانية" العظيمة؛ أعيد بناء الجدران بنفس الحجر الذي نراه اليوم، ومغطاة بألوان وتصميمات زاهية.

هي نفس قصة "الملك النعمان" قاتل مهندس قصره "سمنار" عند انتهائه من بناء قصر "الخورنق"، الذي قال للملك هناك آجرة في البناء لو أزيلت سقط القصر كله، هو وحده يعرف مكانها، فقام الملك برميها من أعلى القصر كي لا يعرف أحد بمكانها غير الملك، وهذا سبب للمثل الشائع (جزاء سمنار).

قد تكون كلتا الحالتين حقيقية، أو من أقوال الآخرين، لكنني أعرف أن الملوك يتشابهون؛ لهذا لا أعرف كيف أنحت كلمة فيها بغداد، كلما ارتديتها؛ خرجت عارياً إلا من عينيها تحرساني، وأسكر كلما تشعبت في وجداني كسكر الليل بانتظار فجر قريب.

الكاتدرائية مبنية على طابق أرضي، وعلى سطح المبنى امتد برج عالٍ، مقسم ثلاثة أقسام، كل قسم بزخرفة خاصة به، وينتهي البرج بقبة ذهبية، تحيط البرج أربع قباب مختلفات الارتفاع والألوان، ولكل واحدة زخرفتها المنسجمة مع الشكل العام كله؛ أغلبها بصلية معشقة بالذهبي والأزرق والأبيض والأخضر.

انتظرت انتهاء ظلي من الحلقة في عيون الحسناوات، بينما "سيفاكس" التهم الشطيرة بسرعة.

في الكاتدرائية من الداخل معابد منفصلة عن بعضها، مطلية بدهان وألوان زهرية، ومختلفة عن الأخرى. أما الحديقة الأمامية تحتوي على تمثال برونزي للبطلين؛ "ديميتري بوزاركسي، وكوزمان مينن" قادا جيش روسيا ضد الغزاة البولنديين.

ونحن في الداخل تعرفت على عائلة عربية، الغريب يشده صوت لغته، وينجذب لسحرها ووقعها على قلبه، بادرت بالتحية فرد الزوج بأحسن منها، وطلبت زوجته من ابنها أن يتقدم لمصافحتي.

جلسنا في مقهى قريب لتناول القهوة، وقدمت لهم نفسي بأني صحفي عراقي، جئت لغرض كتابة موضوع تبلور عنوانه في فكري أثناء دخولي الساحة الحمراء.

قدمت نفسها بأنها إعلامية أيضًا:

- وما هي الفكرة؟

أجبتها: تزامت الأفكار، منها؛ (أنا والمكان، أو الموسيقى إله الروح) وفي الغالب سأكتب شيئًا مختلفًا.

طلب لنا الزوج القهوة، وسألني: هل حضرتك عازف؟ فقلت: نعم عازف عود.

قال: عرفت ذلك من أصابعك، ثم لدينا برامج لرحلتنا، ما رأيك لو شاركنتا في الرحلة، نحن باقون لمدة أسبوعين، وستكون الرحلة جميلة مع مبدعين!

وافقت على الفور، وتبادلنا أرقام الهواتف، كما أعطاني عنوانه، لم أعطه عنواني كي لا أبين له فقر المكان وهو نزيل فندق (فور سيزونس موسكو).

رأيت بهذا الفندق سلاسة الشمس وأفراح مؤجلة. كما صرت أحاور من ألتقيهم مرفوع الرأس.

سألتهم هل ضريح لينين قريب من هنا؟ فوجئت أن لهم جولة يوم غدًا لعدة أماكن في موسكو؛ لذا اتفقنا على الرفقة، واللقاء هنا في الساحة عند العاشرة صباحًا.

لأول مرة يرافقني ظلي حائرًا، رأيت مجنونًا، حريصًا، مشاغبًا، لكن لم أره حائرًا.

أشرت إليه عن سبب ذلك، والسيد "سيفاكس" متعجب من حركات أصابعي في الهواء، أكيد شك كما الآخرين بجنوني أو انفصامي، "سيفاكس" لم أر في عينيه هذا الشك، بل لمعة فرح، ثرى هل يظن أنني أشبهه؟

أنا لا أعرف علته بالضبط، وكان قراري زيارة صديقي الطبيب في عيادته، وعرض حالته عليه بشكل غير مباشر كأنني أنا المريض؛ لئلا أجرح مشاعره.

في رجوعنا إلى الدار كما خرجنا منه، لم نمر بطرق وعرة، أو أماكن خالية من الزهور متعددة الألوان، كل ما رأيته تحفة لونية.

شمنا رائحة الأكل الزكية حالما افتحت لنا السيدة "غالينا" الباب، كانت مبتهجة لقدمنا، ودنت وحيثني بشغف ودود.

أشارت لي موضحة قلة إجادتها الإنجليزية؛ أن الأكل بلحم بقر، وليس خنزيراً، وصاحت عاليًا، وهي تقلد صوت البقر والخنزير، ضحك ظلي عاليًا، وجلب ضوضاء كأنها صارة مني، لذا أشار "سيفاكس" لأمه: إنه من هنا.

أكلة "الكنيش" لذيذة للغاية، بطاطة مهروسة، ومزيج من لحم البقر المفروم، والبصل والجبن المحشو في فطيرة من العجين المقلي.

لها دراية بديانات متعددة، وبعض اللهجات النقطتها من النزلاء المؤقتين، تحفظ كلمات (كيفك، تأكل، تشرب شاي)، لكن الإنجليزية أكثر لغة تتحدث بها، ولو بها الكثير من السقطات والعثرات واللفظ الخاطئ.

تمددت على السرير والظل المشاكس قربي، أخذت أقرأ في المجلة عن تفاصيل موسكو؛ كلمة "الكرملين تعني القلعة" أو المدينة

المحصنة، ويوجد في روسيا أكثر من عشرين كرملين، ومن أبرزهم (موسكو كرملين، كازان كرملين، نوفغورود كرملين) غير ذلك، كما أنّ الأكثر شهرة في روسيا هو (كرملين موسكو) الذي تغير معناه منذ الحقبة السوفيتية وأصبح مرادفًا لحكومة روسيا، وتم بناء الجدار الحالي بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكنه ليس الجدار الأصلي المبني من الخشب أثناء تأسيس موسكو.

سمعت موسيقى قادمة من الصالة، خرجت وتبعني ظلي، كان "سيفاكس" يعزف على (البالالايك)، وأمه تستمع إليه بحب، وبوهج ذكرى معينه أعادها إليها ابنها.

حالما رأنتي غاصت نظراتها في قلبي شاكرة، جلست قربها، ومسحت كتفها:

- لا تشكريني، لست أنا من أخرج ابنك من عزلته، إنها (البالالايك)، الموسيقى سيدتي معطف سماوي أزرق يلف الإنسان ويحتضنه. هي التي أعتقته من سجنه، وربما حاجته لأب أعطته

الرجبة في الخروج والتقرب إلي. سأخذه معي في نزّهاتي، أعدك بذلك.

كتبت رسالة لرئيسي "مالك"؛ أخبره بأني بدأت أدون مشاهداتي، واقتרכת عليه أن يكون عنوانها: (الموسيقى إله آخر)، ثوانٍ مرت وعاد لمراسلتي:

- لا يا ابن الك. . . ، هل تريد إغلاق المجلة؟ هل نسيت نحن في دولة متخلفة، ولا تعتبر الموسيقى غذاء الروح، فكيف إذا جعلت منها إلهًا ثانيًا؟

أعدت الرسالة إليه.

- اختر أنت عنوانك للنشر، أما أنا فسأبقى أعيش مع ولهي، كي أرسل لك إبداعًا ومشاهدات ذات قيمة، المهم لا تُلْبِس رسائلني عمامة، وإلا سأترك التعامل معك.

قضينا أجمل سهرة، نتناوب الـ: (بالالايكا) أنا و"سيفاكس"، ولم ننتبه للفجر وهو يشاكس الليل ويهزمه.

قلت لناخذ بعض النوم، سنبدأ رحلة جديدة، لا بُدَّ من الراحة، إلى لقاء بعد أربع ساعات.

أمسك ظلي يدي اليمين، وسرنا ندهش الابن وأمه بحركة يدي الاهتزازية، التفت فجأة؛ فوجدت العجوز "غالينا"، زامّة شفتيها، زمّتهما بحركة استفسار وحيرة، حاولتُ استدراك الأمر:

- معنى اسمك بلغتنا لفظاً وليس ترجمة، العزيز علينا، وليس معناه بلغتكم "جالينا، أو غالينا" نور أو ضياء، اسمك سيدتي محفور في خديك وجبهتك. . . إلى لقاء.

إفطارنا اليوم مختلف، يبدو أن السيدة "غالينا" تريد أن تتفنن بالأكلات الشعبية الروسية؛ أعدت الشاي والفطائر المحلاة بالعسل والجبن البلدي المصنوع في قرية (زاميتسكي) من حليب عالي الجودة وكامل الدسم، يخمّر لمدة واحد وعشرين يوماً، ويقطع إلى رقائق صغيرة ممكن تخزينها في الثلاجة لمدة شهر.

وكذلك بيض مخفوق في طبق مزين بالقليل من الأعشاب واللحم المفروم المقلي، والخبز الروسي بشكله الإسفنجي.

أكلنا على عجالة وظلي، يؤشر في الهواء باتجاه فمي، سألتني العجوز بخجل:

- هل أنت ساحر؟ أو معك جيني؟ تقصد جنّي، قلت لها: لا تهتمي لذلك سيدتي، ابقِ محدقة صوب ضوء (البالايكا) هي تحكي قصصنا، إن شئت أن تتعمي بذلك.

كنت في ذروة الاكتشاف، وكأني مغمور بالنشوة، دخلنا الحافلة المزهرة بالشقراوات والشعر الأشقر المائل إلى الحمرة، الكل أنيق، الشيوخ والصبايا، الكل شاب بروحه وشكله، إلا قلبي والظل، نقشر لحظائنا مما علق بها من صداً.

لم نجد أحداً ينتظرنا في الساحة الحمراء، ربما الأغنياء لم يتعودوا على الصحو المبكر، ما الذي يضطرهم إلى ذلك، لا الذهاب إلى المخبز في عز البرد، ولا القيظ يحرق ظهورهم، يأتيهم المخبز إلى دارهم. ولا السير الخاطيء في اتجاه السيارات، أو انتظار طعن من ثمة مجهول.

توقعت كونه مسؤولاً في الدولة جاءه أمر بالرجوع، لا يملكون أنفسهم حتى في عطلم. المسؤولون هكذا دائماً.

صاحبة الدار لم يُهن كرامتها القيط كباقي مثيلاتها بانتظار كرم
موظف التقاعد من نافذة ضيقة. . أنا الآن صديق وأخ وعم لظلي
الأهوج المشدوه لأكثر من ساعة يحرق في الوجوه القادمة وعيون
المستلذين بمتعة الجمال.

لم يأت أحد، الغائب عذره معه، قلت "لسيفاكس" وسرنا صوب
مرقد "لينين" فالمشي جعل الانتعاش يسري في بدني سريان العطر
الجميل في الروح.

من بعيد لاح أمامنا سور كبير باللون الطوبي المصنوع من
الكرانيت، ومنازة من لونين الأخضر والطوبي، بينما قبة عالية
تربع على قمته علم روسيا، وإضاءة تشبه المدرج، وهي مدخل
جانبني حوله بعض الشجيرات ذات لون داكن الخضرة.

صمم الضريح المهندس "أليكسي شتشوسيف"، هكذا قرأت اسمه
في كتاب الدليل، ألجأ إليه لأتعرف أكثر، العين وحدها لا تفي
بغرض ما جئت من أجله، بل عليّ متابعة وقراءة كلّ شاردة
وواردة.

ساحة واسعة في الداخل، وسور من الحبال يرشد السواح إلى بوابة الدخول، كان الضريح كسرير من خشب بأعمدته الأربعة، وبشرشف معشّق بالمخمل والستان وشراشب متدلية من الجانبين، كان صبغ خشب الضريح والسقف والأعمدة من اللون الرصاصي المزرق، تمامًا كلون الملاءة والوسادة، وكان سقف الضريح من طبقات خشبية، الأولى بلون الخشب المطفي والأعلى منها رصاصي مزرق، ثم طبقتان كلاهما أصغر من الأخرى بلون الخشب الأفّتح، رغم تدرّج الألوان البسيط لكن هيبّة المكان ولينين النائم كأنه من نومة البارحة تفرضان على الزائر الصمت.

الهدوء إلزامي لا صوت، لا كاميرات والموبايلات مغلقة احترامًا للمكان، كما أن الزيارة مجانية.

وقتما خرجنا وهيبّة المكان ما زالت تحوّلنا بها، سمعت سائحة أمريكية تتحدث مع دليلهم السياحي:

- أظنه تمثال شمع وليس لينين ذاته، كيف احتفظ بشواربه ولون بشرته وعادةً بشرة الميت صفراء!

طول فترة طوافنا حول الضريح كان "سيفاكس" ممسكًا بيدي، شعرت به يخاف الموت، ربما يذكره ذلك بأبيه، أما ظلي بقي محلقًا في كُلِّ شيء، وكل مكان بدقة متناهية، وقلبه يخفق للجماليات.

ما زلنا في ساحة الضريح، وإذا بموكب من الضباط حاملين أعلامًا حمراء وصور لينين، يتقدمهم ضابط بين يديه إكليل كبير من الورد الأحمر والأبيض، وضعوا بعضًا من الورد على أول مدرج لبوابة الدخول التي يقف عندها حارسان، وحرس منتشر في الساحة. لم أعلم أنه تاريخ ميلاده اليوم، لذا كان الموكب بكل ألوانه وزهوره احتفاءً به. وأنا اتطلع لطول لينين وصغر قامته تيقنت أن القوة ليست بالشكل؛ بل بالعزيمة والإيمان بالمبدأ والوطن.

لم يتأثر شكله بالزمن، التحنيط محكم بدقة متناهية، لدرجة أنني توقعت أنه سيصافحني، لكنه وضع يديه فوق بعضهما، ربما روحه صافحتني، فعلاقته مع الأدباء والمبدعين علاقة حميمة خاصة صديقه "مكسيم غوركي"، وقد قرأت لـ: "غوركي" يصف "لينين":

- كيف لرجل عاش كُلّ هذه المصائب، وبقي قادرًا على الضحك
لدرجة الدموع!

كما استمر يقول: كيف لـ: "لينين" بعد أن استغرق بالضحك مسح
دمعه قائلاً:

- إن الإنسان الشريف، ذا القلب النقي الطاهر، وحده يستطيع
الضحك بهذه الصعوبة.

قرأت بعضًا من مؤلفاته، إلّا أنني ما زلتُ متأثرًا بأقواله ومعجبًا
بهذا الفيلسوف، كيف يجد وقتًا للكتابة والقراءة.

(الثورة تعني تحطيم أصنام الجهل بداخلنا عوضًا عن إسقاط
تماثيل شاهدة على تاريخنا) نحن لم نقم بهذا، أسقطنا التماثيل،
وشرّعنا شريعة الجهل المتعمد لإسقاط هيبة الشعب، والمتقف،
والعالم، والوطني النزيه.

ما أعظمك "يا لينين"! (صوت رجل بمفرده لا يبلغ مسامع الشعب
كله، بل يضيع، ويختنق في أقبية البوليس)، لكن في عراقنا
ضاعت أصوات، وزُهِقت أرواح، وما زال البوليس منتشرًا، هنا

الطامة الكبرى حين يتسبّد التخلف والجهل الطامع على الوطن والشعب.

أعلنُ أنكِ يا بغداد اختياري الأعظم، وأنك كُلّ ما أحمله من صلبي وصلبي، وسجني، وأنني الوائق، رغم أدمعي أنكِ ترينني.

من الكتاب السياحي اخترت شارع "آربات"، فأشرت بصورته إلى "سيفاكس"؛ فأيدني على الاختيار مؤكداً أنه ليس بعيداً عنا، يمكننا التجوال مشياً إليه، فهو في وسط مدينة موسكو، لم يؤيد ظلي فكرة المشي، ويبدو تعب من التجوال؛ ففضل الذهاب لذلك الشارع بالمترو، أظنه علم بالإرهاق الذي أصابني فجأة خاصة حين تذكرت العم "سعود" وبغداد، فطلبت من "سيفاكس" وأشرت إلى اختيار المترو.

تمنيت ألا أخرج من المترو، فهو لوحده متحف، بأقواسه الجميلة المذهبة، والقاطرة النظيفة اللامعة من شدة نظافتها، تعلو السقف مصابيح ذات لون حليبي، وفوانيس مذهبة تسحر الناظر، حتى الأرضية من نظافتها خشيت المشي عليها رفقة بلمعانها.

لم أتخيل أنني سأجد شارعًا أكثر جمالًا منه، كان ظلي يمشي راقصًا أمامنا وعينه مبلقة بالفاترينات، شارع يعج بالمقاهي الجميلة، وأعمدة الضوء المنخفضة بثلاثة مصابيح حلبيية اللون تتوسط الشارع، وعلى كل جانب بضعة منها.

الفنانون العازفون بآلات متعددة حسب هوى العازف ينالون الفوز بنظرات السواح، فنان يعزف السكسيفون، وامرأة على الغيتار متمائلة طربًا وكأنها في عالم آخر، عالم صوفي متوحد في شيء بذاكرتها أو روحها.

التفّ حولها لفيف من زوار الشارع يرقصون طربًا، كانت تضع أمامها كما العازف الآخر قبعة يضع المعجبون بها ما تجود به لحظات انسجامهم، هممت لأضع عشرين دولارًا فوجدت داخل القبعة ورقة صغيرة مكتوب عليها بالإنجليزية، لأجل المصابين بالسرطان.

فعلاً، طعم الشهد في أن تكون إنسانًا.

انتشر رسامو الكاريكتير وبائعو الزهور والوشامون، وحول كلّ منهم معجبه، فجأة سمعت صوتًا: (يا حبيب يا حبيب) من مكبر

صوت قرب أحد المطاعم العربية، فدخلنا لنستمتع بالأرجيلة ورائحة الكباب المشوي والأكلات العربية الأخرى؛ دخلت مسرعاً، كي أسمع صوتاً عربياً أعرف من خلاله ذاتي.

كانت المساند والأرائك الكبيرة والكراسي باللون الأحمر الزاهي، والإنارة بمصابيح مدورة كبير متدلية على الصالة، باللون صفراء وزرقاء أخذت موقعها في السقف، المساند بلون الحليب المعشق بالورود الحمر والبيض، لوحات وأقواس على الحائط من اللون الفيروزي، مما أعطى رونقاً خاصاً يشد الناظر إليه. ، المرايا المؤطرة بأطر شرقية في مساحات متناسقة على الحائط.

مديرة مطعم (بيت الكباب) كان اسمها "أنا بولوشيفا"، دائمة الابتسام في وجه الزبائن، إضافة لجمالها الأخاذ وقوامها الممشوق، قالت وهي تدنو مني متعمدة الإثارة: إنهم يقدمون الأكل الشرقي والروسي.

بعد وجبة الكباب الدسمة، احتسينا الشاي مع قطع من الحلوى المطعمة بالكريمة والعسل والدارسين.

كان المطعم مزدحمًا لدرجة أننا انتظرنا أكثر من نصف ساعة بالطابور حتى جاء دورنا، وأخبرتنا مديرة المطعم أن على بعد قليل من الشارع توجد أجواء عربية وشرقية ومطاعم أخرى.

قرب المطعم كشك لبيع تذاكر المناطق السياحية، الأوبرا، المتاحف، الرحلات الداخلية والمدن القريبة، تعرفت على زائر روسي يتحدث الإنجليزية؛ فسهل علي أمر الحجز لتذكرة الدخول لمتحف الدولة (تريتياكوف) أحد أهم المتاحف الفنية في العالم.

سعر التذكرة ثلاثمائة روبل، وعرفت أن اسم هذا الرجل الأنيق "لوكا".

اتفقنا أن نلتقي قرب الباب الرئيسي للمتحف يوم غد الساعة العاشرة صباحًا. لكننا سعدنا ببعضنا فوجدت الرجل سخي العطاء في الود والعشرة، وتساءلنا حول هواياتنا وعملنا وعلاقاتنا الأسرية، ونحن نمشي حتى أدركنا الليل، وتعب "سيفاكس"، وصلنا متأخرين، فوجدنا العجوز نائمة، دخلنا بهدوء كُلّ إلى غرفته.

كتبت رسالة لصديقي "فيصل"؛ أستفسر عنهم جميعاً، فإذا به يخبرني بمرض العم "سعود" وهو راقد في المشفى، وحسب قول الأطباء لا يملك غير شهر من وقته في الحياة.

لم أستطع الاستمرار في الكتابة، كان القهر أكبر مني ومن قهري ذاته، كُلّ ما كتبتّه له: لي هاتف، وملابس وساعة لم أستعملها، بعها واصرف منها على العم، وإن احتجت أكثر بع التلفزيون، أجنبي:

- لا تقلق، قمت بالواجب، والولدان أدخلتهما المدرسة بعد استخراج الجنسيّتين، طبعاً دفعت مبلغاً محترماً، وكل واحد يرسلني لآخر، وكل آخر يريد ثمنًا بسبب السرعة وصعوبة استخراج بدل ضائع. أحدهم زجر في وجهي:

- هو البلد كله ضاع، وأنت تسأل عن جنسية زعاطيط!

راسلت السيد "مالك" على مضض، كي أطمئنه أنني سأكون بقدر المسؤولية المناطة إليّ. كُلّ النيران أضرمت أصابعها في داخلي، يا ويلي يا عم "سعود" أتغمض عيناك ولا تراني قريبك؟ أعدت

الاتصال "بفصل" طالبًا منه إذا ذهب غدًا لزيارة العم "سعود"
يتصل بي لأسمع صوته.

تمنيت أن أكون أبله "ديستوفسكي" لو تصرفت بأي حركة ألم
بلهاء لما ظنوا بي أية ظنون.

كان السرير جائعًا لألمي، هزني زمهريره وهددني ثلجه، لا أدري
كيف ومتى غفوت، لكني صحت على صوت "غالينا" تدعوني
للإفطار.

صحا ظلي وأخذ الهاتف النقال، بفضول طالع صورة "قاسم"،
وبصوت إشاراته العابثة أفهمني: رافقتك منذ صغرك لكن لم أتوقع
أنك بهذا الجمال! ما شاء الله عليك.

نهزته، وأخذت الهاتف من يده، فتذكرت أن أتصل بالطبيب
"دانييل" لأعرض عليه "سيفاكس". يبدو أن "سيفاكس" صحا قبل
الجميع فكان صوت "البالالاكا" صااحًا بنغم مفرح ليس كما
سمعته سابقًا منه، أصر على زيارة الطبيب اليوم قبل الذهاب لأي
مكان.

هنيئًا لك "غالينا" لم تأكلي مصارين السمك، ولم تعيشي في الوهم
كما أعيشه أنا، والمرتجى تغييره من. "همام، وجواهر" وتمتمتُ: لا
تياأسا.

تذكرت أنني اشتريت "جميلة" هاتفًا نقالًا، ولأترك لها رسالة:
- غاليتي "جميلة" لا تجعلي الفجر يهرب منك، هذي الطفلين
وافتحى أعينهما، هما أمانتكِ كوني لهما، وستكون لكم بغداد سائرًا
وسترًا.



عِناقٌ وظِلٌّ

لم تكن بي رغبة للأكل، شربت الشاي على مضض، كان مرًا لاذعًا بفمي، رغم أنني وضعت ملعقتين كبيرتين من السكر. كتبت رسالة إلى صديقي الطبيب فيما إذا من الممكن زيارته اليوم، رحب بي فرحًا: أنتظرُك الساعة التاسعة مساءً، قلت له لكن معي ضيف أظنه مريضًا وبحاجة إليك، لكن لي رجاءً ألاّ تعامله كأنه المريض، بل إنها زيارة صداقة كي لا أخرجهُ، وأنا أريد إنقاذه مما هو عليه.

نظر إليّ ظلي حزينًا على غير عادته، خفت من هذه النظرة، ولم يتمكن من تصويره في التهام خبز "غالينا" المعجون بالجبن والزيتون، حتى لم تعنه رائحة الشاي، انعكس وجومه عليّ، ومن خلالي انعكس على "غالينا وسيفاكس"، واستغربا تصرفي كونهما يريان ذلك الوجوم كأنه مني، سرعان ما لجأ "سيفاكس" إلى آلة "البالالايكاً"؛ فكان نغم آلتِه حزينًا كأنه عاش لحظتنا.

أدركت الأمر، ومن حسن الحظ طرأت في بالي فكرة أخذ "غالينا" معنا في رحلة اليوم، فعرضت عليها ذلك، تطايرت فرحاً، وبرقت في وجنتيها السعادة، قالت:

- سأرتدي ملابس، وأرافقكم.

حتى هي أكلت بعجالة الفرح، دقائق مرّت، وإذا بها تخرج في أبهى زينة تليق بعمرها، تنورة كحلي وبلوزة صوفية كحلي، تحتها قميص أحمر، وعلى رأسها قبعة حمراء من الصوف، تحسباً لبرودة الجو.

أشاهدها كلما خرجنا تضع في جيب "سيفاكس" عملة ورقية لا أعرف قيمتها، لكن هذا اليوم شاهدت عدد الأوراق أكثر إضافة إلى عملة معدنية (صرافة يعني).

سلطنا طريق المترو، فقد عشقت المترو الروسي لما فيه من جمال وكأننا نسير في متحف ضوئي، أنا أعشق الأضواء، وكتبت الكثير عنها.

تقدمت لشراء التذاكر، فأشارت هي لابنها بطريقة أمرة ليسبقني، وفعلاً سبقني، واشترى ثلاث تذاكر، هكذا عرفت أنها كريمة جليلة،

الحديث معها أغلبه بالإشارات، وجعلتني أحفظ بعض الكلمات الروسية، ولو أنني أفضل الحديث بالإنجليزية ليفهمني المقابل.

موسكو (أو ماسكفا باللغة الروسية)، أكبر مدن روسيا تقع على نهر (موسكفا)، المتصل بنهر (فولغا) عبر قناة موسكو وسط روسيا، أحببتها لتاريخها وجمالها المعماري، وحيي لشعرائها وكُتّابها، وفلسفة ثورتهم. إذ كتبنا عنها بالصحف أيام الحرية الصحفية وانطلاق المد الشيوعي في العراق.

متحف (تريتياكوف) المتحف الوطني الروسي للفنون التشكيلية، أحد أهم المتاحف في العالم، يقع في شارع (لافروشينسكي) وسط موسكو. ، ما أن وصلنا حتى شاهدنا العدد الكثير من السواح من كلّ الجنسيات، البناء لم يكن شاهقاً، وكان امتداده عرضياً، بتدرج اللون الطوبي والأبيض والأسود، وأبوابه على شكل أقواس معمارية، معي تذكرتان اشتريتهما البارحة، فسألت "لوكا" عن شراء تذكرة قرب المتحف.

الروس يحترمون الوقت والوعد، كان "لوكا" ينتظرنا قرب المتحف، حاملاً بيده كيساً، فتح الكيس واستخرج منه بعضاً من

العكك: هذا من صنع زوجتي، أرسلته لكما خاصة حين عرفت أن صديقي الجديد من العراق، فقد زارت بغداد مع أبيها سابقاً وأحببتها كما أحببت شعبها الكريم والمضياف، وعليه دعتمكم اليوم لتناول وجبة الغداء في دارنا.

- لماذا لم تأتِ معك، ونتغدى في أي مطعم؟ ربما هي أخذت إجازة من عملها؟

- لا يا صديقي، نحن متقاعدان عن العمل، وهي أصرت على دخولكم دارنا، ثم أن شقتنا ليست بعيدة عن هنا.

يحتوي المتحف على آلاف اللوحات، ويضم لوحات لفنانين كبار مثل: "أندريه روبيلوف، ألكسندر إيفانوف، فاسيلي سوريكوف"، وغيرهم الكثير، وقد أسسه التاجر الروسي "بافيل ترينياكوف" جامع التحف واللوحات الروسية.

وفيه الكثير من الفن القديم والمعاصر، يحتوي قاعات كثيرة بحيث لم يسعفنا الوقت للطواف فيها كلها، خاصة أن العجوز "غالينا" معنا، على الرغم من جلوسها على المصاطب أحياناً، لكن رحمة بها كنا نبطئ في التجوال، وصديقنا "لوكا" يشرح لنا بعض

الأمر، علمًا أنها باللغتين الروسية والإنجليزية. تصميم المتحف من الداخل عبارة عن تحفة فنية، اعتمدت على الأقواس خاصة قاعة النحت، وعلى الجانبين صفّت المنحوتات وكأننا نمشي في طريق من الجمال الخلاق، زخرفة الأعمدة من الأعلى واشتباكها من الأقواس في السقف أعطى المنظر أبهة ملوكية، في قاعات الرسم تعددت أحجام اللوحات منها كبيرة إلى حد أنني فكرت في كيفية حملها، وأية مسامير وحمالات استوعبت هذا الحجم على الحائط! وفي صالات أخرى تعددت الأحجام بين الصغيرة والمتوسطة.

تملأ ظلي وخرج يبحث عن مقهى للاستراحة، أشار إليّ لأخذ بعض الكعك من "لوكا" فرفضت، خرج مغتاظاً متدمراً كيف احرمه من رائحة الكعك، فهو يشتم ولا يأكل، وأنا أسير خلفه أهدئه، شاهدوا إشاراتي وصوتي الخافت؛ فظن "لوكا" هو الآخر أن بي انفصام الشخصية، خاصة حين استدارت إليه "غالينا" وهزت يدها توضيحاً للوثني، أما ابنها استهجن سلوك أمه، واغتاظ منها.

طول فترة تجوالنا أتصل بصديقي "فيصل" لأنه وعدني بزيارة العم "سعود" والاتصال بي لأسمع صوته، لكن هاتفه مغلق، أوعزت ذلك لضعف الإرسال داخل قاعات مغلقة.

كنا نلاعب الوقت والوقت يشاكسنا، المعرض سرق منا كثيرًا كما سرقت أنظارنا والتهمت الكثير مما فيه. فاجأنا "لوكا" قائلاً:

- اتّصلت زوجتي تدعونا الآن للغداء، فقد أعدت كلّ شيء.

صعدنا الحافلة متوجهين إلى بيت "لوكا"، وكما قال في المحطة الثالثة نزل قرب شقته.

عمارة ذات خمسة طوابق، في المصعد لاحظت أن السيدة "غالينا" تلهث، وأشارت لابنها بطريقة غريبة عند باب الشقة في الطابق الثاني، لحقته أنا بينما هي وظلي دخلا، علمت سبب الإشارة فأعطيته مبلغًا لشراء باقة ورد كبيرة تليق بأهل الدار، كان المبلغ يكفي لعدة باقات، أخبرته أن يأتينا بأكبر باقة، وبالإشارة والتوضيح فهم القصد.

صحيح، لولا هذا التصرف الإنساني؛ ما بزغت شمس!

استقبلتنا سيدة ذات جمال خارق، لم يؤثر به الزمن إلّا قليلاً، في مدخل الدار سجاد أحمر منقوش بورود صغيرة باللون الأبيض، وفي الصالون سجادة حمراء بدون نقوش، بينما طقم الأرائك بني فاتح، بمساند خردلية اللون، الصالة مفتوحة ليس هناك باب

يفصلها عن غرفة الطعام وكذلك المطبخ، الفاصل الوحيد بين المطبخ والصالة ستارة من الخرز متعدد الألوان المنسجمة مع تفاصيل الصالة، إنما أبرز لون فيها الفيروزي، على طاولة الطعام شرشف من الدانتيل الأبيض، وزهور صناعية، على بوفيه طويل صفت أطباق الصحن، وإناء كبير به ما طاب من الفاكهة، قربه صحن زجاجي مستدير أبيض ذو حواف ذهبية، فيه حلوى لونها برتقالي، رُش الزعفران على فستق مبروش في وسط الحلوى وعلى جانبيها.

في الصالون مكتبة عامرة بالكتب، أغلبها باللغة الروسية، العجوز "غالينا" في حوار مع ربة المنزل، يبدو أنه كان شيقاً، عرفته من خلال تبادل الضحكات الهادئة والابتسامات.

من عادة الضيوف هنا التحدث بلباقة ولباقة وبصوت هادئ؛ لئلا يزعجوا أهل الدار، ومن عاداتهم أيضاً جلب هدايا للمضيف، لكن السيد "لوكا" فاجأنا بدعوته؛ ولم نستدرك الأمر إلا ونحن على باب الشقة، أثناء ما هو يشرح لي عن أسماء الكتب والروايات وكتب الفلسفة؛ دخل "سيفاكس" فارغ اليدين، وأشار لي بإصبعه (أي لا تقلق)، جلس قرب أمه، وأخذ مجلة من بضع مجلات مصفوفة

على طاولة الوسط في الصالة، وربة الدار في المطبخ تهئ
بعض الأكل.

"لوكا" يقرأ لي عناوين الكتب، وأستمع بحب، لم أعرف بأني ملم
بعض الشيء - بالثقافة الروسية إلا أثناء حديثي معه، فكلما ذكر
لي اسماً أحاوره عن محتواه، وظلي واقف خلفي متعجب ومستمع،
وكلما تحاورت مع "لوكا" ابتسم الظل، ربما فرحاً بي، سألت
"لوكا": أين نجد قبور الشعراء والأدباء الروس؟ فقد قرأت أن بعد
وفاة "بوشكين" في سن الثامنة والثلاثين بمكيدة دبرها القيصر، بعد
مبارزة مع ضابط فرنسي كان في الجيش القيصري، ولأسباب
شخصية ذاع صيتها وقتها، خاصة علاقة هذا الضابط بزوجة
"بوشكين".

استوقفتني العبارة المكتوبة على قبره (مرحى أيتها الأجيال الفتية
المقبلة)، هي من شعره ورسالة للأجيال القادمة بالتضحيات
واستمرارية الكتابة، فما أعظم هؤلاء! وقد أعجبي يا صديقي
الشاعر "مايكوفسكي" وأبهرتني قصيدة له حفظتها وأنا طالب في
المتوسطة، وما زلت أرددها (أصحاب البنوك يعرفون جيداً، عندما
يكون الإنسان غنياً دون حدود، لا يضع شيئاً في جيوبه، بل يضع

سائر الأشياء في خزنته، وفي أقصى سرعة، وأنا في خزانتي المقفلة ثلاثًا، أخبئ حبي، وعندما أكون بحاجة إليه، آخذ منه قبلة، وأحيانًا نصف قبلة، وأحيانًا أقل، وبعد ذلك أنصرف، وأنا ذاهب إلى الأبعد، في عرس منطلق جامع، أصرف "روبلات" من نقود الوجدانية).

أي فن هذا! وأي جموح أدبي وجداني في هذا الشاعر الفذ! كلنا من هذا البنك وبه نعمل، وفيه خزاننا يا سيد "لوكا".

جلسنا نتحاور حول نظرية لينين وفلسفته في مفهوم التطبيقات لقيادة الطبقة العاملة إلى السلطة، وكيفية العمل في النقابات والبرلمان، وأثناء ذلك رن جرس الباب؛ ففتح السيد "لوكا" وإذا بشخص معه الورد، باقة كبيرة والثانية متوسطة.

هرع "سيفاكس" لأخذهما، وقدم الباقة الكبيرة باسمي، والأصغر سلمها باليد لسيدة الدار "أنجيليكا". شكرانا بحب وود وخجل، ودخلا معا إلى المطبخ لوضع ما لذ وطاب من أنواع الأكل التي ملأت الطاولة، كأننا في ضيافة عربي. هكذا كانت معي أيضًا "غالينا" لم أكن مستأجرًا غرفة في دارها، بل عاملتني كأنني ابن وأخ.

بعد التحلية والشاي سألت "لوكا" عن وجهتنا غدًا، فقال ما رأيكم لو نزور القصور في القلعة؟ فهناك الكثير من القصور الملكية التي بنيت من قبل القيصر الروسي "إيفان الثالث"، أيدت زوجته الاختيار قائلة:

- أي مكان نزوره هنا بمثابة الدخول للجنة.

الإنسان هو الإنسان أينما كان، مهما تعددت الأمكنة، في جلستنا مع الشاي المضاف إليه الزعفران تحدثنا عن بعض عاداتنا سواء القديمة والحديثة فوجدت تشابهًا كثيرًا؛ فمثلاً يؤمنون بالخرافات والسحر والجن، خاصة الأجداد والآباء. عن الحسد يطرقون على الخشب (الضرب على الخشب) ما زلنا نستعملها حتى جيلنا، يشتهرون بحسن الضيافة والزيارات بينهم، العلاقات الأسرية والقربان لها حرمتها وتقاليدها.

كنت أنظر إلى ساعة الهاتف الصامت عن أية رسالة من العراق، واقترب موعدى مع الدكتور "دانييل"، استأذنا من الأسرة الكريمة، وشكرناهما جميعًا على حسن الضيافة والاستقبال، قلت لـ: "سيفاكس":

- لنوصل والدتك إلى المنزل، ونذهب معًا لزيارة صديق تعرفت عليه في الطائرة.

لم أعرف طريق الذهاب للعيادة؛ لذا طلبت سيارة أجرة وأعطيته العنوان. كان ظلي ضاحكًا بطريقة مزعجة طول الطريق، يعرف ما لا يعرفه "سيفاكس"؛ فنهرته عن الضحك، لكنه قال: لا أحد يسمعي ويراني غيرك، لماذا أنت مرتبك؟

في الليل سأخذك في جولة للعراق، أنت تقرأ فقط، لكنك لم تعش اللحظة التي سأكشف لك تفاصيلها. خفت من هذا الكلام، وتوقعت مكروهاً أصاب أسرتي في العراق، ولا أعلم بذلك.

تقع العيادة في الطابق الأرضي لبناية في أطراف شارع (فارفاركا) الذي فيه كنيسة بنفس الاسم.

كانت العيادة فارغة عدا الطبيب "دانييل" بانتظارنا، أدخلنا غرفته بسلامه الحار وابتسامة تعلو ومحياه، سألني عن تجوالي في موسكو، وهل أنا مرتاح الآن أو أحتاج مساعدة، فقلت له معي السيد "سيفاكس" وهو صديق حميم، فهم قصدي ووجه حديثه إليه، وبطريقته الحذقة قال له:

- تعرف سيد "سيفاكس"؛ كان لي أب تعلقت به كثيرًا، وكان يعزف على آلة (البالاايكا)،

وعلمني عليها.

كان الطبيب متقنًا كُلّ المعلومات التي أرسلتها إليه، استبشر "سيفاكس" شيئًا فشيئًا كسب ود الطبيب، وراحا يتحدثان لمدة نصف ساعة عن العزف، واللجوء للموسيقى يجعل الحياة لوحة ملونة، ومن بوح الآلة تتفتق البراعم؛ علينا انتهاز هذه الفرصة والعيش مع الموسيقى.

ونحن في عودتنا إلى دار "سيفاكس"؛ كتب الطبيب رسالة لي مفادها أن "سيفاكس" ليس مريضًا نفسيًا، إنما يشعر بالفقدان الكبير والانكسار بسبب وفاة والده إذ كان قريبًا منه؛ يحتاج مَنْ يعوضه عن الأب. ولا يحتاج أي علاج نفسي أو عقاقير.

وأنا مستلق على الفراش، وجدت فرصة الاختلاء بنفسي، وحاورت تلك الذات المشردة الآن: هل تستمتع بفسحة، أم تضيف إليها بعدًا جماليًا؟ وهل حقًا أن الموسيقى الرابط الإنساني بين الشعوب؟

نعم هذا ما وجدته خلال تجوالي، لا يهم اللغة، فقط استمع واطلق لروحك العنان؛ سيصلك كل شيء.

وكذلك الفنان حين يرسم لوحته؛ لم يطرأ على باله أن هناك لغة عازلة بين الرائي ولوحته، الإبداع هو المدينة الفاضلة، وضوء يحرك قلوبنا وأرواحنا لنقف على أرض صلبة، ونقرأ ونشاهد ما يصلنا من ضوء، الإبداع هو اليد التي أخذت بيدي أثناء تجوالي، حتى أنني نسيت التحاور مع ظلي، لولا يد لكزنتي من كتفي:

- أنا هنا أقرأ ما تكتب، لست بعيداً عن كل تفاصيلك. أنا شمस्क التي تتغلل بالأمكنة.

وقف أمامي مشيراً بإصبع كأنه يواجهني:

-أنا مهم الآن، وأستمع، أعارضك فيما ترى وتعتقد، حبيس في ذاتك أنت! عش أيامك؛ وإلا سيعذبك الإنسان فيك، وتشقى حتى تموت، لا يذكرك أحد.

كنت غاضباً وقلقاً على أسرتي والعم "سعود" وعدم رد صديقي "فيصل" عل رسائلي الهاتفية، القلق يدمر لحظة استمتاعي بالجمال والهبة الربانية للإنسان. فنهرت ظلي:

- بل أنا الأهم، لولاي لما صرت أنت، أنت ظل لي وستبقى، ثم أنت لا تمثل طباعي وما أحب، حتى ضجرت من تصرفاتك، لا تشبهني في مواقف كثيرة، ومن حسن الحظ لا أحد يراك غيري.

أنا المجنون ومنفصم الشخصية بسببك.

تمدد قربي على السرير، طوقني، ثم عانقني:

- لا يمكن أن أزعجك، أو أهينك، الفرق بيني وبينك أنك متحفظ، تحسب حسابًا للآخرين، وأنا منطلق لا يراني أحد، ولا أحتسب لحركة وأتردد، الفرق بيننا الحرية، حتى في بلد الحرية، أنت مقيد، استمتع يا صديقي، وعش، الحياة مجرد لحظة؛ سيدركنا الوقت، ويسرقها منا على حين غرة.

- ما شاء الله؛ ظلي اليوم حكيم ومرشد!

أثناء عناقنا وتوحدنا مع بعض؛ وصلتني رسالة اعتذار من صديقي "قيصل" يعتذر عن التأخير في الرد، وذكر أنه أخذ الأسرة لنزهة في بغداد.

كُتبت له: كن حذرًا في إخفاء "جميلة"؛ الأعداء يتربصون لها، فأجابني: لا تقلق، تصرف بحكمة، ألبستها حجابًا ونقابًا.

سألته عن صحة العم "سعود"، أمسكني ظلي من يدي وأنا وأكتب:

- هي أيام يا صديقي، وتوقع خبر فقدان قريبًا. الكلّ منشغل الآن بالانتخابات لا يتابعون "جميلة" وما ستؤول إليه النتائج.

خرجت باكراً أتسوق اللحم، والخضار والفاكهة وبعض الحلويات، وباقة ورد للسيدة "غالينا"، وضعتها على طاولة الطعام:

- سيدتي؛ اليوم الضيافة لأصدقائنا في دارك، وقدمت لها باقة الورد، تذكرت أنني اشتريت من أحد المتاجر هنا خاتماً أهديه لـ "جميلة" حال عودتي، لكن خجلت من كرم السيدة "غالينا" وحبها الأمومي؛ فقدمته لها، كادت الفرحة لا تسعها، قبّلت رأسي واحتضنتني، أما "سيفاكس" فراح يعزف، ويعزف، ويعزف، وخصلات شعره تتطاير من جنونه الإبداعي، كأنها راقصة على خشبة مسرح.

كان اتفاقنا أن نلتقي في القلعة، ومن هناك نحدد أي قصر سنزوره، وأية كاتدرائية.

التقينا "لوكا" وزوجته أنجليكا" في الساحة، تبادلنا التحايا النابعة من القلب، والابتسامات، ظلي الملعون ينتظر كيس "أنجيليكا" المعبأ بالكعك، عينه على حقيبة يدها الكبيرة نوعاً ما، ليشتم الرائحة، ونحن في الطريق راح يشرح لنا "لوكا" عن (الكرملين، والقلعة)، أسعدني أن معنا الآن دليلاً سياحياً مخلصاً وصديقاً، ونتعانق روحاً وثقافة وإبداعاً:

- يقع الكرملين على تلة ارتفاعها حوالى خمسة وعشرين متراً، قريبة من ضفاف النهر، والكرملين كلمة روسية تعنى القلعة أو الحصن، وهو قريب من كاتدرائية "القديس باسيل" وحديقة "ألكسندر"، وبه ملعب للتزلج على الجليد. وهو عبارة عن مجموعة قصور أنشئت على مساحة واسعة، يحيطها سور مرتفع ويقدر طوله بحوالى -الميلين، قد تم بناء هذه القلعة في عام ألف ومائة وستة وخمسين، ثم بعد ذلك تحول إلى مقر للفرسان وكبار رجال الدولة، وتم استدعاء مهندسين من روسيا وإيطاليا ليعملوا على توسيع مساحة القلعة، وقد صمموا المبنى ليشمل على فن المعمار الروسي والإيطالي، وتم إنشاء الكنيسة لتكون الكنيسة الرئيسية للمدينة.

هي مثل مدينة داخل قلعة محصنة، وبها القصور الكثيرة
والحدائق:

- كم مدة إجازتك سيد "مناضل"؟

- تقريبا أسبوعين، فأمامي زيارات أخرى، أعرف أن في موسكو
وحدها علي البقاء شهور حتى أستوعب الجمال فيها والأماكن
السياحية، فما بالي ببقية مدنها! أتمنى أن يسعفني العمر وأزورها
ثانية.

فتحت السيدة "إنجيليكا" الحقيبة واستخرجت حلوى بالفاكهة وقدمت
لنا: قبل الدخول لأحد القصور علينا التزود بالكعك، ستسرقنا
القصور من وقتنا؛ لنترؤد.

سنؤجل اليوم زيارة القصر الكبير، لأن اليوم يبدأ مهرجان
"سباسكايا" الدولي العسكري. تبقى الموسيقى الوصل الجميل بين
الشعوب، وإن كانت موسيقى وعروض عسكرية.

عجت الساحة بالحضور من أنحاء روسيا والزوار من الدول
المشاركة، كان المنظر مهيباً، آلاف من المشاهدين والمشاركين
بعروضهم المثيرة التي تقدمها الفرق العسكرية المشاركة من دول

مختلفة على مستوى العالم، وأخبرني "لوكا" أنه حين قرر المجيء إلى القلعة كان يريد لها مفاجأة لي، لكنه الآن يخبرني أن مهرجان برج (سباسكايا) من أهم الفعاليات الثقافية في حياة العاصمة الروسية، والذي يتضمن مسيرة فرق الأوركسترا العسكرية في موكب احتفالي نحو الساحة الحمراء، مصاحبة بألحان وموسيقى وعروض الرقص والفرق الموسيقية الشعبية، وسط أجواء حماسية امتزجت فيها المعزوفات والمقامات الموسيقية الشرقية والغربية مع الألوان الجميلة للساحة الحمراء، والتي تضم بين جنباتها العديد من المباني ذات الطابع التاريخي العريق مثل كاتدرائية القديس "فاسيل" ذات القباب البصلية الشكل بألوانها الزاهية، والمركز التجاري الأسطوري، تتطلق عشرة عروض مسائية تضم بعضاً من أفضل الفرق العسكرية والفرق الفنية الروسية والأجنبية مدعومة برسم الخرائط ثلاثية الأبعاد والعروض المسرحية القومية والألعاب النارية الرائعة في الميدان الأحمر؛ لإسعاد سكان موسكو وضيوف العاصمة.

وأنا أشاهد مبهوراً، و"لوكا" يوضح لي:

- على مدى ثلاثة عشر عامًا استقبل مهرجان "برج سباسكايا" أكثر من مائة وستين مجموعة فنية من أربع وخمسن دولة، وأصبح أحد أكبر الأحداث الدولية في الحياة الثقافية الروسية والعالمية، وحصل على مكانة في أن يكون من بين أفضل ثلاثة أماكن من هذا القبيل. كما وصل عدد حضور جمهور العروض الليلية لمهرجان "برج سباسكايا" وحده أكثر من تسعين ألف شخص، وحضر أكثر من خمس مائة ألف من سكان موسكو وضيوف العاصمة الأحداث التي نفذتها مديرية مهرجان برج (سباسكايا)، وبالتالي بلغ إجمالي تغطية الجمهور للحملة الإعلامية والبث عبر الإنترنت والتلفزيون أكثر من خمسمائة وخمسين مليون شخص في جميع أنحاء العالم.

كلّ عام يكرس مهرجان برج (سباسكايا) الكثير من اهتمامه للأعمال الخيرية، وتحصل الفئات الضعيفة اجتماعيًا من الناس على أكثر من خمسة آلاف تذكرة مجانية، فضلًا عن المؤسسات التعليمية في موسكو ومنطقة موسكو وأجزاء أخرى من روسيا.

ويمثل مهرجان الموسيقى العسكرية في برج "سباسكايا" أحد أهم الملتقيات الثقافية والموسيقية على الساحة العالمية، وتمتاز من

خلاله ثقافات الشعوب من مختلف قارات العالم لعرض مقتطفات من التراث الثقافي والفني، وتقديم رسالة محبة وتسامح وسلام بين الشعوب.

كم كنت سعيدًا بعرض تقشعر له الأبدان، حتى الذين حضروا أضافوا ألوانًا أخرى بملابسهم الزاهية الأنيقة، بتماهى العرضين معًا. كانت عروض عسكرية مشاة، وبعضهم على الدراجات، وأبواق وطبول، وألعاب نارية تسعد الأنظار بالأخص الأطفال. ، تمنيت لو أن الطفلين "جواهر وهمام" معنا، لماذا لا يحتفي عراقنا بمثل هذه المهرجانات؟ يا إلهي كيف وحدث الموسيقى الآن القلوب والدول. شاشات كبيرة تعرض المهرجان عن بعد، ورقصات واستعراضات متعددة من المشاركين.

كنت مشبعًا بالموسيقى، و"سيفاكس" طربًا فرحًا، كأنه فرخ خرج تَوًّا من البيضة، وكذلك ظلي، كان فاغرًا فمه، لا يشير ولا يتحرك، لاحظني أنظر إليه؛ فحرك يديه بطريقة مبهمة لا يعرف ماذا يقول، فقط فرد ذراعيه.

بقينا حتى أكل الجوع أمعاءنا، لم ندر كم فانتنا من الوقت ولم يتطلع أي منا إلى ساعته. حتى ظلي الملعون بدا شخصاً مختلفاً.

كان الزوجان ينيوان الرجوع إلى دارهما، فأخبرتاهما أنهما مدعوان عندي وقد أخبرت "غالينا" بذلك، هي أكيد تنتظرنا، رأيت "لوكا" وزوجته قلقين، يتهامسان بتوتر، لم أشأ إزعاجهما، وكنت متعباً؛ لذلك خرجنا بعيداً عن الاحتفال، وطلبنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى شقة "غالينا".

تأخرنا عليها فقد انتظرتنا كثيراً لأننا وصلنا الساعة الخامسة والنصف، فرأينا المائدة معدة والصحون مرتبة في أماكنها، أمام كل كرسي صحن كبير بوسطه آخر خاص للحساء، كما وجدنا نزيلين جديدين رأيناها يتحدثان مع "غالينا" في الصالة، فرحبنا بهما، وقدمتهما لنا "غالينا": السيد "ألبرت وزوجته فاسيلي"، قدامان من (سانت بطرسبرغ).

صافحناهما جميعاً حتى ظلي حين شم عطر الزوجة الشابة ذات الجمال الأخاذ التصق بها، فشعرت بها ضجرة من شيء لا تعرفه، نظرت إليه شزراً فابتعد هامساً:

- ألا يغريك جمالها؟ كأنها عارضة أزياء صح؟.

دخلت السيدة "غالينا" المطبخ، فدخلت معها أساعدها، كانت القدور مليئة بما لذ وطاب والروائح الشهية يسيل لها اللعاب، جلسنا جميعاً، قدمت لنا حساء العدس مع الخضار، وأكلة (ستروجانوف) اللحم المطبوخ بالكريمة مع الأرز، وبجانبه سلطة "أوليفر" المكونة من البازلاء وشرائح البطاطا والبيض المسلوق مخلوطة بالمايونيز، على جانب الطاولة سلة الخبز، وعصائر متنوعة، وعلى البوفيه الجانبية صحن خاصة بالحلويات، والإثناء الزجاجي الجميل مملوء بشتى أنواع الفاكهة، وحلويات "غالينا" المحشوة بالكريمة والمعمولة بالعسل.

لا يتحدث الروس على المائدة عالياً، ولا يتكلمون والأكل في أفواههم، لكن راح يشرح لنا "لوكا" عن أهمية مدينة (سانت بطرسبرغ) على أنها ثاني مدن روسيا بعد (موسكو). وعُرفت على مدار التاريخ منذ تأسيسها بأسماء مختلفة، مثل "بیتروغراد، ولينينغراد" ويبلغ عدد سكانها حوالي خمسة ملايين نسمة، ويذهب الزوار لرؤية فن العمارة وخاصة المباني التاريخية الممتدة على طول نهر "نيفا"، وقنواته، وروافده المتدفقة في المدينة، كما تعدّ

الغابات الصنوبرية، والكتبان الرملية، والشواطئ من تضاريس هذه المدينة.

سألتني السيدة "فاسيلي" عن سبب قدومي هنا، ومن أي بلد؛ فأخبرتها أنني صحفي، وحضرت إلى موسكو لأعمل تحقيقاً عن معالمها، قادماً من العراق، فأضاف "لوكا" على كلامي: وهو عازف وفنان من الدرجة الأولى، على آلة العود.

قلت له بعد الغداء سيكون شأن آخر لتجوالنا، لكن هل أنتما هنا لسبب سياحي؟

ثم واصل حديثه: قدمنا من أجل المهرجان، نعم نعم، قال "سيفاكس" لقد كنا هناك وسيبقى لمدة أسبوع، أجابت الزوجة لدينا وقت إذا أحببتكم أن نتجول كلنا؛ قلت على الراح والسعة.

نظر لي السيد "ألبرت" نظرة احترام: أنت إذا من بلد النفط والحرب.

قلت: -وهذه الكارثة، النفط هو سبب كلّ بلاء العراق وعيون والطامعين به وبثروته من الداخل الخارج.

لكن في سري أقول، كُلّ هذا وما زال هناك مَنْ يسكن دور
الصفيح، وأطفال تنام في الشوارع. ولو استثمروا السياحة، واستغلوا
جمال الأهوار لصارت فينيسيا عراقية، إضافة إلى الآثار، ولما
أكلت عجوز مصارين السمك.

واضح أن الزوجين مثقفين، فبعد الانتهاء من الغداء والحلويات
اشتركنا بأحاديث معرفية وثقافية، قلت غداً نود الذهاب إلى
(كاتدرائية المسيح المخلص) إذا سمح السيد "لوكا" و"مدامه"
الموقرة، قالوا: بكل سرور، وإذا الضيفان يعجبهما توجهنا أهلاً
بهما.

لا تخلو جلسات من السياسة يبدو حتى هنا إذ بادر "لوكا" متحدثاً
عن إعجابه بنظرية وفلسفة "ماركس"، وقد عدل من جلسته حتى
بدا كأنه خطيباً:

- تمثل فلسفة "ماركس" احتجاجاً ضد اغتراب الإنسان، ضياعه
عن نفسه وتحوله إلى شيء، وفلسفة ماركس احتجاج، احتجاج
متشرب بالإيمان في الإنسان وقدرته على تحرير ذاته وتحقيق
طاقاته. إلا أن هذا الإيمان أصبح اليوم نادراً إلى حد بعيد في

الفكر الغربي. إنهم لا يؤمنون بقدرات الإنسان والأمل في قابليته
لأن يصير ما هو كامن فيه، ستبقى فلسفة "ماركس" مصدراً لرؤية
وأمل جديدين.

لم أشأ مشاركته سياسياً، وما آل إليه التطبيق الخاطئ في العراق
وفي البلدان العربية الأخرى، فأنا متخم بالهم الوطني لبلادي؛
وتذكرت أشعاراً حفظتها من أيام الكلية، كنت معجباً بالشعراء
الروس، وحماستنا وقتها بالروح الثورية.

أزهرَ التفاح كالعريشة

وتهادى للنهر الضباب

للشاطئ تقافرت "كاتيوشا"

وهو عالٍ ملتوٍ ينساب

أقبلت تُردّد الأغاني

عن ألوانٍ نسرّها البرّي

عن محبوبها الذي تصون

كلّ ما يخطُّ في الصدر.

نعم إنها قصيدة "كانيوشا" للشاعر "ميخائيل إيساكوفسكي" التي باتت الأغنية الأولى على كُلِّ الشفاه باعتبارها قصيدة وأغنية الأنصار الفدائيين، وقد انتقلت بموسيقاها إلى مختلف أنحاء العالم.

نهضت وجلبتُ آلة (البالالاিকা)، ورحت أعزف بنغمي الخاص، وأصابعي تعيدني إلى القصائد الثورية الحماسية أيام الشباب؛ فطربنا، قلت: الموسيقى إله، هذا إيماني بها، نعم إله يجمع تحت سقفه كُلَّ البشر، حتى النبات والحيوان يطربان لها، بعض النباتات تزهر وتزداد خضرتها حين نضع قريبا الموسيقى. المبدعون يرون الحبيبة وطنهم لذلك حين يغيبون سابقاً في حرب يتعلقون بالنضال بكل قوة دفاعاً عن الوطن والحبيبة، الآن صار الحب مبتذلاً، في الهاتف النقال، والأسماء المستعارة أساءت لملائكة الحب وجلالة الحب المقدس.

أخذ "سيفاكس" الآلة من يدي، وأول مرة أرى هذا الخجول المتردد يتحدث بهذه الثقة قائلاً:

- أعطني هذا المطر، السماء الآلة المطر، هو عالمي كوني في كل مكان وزمان، حين يهطل هنا، هناك تتفتح الزهور في ثمة مكان كما هنا. وراح يعزف واقفاً وأمه تترجم لي كلامه، والكل يصفق معه وبهدوء، فقد انتقلت عدوى كلامه عن المطر إلينا جميعاً، وأمطرت أرواحنا طرباً، وهذا الملعون واقف خلف السيدة "فاسيلي"، ولا أستطيع نهره وأعطيه أية إشارة ليترك مكانه.

لعنة الله على ظلي، اتخذ هذا المكان؛ يعرف ما سيكون موقفي لو غمرت له أو حركت إصبعي منذراً أو أي شيء أقوم به؛ سيقال أنني أتحرش بالسيدة، هو يضحك متشفياً بي، فتارة يعيد شم عطرها وأخري يشم شعرها.

سهرة من أمتع السهرات وأعذبها، كنت متعباً، لكنني انتظرت النزليين يغادران أولاً وضيئينا. حمدت ربي لاستئذانهما؛ فاستأذنت أنا الآخر، بينما "سيفاس" أخذ الآلة معه إلى غرفته واستمر يعزف بصوت هادئ، كان الحزن كله يمطر من أنامله، لا أدري ربما يفرغ ما في روحه، أو يشعر بالفقدان، خاصة تولعه بي بعد وفاة والده!

لم يطاوعني النوم رغم كُلِّ محاولاتي وأنا أسمع الحزن يقطر مطراً
آخر على آلة (البالالايكا).

تسللت خفية، وطرقت الباب عليه، ما إن فتحه حتى رمى الآلة
عل السرير واحتضنني

باكياً بصوت مخنوق، ينتحب كأنه يريد استرجاع عمره الذي فات،
أو يفكر كيف سأتركه، وقد شعر بأنني صديق مثل أب.

لا أدري لماذا بكيت معه، تركنا لدموعنا كُلَّ الحرية حتى اغتسلنا
بماء الحنين، وضحكنا بعد عناق طويل.

جلست قربه: سَأبقى صديقك وأباك حتى لو سافرت، ولو عندي
الإمكانية المادية لأخذتك معي، فأنا أرغب بعد موسكو الذهاب
لباريس، وسأختار ربما أي دولة أفريقية، ثم نحن الآن في زمن
التكنولوجيا، الهاتف النقال واللابتوب، وسنفتح كاميرا نعزف
لبعضنا كُلَّ ليلة

ومعنا أمانا "غالينا" وسنرقص. فاعتبرني أخلص صديق، وأحن
أب، أنا لي أسرة تبنيها في العراق، تبني؛ أخوين ولدًا وبنت، من

بيوت الصفيح هما يتيمان عاشا في شقتي، وكل يوم أتواصل
معهما. ما رأيك لو نحدثهما الآن؟

فرح "سيفاكس" خاصة أننا شارفنا على السابعة صباحًا، فكتبت
"جميلة" رسالة أن تفتح معي الكاميرا سأهاتفها.

في أول رنة هاتف؛ ردت بسرعة يبدو هي الأخرى جافاها النوم،
كانت شاحبة الوجه، ترتدي قميص نوم زهري. طلبت منها أن
توقظ الولدين؛ اشتقت إليهما، وأريد أن يتعرفا على صديقي
"سيفاكس".

دخلا يفركان عيونهما؛ فطارا فرحًا بي وبصديقي، تحدثا معه وهو
لا يفهم ما يقولان. أخبرني بالإشارة إن الفتاة جميلة جدًا، قلت له:

- سأزوجك عراقية، وضحكنا، إنما لم أر شروق ابتسامة على
وجه "جميلة"؛ فسألت الولدين فيما إذا كانا فعلاً في رحلة لبغداد
قبل يومين، تلعثما في الرد، استجوبتهما بطريقة مختلفة، عرفت أن
"جميلة" حذرتهما من شيء. الطفلة "جواهر" بحلقت بأخيها، قلت
لها الجوهرة لا تكذب؛ فبكت:

- لم نكن في نزهة، طلبنا العم "سعود" لنزروه كان متعباً جداً،
وحين وصلنا وجدناه في غيبوبة تامة، لم نر ابتسامته كعادته في
كُلّ الزيارات، جلسنا قربه حتى نهاية الفترة المحددة للزيارة، وعدنا.

كانت "جميلة" محرجة مني، بكت بصوت عالٍ؛ ففقت بتخفيف
الصوت حتى لا نوقظ "غالينا" ونعمل ضجة، سألتها ماذا حصل؟
فأوضحت أن الطبيب، أخبرها هي أيام، ويفارقنا العم، أيام يا
سندنا الغائب عنا، وأغلقت الهاتف.

أعدت الاتصال، لم يجبني أحد، حتى صديقي "فيصل" لم يرد،
يبدو أن هاتفه مغلق، فهو بحضن زوجته الأولى.

كيف سيكون اصطباري وأنا أنتظر خبر الموت القريب! شبح
الموت يطوف حولنا أينما اتّجهنا، اهتز بدني كما ريح استقرت
بين أضلعي، قبل لحظات كنت أعيش الفرح مع الأطفال، وعلى
صوت "جميلة" أهملت جراحي واتقدت معها، كيف أنثر الضوء
أمامها وأنا الهارب! حين لا أجدها سعيدة تنتشظى الأمانى
ونضيع. ليس موضوع العم "سعود" فقط، هناك شيء آخر تسلل
إليّ لم تفصح عنه هي.

أطفأت المصباح لعل النوم يرفق بي، لم يرافقتني غير ظلي القلق
مثلي، كثيرًا ما رأيته شارد الذهن، وعندما أسأله يتهرب من
الإجابة. كيف أجعل نزهة يوم غد عامرة بالجمال والبهجة، وفي
داخلي يعيش الحزن والقلق؟!

اللحظات العائرة ترافقتني حتى في موسكو. فتحت النافذة لأستشق
الهواء، فقد ضاق صدري بشكل مخيف. تساقطت بعض قطرات
من المطر الخفيف وقذفته الريح صوبي وعلى وجهي.

لعل الريح قصدت ذلك، أحيانًا الطبيعة تدرك ما بنا دون أن نعي
أهمية وجودها في حياتنا، أو الله يرسل إلينا إشارات منه.

ما زال ارتعاش أنفاس "جميلة" على صدري يقظًا منذ آخر ليلة
كنتها في العراق. أو قد يرسل الله لنا رسالة عبر مخلوقاته
المتعددة، وأين؟ لماذا حكمته جعلت كُـلّ المخلوقات على الأرض
تنتظر هباته؟

فقد كررت الرجاء فيه آلاف المرات، حتى استحت كُـلّ الأمانى
الخائبة من الرجاء.

لم أشعر بشهية للطعام، وجومي لفت انتباه الجميع على مائدة الإفطار؛ فأوحيت لهم أن هذه الحالات تتتابني كلما اقترب مني شيطان الإبداع، ضحكوا جميعاً على كلمة شيطان، وقال السيد "ألبرت" وزوجته "فاسيلي"، وجاء السؤال منهما بوقت واحد مصحوباً بضحكة عالية:

- الشيطان معنا على الإفطار اليوم، ههههه، لنصب له الشاي.
قلت لا تستغربوا، نعم نحن - المبدعين - ترافقنا شياطين متعددة، خاصة حين تكون اهتماماتنا متعددة، أفصح لكم، وقد تستغربون:
- إن ظلي يرافقني، ها هو اتخذ له كرسيًا بجوار السيدة "فاسيلي".
خافت رغم أنها تقول في داخلها هذه مزحة صباحية، نظرت خلفها فلم تجد أثرًا:

- سيد "مناضل"؛ ما بك اليوم؟
قالت السيدة "غالينا": -هو ليس "مناضل"، اسمه "قاسم" لكن ابنها استدرك: اسمه "مناضل" الآن، قال لي ذلك، غير اسمه حين جاء هنا.

"فاسيلي": تناضل ماذا؟ ومن أجل ماذا؟

احترت كيف أرد عليها؟ وأي اسم سيكون أناي؟ وهل أنا حقيقي الآن، أم سأضيف لأسمائي اسماً آخر؟ لست صحفياً مزيفاً، أو مستتراً بأسماء مستعارة لتمير أجندات لسادة تغدق علي، أو ميليشيات تثريني وتثري عائلتي، ما أنا إلا مناضل من أجل الكلمة الحقيقة الصادقة، حين كنت هناك غيبوا اسمي الأول، ورفضوني من عملي بسببه، وبسبب قلبي الهادف، الآن اسمي "مناضل"، ومن يدري ربما سأخرج من موسكو باسم "شيخوف" مثلاً، ترى، هل شيخوف مراسل لمجلة عراقية؟ يستمتع بثقافات العالم وتاريخها وأبنيتها ومتاحفها وآثارها العظيمة، ويتحسر على بلده؟

بقيت حائراً، وهما ينتظران الجواب؛ فأصيبا بعدوى الصمت، وواصلتا تناول إفطارهما.

لجأ "سيفاكس" إلى آلهة ليلطف الجو، رفعت رأسي إليه مبتسماً ابتسامة صفراء، والنقمت قطعة كعك بالمربي والزبدة.

جلس قبالي دون الآخرين، موجهاً نظراته إلى عيني اللتين سرقهما مني قبل سرقة قلبي. الموسيقى تسلب روحي فعلاً، كما أرواح الآخرين الآن، هذه لغتها، وأرواحنا وأفئدتنا مستقرها.

أخذت الآلة من يده، وعزفت أنا الآخر، بي حاجة ماسة إليها طالما لا أستطيع البوح عن ألمي. لم أدر بأنني ذرفت دموع قلبي على (البالالايك) إلا حين فتحت عيني ووجدت دموع الآخرين تعانقت مع بعضها، كنت أعزف مغمض العينين.

حالما انتهينا؛ استأذن الزوجان للخروج، فجولتهما ستكون في الاحتفالات، بينما نحن قررنا يوم أمس أن ننتظر بعضنا قرب (كاتدرائية المسيح المخلص).

عادة نأخذ المترو، ولو أنا أحب التنقل بالحافلات، لأنني أحب رؤية معالم البلد بكل تفاصيلها حتى المشاة، وتنوع ملابسهم وحركاتهم، لكن حين نكون بالمترو أسرع، ويوصلنا قرب المكان. أحتاج التجوال وحدي، أنا وظلي، وحدي معه ووحدته معي، وسأنتقل بالحافلة مؤكدًا وقتما لا يربطني موعد مع أحد.

تجاوزنا الوقت المحدد للقاء بعشر دقائق، فوجدنا "لوكا وأنجيليكا" ينتظران، قرب (كاتدرائية المسيح المخلص) الروس دقيقون في مواعيدهم، أو لأنهم يعرفون أوقات الحافلات والمترو أكثر مني ومن "سيفاكس"؛ لذا وصلا قبلنا، شكراني على سهرة الباردة

والجلسة الرائعة التي احتوت الثقافة والموسيقى والأكل اللذيذ، والود السحري والأحاديث الحميمة.

قرأت في كتاب الدليل السياحي أنها تقع على الضفة الشمالية لنهر (موسكفا)، وعلى بعد مئات من الأمتار من الكرملين، فيسهل الوصول إليها بالمواصلات.

وهي أطول كنيسة مسيحية أرثوذكسية في العالم، لذا كنت في غاية الشوق لرؤيتها.

يا لجمال قبابها الذهبية والحجر الأبيض المذهل، فقد أعطاهما التذهيب هيبة راقية، تحيط الأعمدة بأضوائها الشارع الطويل المسوّر المؤدي إليها، على جاني الشارع أيضًا سور فني عبارة عن أقواس سوداء اللون مرتبطة ببعضها بشكل فني غاية في الجمال محاطة بأعمدة الضوء المتباعدة، بلاط الشارع من المرمر، قبة كبيرة عالية محاطة بعدة قباب مذهبة أصغر منها، في أعلاها كلها نُصب الصليب.

البناء الخارجي من الأعمدة، والأقواس تنتهي كلها بالتذهيب، وفي الداخل أعجبنى تصميم الأقواس والأعمدة والسقوف المعشقة

بالذهبي والفضي، الأيقونات المنقوشة بالأبيض والفضي والذهبي، إضافة للثريات الكبيرة المتدلّية من كلّ مكان، بالإضافة للرسومات العالمية لأكبر الرسامين أمثال "مايكل أنجلو، ودافينشي" وصور المسيح، وصور للنبي داوود، وأمام كلّ أيقونة مكان للشموع، ومراقد رخامية للقديسين، أما الصور التي تملأ المكان كأنها في معرض، كُتِبَ عليها اسم الفنان وتاريخ اللوحة. . قاعات متعددة وأهمها قاعة للبطريارك وقادة الكنيسة الكهنة، كذلك مسرح كبير يسع ألف زائر للمناسبات الدينية والمناسبات الأخرى، لا يدخل إليها إلّا بدعوات خاصة حفاظاً على المكان وهيبته.

فيها منصات للمراقبة بين الأجراس؛ لرؤية المناظر الساحرة والأبنية المتعددة، ولأن السيد "لوكا" اشترى مسبقاً التذاكر، وحجز لنا مكاناً للتجوال والاستمتاع؛ لم يخبرني أن تكلفة التذكرة خمسمائة روبل، كم هو كريم صديقي المتفضل علي بالشرح والتوضيح عن أي معلم نقصده، ففكرت بكيفية الرد على كرمه بطريقتي الخاصة، قلت ماذا لو سألته عن هواياته، وماذا يفضل، وماذا يحب؟ ساعتها أثنى الهدية التي يستحقها.

استغرقت رحلتنا في الكنيسة أكثر من ساعتين ونصف الساعة، ما
زلنا أقوىاء للمواصلة، فاقترحت أن نستريح لنصف ساعة،
ونواصل. كانت بي رغبة الهروب مما أنا فيه؛ فطلبت من "لوكا"
الذهاب بعد الغداء إلى (برج الأجراس لإيفان الأكبر). . السيدة
"إنجيليكا" فضلت العودة إلى الدار كونها شعرت بالإرهاق، بعد
الجولة الطويلة، بقينا نحن الثلاثة على فكرة التواصل بعد تناول
وجبة خفيفة. عني شخصيًا لا أحب ملء معدتي؛ قلت للجميع
وجبة خفيفة أفضل لاستمرارية الحركة.

رجعت "إنجيليكا" إلى دارها، بينما نحن الثلاثة باتّجاه (برج
الأجراس، لإيفان الأكبر). لم تغب عني "أم علي"، وعيني "جميلة"
فيهما الكلام والكلام الكثير، فيهما سيوف وخناجر ولغة جديدة.
كيف تغمض عينا عروس بهذا الحزن العميق. سرت إلى جانب
"لوكا" صامتًا، لولا ينبهني ظلي إلى أنه سيصعد إلى أعلى البرج
لو وصلنا، وحذرنى من الصعود لأعلى القمة، فهو يعلم أنني
مصاب بفوبيا المرتفعات.

برج عال مصبوغ باللون الأبيض بقبة ذهبية عليا، حول القبة من
الأسفل ثلاثة أقواس دائرية مكتوب عليها باللغة الروسية، تنتهي

بنوافذ، ثم تنتهي النوافذ بقوس دائري مصمم على شكل مثلثات، وتستمر هذه التوليفة حتى أسفل البرج، بجانبه أبراج منخفضة، بنفس الطراز. يتميز من الداخل بروعة تصاميمه، كما يحتوي المبنى على العديد من القطع الفنية والأثرية القديمة النادرة، يستطيع الزائر التعرف على تاريخ المدينة، ويحيط هذا المبنى الكثير من الأماكن السياحية الأثرية، وكذلك الفنادق الضخمة.

يتكون من الداخل من ثلاثة طوابق متألّفة من طبقات مثنات الزوايا، وفي كلّ طبقة مثناة الزوايا شرفة ورواق مفتوح تنصب فيها الأجراس، عدد الأجراس في البرج واحد وعشرون جرسًا، يزن أكبرها سبعين طنًا، يبلغ سمك حيطان الطابق الأول خمسة أمتار، والطابق الثاني متران ونصف المتر، داخل البرج سلم حجري متكون من ثلاث وثمانين درجة، والسلم في الطابق الثاني يتحول إلى سلم حلزوني متكون من مائة وتسع وأربعين درجة، في الطابق الثالث سلم حديدي متكون من سبع وتسعين درجة. لم أتراجع عن الاستمرار، بي قوة حصان لأنفث زفراتي المتعبة، وعليّ الوصول إلى القمة، سأدعو الله أن يريني حلمًا، أن يسمع صوتي في الأعلى، أن يهني صيحة مدوية لأقرأ ما في عينيّ "جميلة".

توقفنا، نأخذ نفساً عميقاً وطفنا في باحة الأدرج الضيقة؛ لسرقة راحة مخادعة منها، كي نستمر، كنا نطل من النوافذ على الخارج، لم أتوقع أنني صعدت ثلاثمائة وتسعاً وعشرين درجة، وأني وصلت إلى ارتفاع واحد وثمانين مترًا؛ كاد يقتلني الدوار، وشعرت بميل للتقيؤ.

قال ظلي: ألم أحذرك؟

- يا رفيقي المشاكس، أحيانًا المرء يستغني عن جسده، لا يشعر به وقتما تطفح روحه بالألم كموج تدفّق بالمأساة.

لم أجده يستريح، وفقدته أثناء صعودنا، كما لم أجده يلهث وهو على القمة ينتظرنا، وقف مرتاحًا يشاهد موسكو وضواحيها. نصف ساعة كانت كافية لاستعادة قوتي وبأسي، وبدأنا بالنزول.

أثناء ذلك سألت "لوكا" فيما إذا لديه رغبة السهر معنا الليلة، لكنه اعتذر كونه متعبًا من صعود البرج، سلمنا على بعضنا ورجع كُلّ منا إلى وجهته. تذكرت أنني لم أسأله عن جولتنا القادمة، لكن تراجع، سأكتب له رسالة في الهاتف، كلما دخلت معلمًا تحسرت كثيرًا على وطني.

فضلت لجولتنا القادمة زيارة المكتبة العامة.

وجدنا "غالينا" تنتظرنا، فرحة كون ابنها خرج من عزلته:

- أعددت لكم اليوم غداءً طيباً، أكلت حين وجدتكما تأخرتما.
رفعت غطاء الإناء، وإذا به ملفوف محشو، وكعادتها تزين
الأطباق بالطماطم والخضار.

على الرغم من عدم شعوري بالجوع، أكلت طبقين ولم أدر ماذا
أكلت، استأذنت من الجميع ودخلت غرفتي؛ لعلني أجد أسرتي، بي
إحساس يرعد بداخلي، لا أظن هناك كلمات ستسعه، ربما أكون
واهماً، لكن قلب الحر دليله. بقيت واهماً والانكسارات تتلاحق في
حياتي. أنا ابن أجمل البلدان وأغناها؛ لكن لا كلمة نزرعها ولا
شجرة حب! أريد أغنية ترقص أنغامها بين أناملي، وأزن أوتاري
عليها.

لا يتسلل الرضا إلى روحي وعيناك حائرتان يا "جميلة" لا تضيعي
أرجوك، شُكِّي بكل الأشياء حولك، قفي على راحتَيّ زمنك؛
واصطلبي، أو تصالبي حتى نقرأ فاتحتنا المرتجاة.



شِيطْنَةُ الظِّلِّ

لم أشأ الدخول مع أسرتي ليلة البارحة، خوفاً من توقع أي خبر مؤلم ومؤسف، كنت بين الشد الجذب، بين أن أكتب ولا أكتب، وبين أن أطيع خوفي وتوجسي، أو الواجب الذي يحتم علي رؤيتهم كلّ يوم، أقنعت نفسي أن الوقت متأخر الآن.

أشعر كأنني واقف على أرض رخوة، يغلبني ما حولي ولا أغلبه، والسؤال ذاته يحيرني؛ متى وأين وكيف ستكون؟

الظل يعرف ما بي وما حل بأهلي، لكنه يسلك أسلوب الشيطنة معي، هل يحبني إلى هذه الدرجة فيتردد بإخباري خوفاً علي، أم لعب وشيطنة منه؟

كعاداتها "غالينا" تصحو قبل الجميع، أعدت مائدة الإفطار بما طاب من الأجبان والخبز المحلى والخبز المعجون بالجوز وبعض البذور، البيض المقلي والمسلوق، والمربى بتنوعاته.

غادرتني الشهية منذ أيام، وتحديدًا آخر لقاء بالهاتف مع "جميلة".
من وقتها استقر القلق في صدري، وصرت محط تساؤل ربة البيت
وابنها، حتى صديقي "لوكا".

على السرعة وجدتها تعد بعض الشطائر لأخذها معنا تحسبًا
للجوع. الأم تبقى كما هي لا تختلف بزمان ومكان، ترانا الأبناء
الصغار حتى في كبرنا، وكأننا ذاهبون في رحلة صحراوية، تعي
جيدًا أن في كل مكان توجد المطاعم وأكشاك الأكل السريع بكل
أنواعه.

شاهدت "سيفاكس" يمسك الآلة بيده قائلاً: سأعزف في الساحة
اليوم.

قلت له: وجهتنا اليوم إلى المكتبة الوطنية.

- نعم أعلم، قالها بالروسية فترجمت لي السيدة "فاسيلي" قائلة:

- يقول لك أعلم ذلك.

فرحت كثيرًا ربما سأعزف معه أيضًا، بعد الانتهاء من المكتبة،
نأخذ لنا ركنا للعزف.

"لوكا وزوجته أنجيليكا" ينتظران بابتسامتهما الجميلة، فعلاً القلب مرآة الروح تعكس صفاء القلب على الملامح وابتسامة العيون.

عادة قبل الدخول إلى أي مبنى يشرح لي "لوكا" تفاصيل عن المكان كي أستمتع بأدق الأمور فيما أراه لأكتب عنها، شاركني هذا الرجل الراقى في شرحه وقدرته على توضيح التفاصيل التي تتم عن ثقافة عالية.

قبل أن نضع أقدامنا على أولى عتبات المبنى وأنا أنظر للتمثال لأسأل عنه، والكتابة بالروسية في مقدمة البناء على أعلى الأعمدة نظر إليّ:

- هل تعلم أن المكتبة الوطنية الروسية، هي أكبر مكتبة في البلاد؟ ورابع أكبر مكتبة في العالم لمجموعتها من الكتب، وكان اسمها مكتبة (ولاية الاتحاد السوفيتي) منذ عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين حتى تم تغيير اسمها في عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين بوصفها (المكتبة الوطنية الروسية).

قلت: نعم، وأعرف أيضاً أن في المكتبة كمٍ من الرفوف مع أكثر من ثلاثٍ وأربعين مليون قطعة، بما في ذلك أكثر من سبعة عشر

مليون كتاب، ومجلات والقطع الموسيقية، وعقود إلزامية لوضع نسخة من كل منشور صدر في روسيا.

تأسست المكتبة الوطنية الروسية في الأول من يوليو في عام ألف وثمانمائة واثنين وستين، وكانت أول مكتبة عامة حرة في موسكو.

- وكيف حفظت كل هذه الأرقام؟

- نعم قرأت ذلك في كتاب الدليل السياحي، وكذلك قرأت عن المكتبة القديمة، وكيف تأسست، ومن مؤسسيها، وأسماء الأدباء الكبار الذين كانوا يترددون عليها مثل "تشيخوف، دوستويفسكي، مندليف"، وغيرهم الكثير ممن قرأت له من الأدب العالمي، مثل (الجريمة والعقاب، الأبله، الأخوة كارامازوف)، والكثير الكثير عن الشعراء الروس.

يتكون المبنى من عدة مبان متصلة مع بعضها على امتداد هذه المساحة الشاسعة.

نرى الآن مدارج متعددة لمساحة واسعة للمكتبة الحديثة، التي يتقدمها النصب التذكاري "ل دوستويفسكي".

يحتوي هذا المبنى على ثلاث وعشرين قاعة للمطالعة، والقاعة محاطة بأسوار من الخشب الغامق وطاولات من الخشب تستوعب العشرات، ربما المئة من الحضور، وتتخلل الممر شتلات زراعية. تعلو السقف ثريات بسيطة وتماثيل على الحائط، وأسفل الأعمدة الخارجية للقاعة مغلف بنفس الخشب.

استرحنا قليلاً على مدارج المتحف الخارجية، أُنرنا حكاية، خطوات تبحث عن شيء ما لم تدركه بعد!

مسكون ببغداد أنا، يا لظى سكري بك وباسمك، أي عظمة الشأن بغداد!

بعد هذه الجولة عرجنا إلى رؤية (قصر الكرملين) من الداخل الذي يقع على نهر (موسكفا)، كنت أراه سابقاً من الخارج ويبدو كأنه بثلاثة طوابق، لكنه من طابقين، ومنيت نفسي بدخوله، في الداخل حظيت بمعرفة التفاصيل أكثر وبدقة. سماه الروس بقصر الكرملين، إذ كان ملكاً للقيصر، قصر القلعة محاط بجدار ضخم طويل قريب الميل والنصف، يضم عدة قصور في الداخل، وفيه كاتدرائية بقباب ذهبية.

عند المدخل مدفع وناقوس القيصر ويعتبر أكبر سلاح في العالم، يزن هذا المدفع العملاق تسعة وثلاثين طنًا وضعت أسفله أربع قذائف، في مدخل البوابة الرئيسة المذهبة حتى مقابض الباب الذي يقف عنده حارسان، يسمحان للزائر التجوال في القصر، نجد أقواسًا وأعمدة وأيقونات من الذهب والنوافذ الزجاجية، ثرية كبيرة على يسار المدخل وتتدلى من السقف إلى الأسفل، الأرضية من المرمر المنقوش على شكل سجاد تعددت ألوانه، بين الأحمر والأخضر وعلى الحواف، يحيطها على امتداد الطول من الجهتين حافتان بلون أخضر، سقف المدخل على شكل قبة مزخرفة بأبهى الألوان تتخللها لوحات صغيرة ومؤطره باللون الذهبي.

مدخل آخر طويل لقاعة من أعمدة ذهبية منارة بالأنوار من الداخل، والسقف أقواس بألوان ونقوش حتى تنتهي الأقواس عند بوابة كبيرة، أما الأرضية فمن المرمر المزخرف بإطار أسود يتناسب مع خطوط النقوش بالداخل.

سجادة حمراء طويلة تقودنا إلى الدرج الكبير للصعود إلى القاعات الأخرى، مكون من أربع وسبعين درجة يصعد بها الملك ليصل قاعة التتويج. خمسون قاعة احتفال، كُلُّ لها اسمها.

القصر مقر رئيس الدولة الآن لإقامة الاحتفالات الملكية واستقبال الضيوف، فمثلاً قاعة القديس "جورجيوس" هي للولائم واجتماعات الدولة الرسمية وتوزيع الأوسمة، فعلى الجدران شاهدنا نقوش بالذهبي لأسماء العسكريين الذين وهبوا وسام القديس والقلادة الذهبية. ربما تصل مساحة هذه القاعة إلى ألف متر، هكذا خمنت.

قاعة "سانت جورج" من أكبر قاعات الاحتفال في القصر، الجدران الجميلة وطريقة تقوسها تبدو كأنها أبواب من الجانبين، ذات اللون الحليبي بين الأبيض والبيج، أعمدة مزخرفة بنقوش وكتابات، تتوزع الشمعدانات على الحائط، إضافة للثريات الكبيرة في السقف ذات الشموع الكبيرة عل امتداد القبة كلها، لكن بارتفاعات مختلفة لتبدو أكثر جمالاً، وفيه أقواس نوافذ مزينة بستائر بلون البيج الغامق، وبين نافذة وأخرى فاصل بنائي منقوش تتوسطه دائرة منقوشة تشبه الصليب، في كل زاوية من هذه الزوايا مصاطب مخملية طويلة، والأرضية ذات المرمر المزخرف، وتحيط بها سجادة حمراء رفيعة.

قاعة القديس "أندرو" أعمدة مذهبة يتخللها امتداد ألوان فضية من جانبي القاعة، وعلى الأرض شاهدت شمعدانين فضيين يتناسبان مع الأعمدة التي تنتهي إلى قبة عالية مذهبة مطعمة باللون الفضي، أو الفضة من يدري، بدا تعاشق اللونين جميلاً للغاية.

الأرضية المرمية منقوشة على شكل سجادة رصاصية اللون بورود حمر تحيط القاعة من الجانبين، بينما الأرضية الكاملة للقاعة من المرمر المعشق باللون البيج والبني والذهبي المائل إلى البرونز.

العرش ذو الارتفاع المتوسط حوله سياج ذهبي بمدخل من ست درجات، في أعلاه تاج، ومن جانبيه تتدلى ستارة مخملية فضية منقطة بالأسود تشبه الفراء.

ثلاثة كراسي ذهبية ونقش يتوسط ظهر العرش، لون الحائط أخضر غامق، في أعلاه إطار ذهبي، وفوقه تتفرع شمس بأشعتها المصنوعة من الذهب، وهو عرش القديس "أندرو". خلال حفل التتويج يتلقى الإمبراطور والإمبراطورة التهاني. في قاعة (سانت أندرو) تتم دعوة الشخصيات من مختلف الجنسيات والأديان إلى موسكو.

مهما وصفت أو اقتربت من الألوان والتصاميم لا أصل بدقة إلى الحقيقة، لأنه عليّ تصويرها بالكاميرا، هي الأصدق لالتقاط اللحظة والمكان، حتى الكاميرا العادية تجمد زاوية أو زاويتين في عدستها.

كم عاش هنا ملوك، وعاشت أجمل الملكات بملابسهن الفاخرة ومجوهراتهن النادرة، وكم حراس وخدم وعبيد انحنوا، وكم دسائس ودموع أخفت انهمارها، وكؤوس وسكر وأعناب، وكم وكم، لكن أين هم؟ الآن ذكرى مزار لنا، ذكرى لا غير.

أنا لست مثلهم، بل متفرج عليهم، أحمل حقيبة متواضعة، ومبلغاً لا بأس به، وأنا الكاتب والمكتوب عنه.

إنني أرى مشانق، وثريات، وآلات عزف، وجواري، ورسائل، وأسئلة تجري كماء من مجرى عصيّ.

قاعة "فلاديمير"، وهي على اسم القديس "فلاديمير" مخصصة للأمير ذاته، ويسمى شعبياً "الشمس الحمراء" كجائزة للخدمة العسكرية. تضاء القاعة ذات الثماني أضلاع والمزدوجة الارتفاع بضوء علوي يمر عبر القبة، وتتكرر أقواس الأروقة الجانبية وتضاء بثريراً ضخمة.

قاعة أخرى بنفس التصميم السابق يتخللها الزجاج الفيروزي، أمام القاعة الرئيسية فهي عبارة عن تحفة فنية كلها، على شكل قبة متداخلة الأقواس ونوافذ من الزجاج الأبيض والأزرق وجدران القبة، السقف ذهبي معشق باللون الأخضر والأحمر الغامق والبرونزي مغلف بقطع ذهبية، وتنتهي بسقف القبة، وفي الأسفل تماثيل لأسود.

قاعة جلوس أصغر منها، القبة مؤطره بالأبيض، ثم أطر ذهبية، والأعمدة الجانبية من الأعلى مذهبة، ثم نقوش حمراء وأطر بيضاء في وسط الحائط والجانبين، وفي الحائط أقواس بيض تشبه النوافذ، وضعت فيها ثريات أرضية ذهبية منقوشة برسومات بتدرجات اللون الأزرق.

أما الثرية الحقيقية فكانت لها قاعدة أرضية لا تتدلى من السقف كما الأخريات، وتتداخل بها الألوان بين الأزرق والذهبي والأبيض، انتهاءً بالمصابيح على شكل شموع، قريبا طاولة مستديرة والكراسي ذات المخمل الأصفر، والخشب المذهب، أما الأرضية من الخشب المعشق بالألوان البراقة لدرجة توقعته من المرمر، هي من عشرين نوع من الأخشاب.

في القصر مقتنيات أثرية عمرها مئات السنين مصنوعة من الذهب الخالص والأحجار الكريمة النادرة، وكذلك صور نادرة ومجسمات وتحف وقطع منزلية نادرة أيضاً.

الملابس النسائية والرجالية والبذل العسكرية، المجوهرات. أبهرني التاج الامبراطوري المرصع بالألماس والأحجار الكريمة الباهظة الثمن، قيل أن قيمتها مئتان وخمسون مليون دولار.

مقابل هذه الأثمان الباهظة؛ طهارة في مطابخ القصر، وعمال نظافة وغسالات، يرضعن أولادهم ويغسلن، ومنظفون لمواسير المياه، وسباكون وصباغون.

صندوق الماس الروسي، خزانة الرموز الملكية، تبقى هذه النفائس معروضة للجمهور، ففي التاج الملكي وحده خمسة آلاف ماسة، وخمس وسبعون لؤلؤة، مشابك الرأس المرصعة بالياقوت، الصولجان بماسته الكبيرة في مقبضه، ماسة كبيرة بأسورة هدية للإمبراطور فيها صورته، ماسة كبيرة محاطة بالزمرد مكونة من مئة وستة وثلاثين قيراط، خواتم من الياقوت الأزرق، الزبرجد، حجر مذهل وردي اللون على شكل عنقود عنب تعلوه ورقة خضراء.

الحقيقة صعب إحصاء كُلّ ما رأيته هناك؛ سواء من التحف والمجوهرات، أو من القاعات والقباب وزهبتها ونقوشها، لوحات الملوك، أو القديسين التي تتحف القاعات بجمالها وأسماء الفنانين الكبار. أجاهد هنا للمقارنة بين مراقبنا وتحريم الصور، وبين ثروات الملوك ملك الشعب، ونتفرج عليه في متحف للزوار.

صالة أخرى بقبة كبيرة، وبها عرش كبير أبيض مرصع باللون الفضي والبرونزي، يتخلل القبة والأقواس تدرج اللون الأزرق الفاتح والمائل إلى الرصاصي، جانب للاستراحة باللون الأخضر الهادئ، وعليها شبك ذهبي رفيع، ونقشت القبة والأعمدة بالورود.

طاولة تتوسط المكان، أريكة طويلة من الخشب والمخمل الأزرق المطفي، ومن الجانبين تلمع الكراسي ذات القماش المخملي الأزرق.

في القاعة الأساسية التي تتم بها الاحتفالات يكون الحضور فيها مقتصر على الرجال، لكن هناك في الأعلى نافذة مخصصة للإمبراطورة تجلس فيها للسمع والاطلاع على كُلّ المجريات.

قاعة استضافة المؤتمرات؛ قبة كبيرة بيضاء بأعمدة من الرخام الأبيض تنتهي في الأعلى بأطر ذهبية وشمعدانات فوق الأعمدة، يتوسط كلّ عمود زجاج أزرق، إضافة لذلك ثريا أرضية كبيرة وثرية تنزل من القبة، وطاولة بيضاء طويلة والكراسي بيض مذهب الأطراف، يجلس ضيوف الإمبراطور كلهم بجانب والأسرة الملكية بجانب واحد، في ركن من الصالة طاولة صغيرة دائرية وكرسيين، للاستراحة الطارئة.

هناك عشرون برجاً بعضها يقود إلى أماكن سرية كانت زنازين للسجناء، إضافة لمكتبة ضخمة جداً، وصالة تحتوي على العديد من الكؤوس الذهبية، وفي القصر ثمانمائة غرفة.

كيف لمكان كان غابة من الصنوبر يتحول إلى كلّ هذا المعمار، لو لم يكن بجهد وجوع الكثير من أبناء الشعب!

في الخارج يوجد قبر الجندي المجهول، تشتعل في وسطه شعلة من النار ترمز إلى مجد الدولة الروسية، وبجواره جندي واقف كلّ الوقت، توقعنا أنه تمثال لكنه جندي حقيقي لا يتحرك، حتى يأخذ الدور منه جندي آخر.

بهرني القصر من الداخل، ولم أستطع الخروج منه، خاصة القاعة التي تركتها للوصول إلى الباب الرئيسي، المسافة والمرمر الأرضي، السجاد المنقوش بالزهور الوردية والحمراء، الأعمدة من الرخام الفيروزي تنتهي بقاعدة بيضاء بزخارف ذهبية، والثريات تتدلى من السقف على امتداد القاعة من الجانبين، بين كل عمودين مرآيا عكست شكل العمود الفيروزي، كأنها تدري أنني أعشق هذا اللون، وهم يعشقون الذهب والفضة؛ لذلك ضجّت قاعاتهم بهما، والمتحف الذي يضم رموزا للسلطة، وصورا للمعارك وعروش القياصرة.

أما الحديقة المذهلة فهي لوحدها عالم جميل من كل أنواع الزهور، علمنا أن فيها مقاصل للإعدام لم ندخلها.

كلّ الملوك في قصورهم بوابات سرية للخروج منها هرباً من أي طارئ، ولقصر (الكرملين) بوابة سرية من الخلف للهرب، وأيضاً لترحيل السجناء من القصر لسجن آخر.

خرجنا بحصيلة معرفية وجمالية عن القاعات بأسماء ملوكها، والكنائس والمسرح والمتحف والأجراس والأبراج.

كم أعجبتني المقولة الروسية حول قصر (الكرملين) تركز على اعتداد الروس بهذا المكان.

(لا شيء أعلى من موسكو سوى الكرملين، ولا شيء أعلى منه سوى السماء).

حين خرجنا أصر "سيفاكس" أن يعزف، لم يتعبه التجوال في القصر، وقفت قربه، والصديق "لوكا" ينشد شعراً باللغة الروسية، أخبرني أنه شعر حب، كتبه ذات مرة، لكنه لم ينشره في أية مجلة، مجرد هواية. تجمهر حولنا السواح من جنسيات متعددة وراحوا يصفقون، وبعض الشباب رقصوا على الأنغام، وقد جمعت شملنا الموسيقى. لم نسأل عن هوياتنا، أدياننا قومياتنا وبلداننا.

الروس رددوا مع "لوكا"، إنما أنا وأمثالي لغتنا النغم، النغم، أبحرنا به كلنا.

قلت لـ"لوكا": كيف نحجز تذاكر لأوبرا أو باليه؟

رد علي كعادته كلما سألته عن تذاكر: الأمر في غاية السهولة، لا عليك صديقي.

- أين يقع مسجد المسلمين في موسكو؟

ضحك "لوكا": من الباليه للمسجد يا صديقي؟!

- أريد رؤية أغلب الأشياء على الأقل لفترة وجودي في موسكو.

- سنأخذك إليه، متى شئت. وبرج (أوستانكا) أيضاً لو رغبت.

- أنا أحب الذهاب إلى المسرح بالمترو، لأنه تحفة فنية كأنها إحدى قاعات القصر، بزخرفتها وثيرياتها وقبابها.

- هل ترغبون باختيار مطعم معين؟ لكم خيار المكان صديقي "لوكا".

رغبت أن يختار أحسن وأرقى المطاعم، فلو ذكرت أن الدعوة على حسابي سيختار الرجوع للبيت، أو أية مطاعم قريبة.

اخترنا مطعم "الدكتور جيفاغو" على بعد مبنى واحد فقط من الكرملين، يحمل اسم رواية الحب الرومانسي للأديب الروسي "باسترناك"، اخترنا طاولة قريبة من النافذة؛ لأستمتع بالمناظر الجميلة. المطعم عبارة عن قاعة بيضاء ثلجية مزينة بلوحات لأبرز الفنانين مثل: "ماليفيتش، بيتروف، فودكين، روبي ستار"،

وغيرهم، واللمسة السوفيتية واضحة خاصة اللون الأحمر، الطاولات بيضاء والكراسي حمراء، والشمعدانات على كُلّ طاولة، تعدد المرايا على الحائط، وكانت الأقداح حمراء اللون والمناديل. كان يصب الشاي بأقداح زجاجية مؤطره بإطار فضي من إبريق فضي، وعلى البوفيهات الورد الأحمر واللوحات على الجدران، وثرىا حمراء تتدلى من السقف، على جانب من المطعم بوفيه عليه تمثال لفنان قائد أوركسترا ربما وعازف، غناء واستقبال المضيفات بالابتسامة والترديد مع صوت الغناء.

بحثت عن أكلة روسية؛ فاخترت "بيف ستروغانوف"، وقرأت طريقة طبخه، هو من الأطباق الشعبية في روسيا، تقلى فيه شرائح اللحم في صلصلة الزبدة والكريمة الحامضة، والبصل والخردل، وطلبت الأرز معه، قلت له ممكن سكب هذه الخلطة على الأرز، وتركت للباقيين حرية اختياراتهم.

بعدها أعجبت بطبق الحلوى، الآيس كريم مع الفاكهة المتنوعة والكريمة.

وهم يشربون الشاي، سألت عن الحمام، لكنني ذهبت للمحاسب ودفعت مبلغ العشاء.

رأيت ظلي موجوعاً؛ فاستأذنت من السيد "لوكا" وزوجته مؤكداً على موعدنا السادسة مساء قرب دار الأوبرا، وعدنا بسيارة أجرة، وجدنا "غالينا" بانتظارنا، لكنها كانت غافية وهي جالسة على الأريكة، والأكل على الطاولة مغطى بأغطية الأواني ذات اللون الفضي بنقوش حمراء.

لم تستيقظ، استغربت الأمر، وناديتها باسمها، لم تصح، قال "سيفاكس" يبدو أنها أكلت أكلة دسمة جعلتها تغط في نوم عميق، اقترب منها، حرك كتفها ثلاث مرات، لم تصح، أقلقنا هذه الحالة؛ فاتصل "سيفاكس" بالمشفى لإحضار الإسعاف.

الفرق كبير بين المشافي الحكومية بالعراق وموسكو، بأقل من عشر دقائق رن جرس الباب، بحضور الإسعاف، ودخل طبيب ومعه ممرضة، سألوا "سيفاكس" عن حالتها الصحية، وهو يهز رأسه مؤكداً عدم إصاباتها سابقاً بأي عارض صحي، ربما سأل عن إصاباتها بالضغط العالي أو السكر والكولسترول والقلب، كل حركات "سيفاكس" تنبئ عن صحة بدنها، لكن الطبيب طلب فحوصات دقيقة مشيراً إلى احتمال جلطة خفيفة بالمخ.

ذهبنا معاً في الإسعاف، وظلي معنا يمسك رأسها بيده تارة وأخرى يضعها على قلبها، أما "سيفاكس" فكان يلهث قلقاً، ورأيت الضياع يرتسم في عينيه، أكيد كان يفكر، ماذا سيعمل لو ماتت أمه، ومن سيكون قريبه، بالنسبة لي فعلاً خشيت عليه، فأنا بالكاد أخرجته من عزلته.

دعوت ربي الرفق به وبها، بدأت الدعاء له؛ فالحياة لا قيمة لها بدون أم، خاصة هي كبيرة وعلى مشارف القبر، رأت ما رأت من الحياة، حلوها ومرها، أما هذا الشاب لم ير من حياته شيئاً.

أدخلونا ردهة خاصة بالنساء، وأدخلوها في غرفة مزدوجة، لم يوافقوا على إدخالنا معها، أبقونا في صالة الانتظار، بقينا لأكثر من أربع ساعات ننتظر، وهي بين أيديهم، كان تشخيص الطبيب في محله مرت بجلطة دماغية خفيفة، لكن مع الدواء استفاقت وقالوا تعالوا غداً؛ لنتركها تترتاح في عناية الأطباء والممرضات.

طلب "سيفاكس" رؤيتها لخمس دقائق، سمحوا له، طمأنني إنها بخير، أوصتني بالسلام قائلة: لا تقلقوا، أنا بخير.

أيها القلق، انسنا ولو ساعة، فأنت لا تتأعب، لا تنام الليالي، لا تغف، كُلّ ما تفعله تسرق النوم من أعيننا وتتسلى.

كم تمنيت لو أنك تحلم مثلنا، تحب، تمنيت وتمنيت وإذا بي ألهو بأجفاني، أفركها مثل طفل يدعكها بتوتر.

دخل علي "سيفاكس" باكياً، فتح الباب واحتضنني:

- لا أريد أن أفقد أحداً منكما، أنت وأمي!

أسرعت إلى آلة (البالالاياكا)، جلبتها، وجلست قربه عازفاً، فرأيتَه يذرف الدموع، لم أستطع تحمل ذلك، قبلته من جبينه، وأدخلته غرفته.

بتُّ ليلتها كمن يوقظ البحر ليغرق فيه، تعصره الأمواج ويختنق.

الوقت غير مناسب للاتصال بأسرتي في العراق، ولا أعرف مصير العم "سعود، وجميلة" والطفلين، خاصة هناك لغة غريبة في عيونهم. أتساءل مراراً، لماذا لم يخبرني أحد حتى "فيصل" يتجاهل الرد على رسائلي.

لغة العيون لا تكذب.

كنت أتوقع أن ظلي سينقذني، أراه يرافقني ويراقب النساء بشبق؛ بصراحة معه حق، فيهن جمال لا يقاوم!

لا أدري كم استغرقت بالنوم، صحت مسرعاً صوب غرفة "سيفاكس" حتى لم أغسل وجهي، لم أجده، وجدته تاركاً رسالة في هاتفي: أمي بخير، واتصل المشفى بي لجلبها إلى البيت. . هكذا فهمت وكأنني أقرأ رموزاً.

حمدت ربي على نعمته، فالفقدان بعد هذه العلاقة النبيلة بات صعباً عليّ، عملت إفطاراً للجميع، وجلست أشرب الشاي، أثناء ذلك دخل "سيفاكس وغالينا" نهضت وعانقته، عانقتها بقوة، وعانقتني ضاحكة:

- لن أموت، لا تخف، لن أموت؛ لأنني أحبك.

طلبت منها الراحة اليوم، وأنا سأقوم بالطهي، قلت لها: أنت ملكة اليوم، أعددت لك الإفطار، قدمته لها وهي ممددة على الأريكة.

توجهت إلى بقالة قريبة، وتبضعت ما يكفي، فلم تسعفني فكرة اختياري لنوعية الطبخ بقيت حائراً، تبضعت بعض اللحم والخضار وعدت، قلت "سيفاكس" أنت اليوم مساعد شيف، أشار فرحاً ودخلنا ننظف الخضار واللحم ونجهزه، قلت له اليوم ستأكل طبخاً عراقياً.

لم يفهمني، سمعت الساكن الجديد من بعيد يترجم له، ويحتسي شايه، ناديته إذا يرغب السهرة معنا في مسرح (البولشوي)، قال نحن حجزنا فيه أيضاً، فرحت سنكون رفقة جيدة إذاً، قلت له، لكن لا يفوتكم الغداء، ستحلو المأدبة بكم، قال حسناً، سنذهب أنا و"فاسيلي" لقضاء أمر ما ونعود قبل وقت الغداء.

العزوبية علمتني الاعتماد على النفس، وأنا أحب الدخول إلى المطبخ، أغلب أكلهم لحم بقري، وفي العراق تعودنا على لحم الغنم، اشتريت سمك نهري مكتوب عليه (برايم)، أسماكهم النهرية لا تشبه أسماكنا، لكن طالما هي نهريّة ستكون دسمة، ولها نكهة مختلفة كلياً عن أسماك البحر.

قلّيت السمك بالطحين، وعملت حشوة على الأرز من البصل والثوم والكزبرة الخضراء، والكشمش، وطهوت الأرز بالشعرية مع حساء العدس، والسلطة الخضراء، نقلت الأكل إلى الطاولة حين وصل الزوجان "ألبرت وفاسيلي"، ثم أحضر "سيفاكس" المشروبات الباردة، ووضع صحن الفاكهة على طاولة وسط الصالة.

قال "ألبرت": هل تعرف شيئاً عن مسرح (البولشوي)؟

قلت نعم، فعادتي أقرأ عن المعالم قبل زيارتها كي أَلَمَّ بكل تفصيلها.

فهو مسرح تاريخي، وتعتبر باليه "وأوبرا البلشوي" من أكبر الفرق في العالم، فيها أكثر من مئتي راقص، كان جزءاً من مسارح الإمبراطورية الروسية، ويحضره "ألكسندر الثالث وعائلته" أحياناً.

قال:- واضح أنك حافظ الدرس جيداً.

- قلت ليس كما سأكون به على أرض الواقع، هي معلومات قرأتها في كتاب بحوزتي عن عالم موسكو.

- جيد، جيد، سنرتاح قليلاً ونستعد على الخامسة، وستقدم راقصة الباليه "سفيتلانا زاخاروفا" مشروعها الجديد تحت عنوان (مودانيس) يتلاقى فيه الرقص مع الموضة عن قصة مصممة الأزياء الفرنسية "كوكو شانيل".

- نعم ومقولة "شانيل" (لا توجد نساء قبيحات، هناك نساء كسولات).

- صدقت، ستشارك الفنانة "سفيتلانا" وتقود الراقصين في رائعة "يوري بوسوخوف" باليه "غابرييل شانيل" لتحاكي في حركاتها قصة حياة "شانيل".

تم تصميم ثمانين زياً خاصاً لهذا العرض، على يد فريق استوديو شانيل تحت إشراف المديرة الابداعية لدار شانيل.

وصلنا إلى المسرح الضخم، لبنائه الطوي عدة أعمدة بيض في مقدمة المبنى نافورة دائرية وشجرتان على جانبيه، بينما في الأعلى نصب لفارس حوله أربعة أفراس، لا تخلو المباني هنا من الزخارف، المسرح كبير بكراسيه الحمر وسط قاعة تستوعب الكثير، وعلى الجانبين مدارج كثيرة بكراسيها الحمر. كان جزءاً من المسارح الإمبراطورية، بعدها صار يقدم عروضاً مختلفة، أعيد بناء المسرح، وارتفع مبناه لثلاثة طوابق عدا الطابق الأرضي، إذ احتوى على أكشاك، ومعرض كبير، وغرف التبديل، القبة دائرية الشكل مزينة بالنقوش، باللون الأزرق، تتوسطها إنارة كبيرة، ستارة المسرح بلونين من النقوش؛ البيج والأحمر، ويتعاقب اللونان وصولاً إلى القبة.

كانت اللوحة الأولى للعرض عن قصة حياة "شانيل" وحبها الأول الذي مات شاباً، ثم تلتها اللوحة الثانية وحبها لعارض الباليه الروسي العبقري في الرقص، أما اللوحة الثالثة فعرضت تحرر النساء من الثياب الطويلة والمشدات الضيقة والقبعات ذات

الريش، وألبستهن موضتها الجديدة، ألبستهن فساتين بسيطة وبنطلونات وأطقم من التنورة والجاكيت، ألغت القبعات بالإكسسوارات المناسبة مع التصاميم.

تلك الفرنسية التي عاشت الفقر والبؤس وملجأ الأيتام تصل شهرتها إلى العالم كله، ما زلت أستششق عطرها، اشتريته من المطار هدية "لجميلة" (كوكو شانيل) من حسن الحظ أنني اشتريت قنيتين؛ أهديت واحدة "لغالينا"، وبقيت الأخرى للقائي بـ"جميلة".

فنانة أعطت إبداعاً مميزاً، ورفعت اسم بلدها عالمياً، واختارت التصاميم المبسطة كي تظهر جمال المرأة الخاص الرياني، مع الاكسسوار، اعتمدت البساطة زياً، لكن الغريب حين اطلعت على صور شقتها وجدت أنها قصر من قصور الملكات، بأثاثه وثرياته وتحفه الغالية الثمن، ومكتبتها الأنيقة بفخامة الكتب حتى سريرها، لم يخل من الفخامة. لربما تعويضاً عما احتاجته وافنقذته في بداية حياتها.

صرخت أعماقي بحسرة: لماذا لا نعمل باليه عن حياة "زها حديد" التي طافت تصاميمها حول العالم؟

رأيت ظلي شارد الذهن، حاولت تلطيف الجو عليه، لم يجبني، هو بدأ يعارضني في حركاتي وآرائي، لا أدري هل يريد أن يصبح حقيقياً وليس ظلاً! وإذا فعلاً صار كما يحب؛ مَنْ سيكون ظله، وكيف سيتعايشان (ظل لظل)؟

وأنا، هل ستبقى حركاتي مثل الصدى، أعيش مع صدى إذا!

زفرائي، تحسراتي، آمالي، كتاباتي، كلها صدى!

كتبت رسالة للصديق "لوكا"، وأعرفه سيرد بكل حرص. خاصة بعد ما سلمته مظروفاً وضعت به أجرة حضورنا حفل البالية أنا و"سيفاكس" شاكرًا له كرمه الكبير، فقد أغرقنا بفيض محبته:

- صديقي "لوكا" ما أوضاع العجر في روسيا؟ وهل هناك مهرجان للعجر في موسكو؟

- نعم مهرجانهم يقام بشهر نوفمبر، وتكون احتفالات موسيقية ورقص وإبداع للفنون العجرية، سأرسل إليك عنهم، وكنت أتمنى حضورك لهذا المهرجان المبهج الجميل.

بعد نصف ساعة وصلني بالإيميل ملف بالصور الجميلة والفيديو عن أحد هذه المهرجانات، ويبدو لهم احترامهم وكيانهم في روسيا، ولا أعتقد أن بلدًا مثلها تحجف بحق إنسان.

فوجئت فعلاً بجمال الحفل، وأخبرني أن هناك مسرحاً خاصاً للنجر، فتحت الملف المرفق، فكان حفلاً في شارع موسكو، بالملابس الزاهية ورقصات التنورة العريضة المشجرة بالأحمر والاخضر، وعلى رأس النساء ربطة، بعضهن وضعنها لزم الشعر الأسود الطويل، بمرافقة الرجال والشباب، والأطفال لهم ملابسهم البراقة، وبأيديهم الدفوف ينقرون عليها.

وكتب لي عن حياتهم الانعزالية، والمهر والزواج المبكر عندهم؛ فمثلاً زواج البنت في الثالثة عشرة والزواج في الخامسة عشر، ولا رأي للبنين بل القرار للأسرة.

وحياتهم من التعليم تقتصر على الرجل، ولمدة خمس عشرة سنة فقط، يتعلم فيها القراءة والكتابة والحساب، أما البنت فالحياة عليها صارمة، لا بُدَّ من العمل بالمنزل منذ اليوم الأول للزواج، وممنوع الرقص، ممنوع التعليم، والرجال يمتنون مهنة البناء، يجيدون قراءة الطالع والمستقبل والرقص.

رغبت الذهاب لهذا المسرح فأعدت مراسلة السيد "لوكا": أين هذا المسرح ومتى نستطيع الذهاب إليه؟

- صديقي العزيز، يكفي أنك تقرأ ما أرسلت إليك، ودعنا نمرح بين الزهور والحدائق ما رأيك؟

كتبت له: لم أحبذ فكرة الحديقة العامة، أنا أبحث عن عوالم البلد الأخرى التي تصلح لتكون عنواناً للمجلة في العراق، ورئيسي ينتظر تقريراً مفصلاً مني.

لكني استدركت الأمر حين صمت هو:

- لنترك ذلك ليوم غد، ونقرر.

أرسلت رسالة "الجميلة" كي تدخل معي وتفتح كاميرا، لم ترد، هاتفتها مباشرة، ردت بصوت متعثر، نعم سأكون معك لكن بدون كاميرا؛ وعللت ذلك كونها ترتدي قميص نوم شفاف لعلها تنتظر قدوم زوجها "فيصل" قلت لا بأس، المهم أرى الطفلين وأسمع صوتك، وأعرف ماذا قرأت لهما من كتاب ألف ليلة وليلة، هل ما زلت ترسمين معهما؟

فتحت الصوت مرحبة بي وكذلك الطفلان كانا في غاية السعادة،
وسألاني ماذا سأجلب لهما من هدايا عند رجوعي إلى العراق،
طمأنتهما، بأني سأشتري من كُلِّ بلد لعبة لهما، وكذلك "جميلة"،
هديتها وللجميع لا تقلقا.

سمعت "جواهر" تسال أخاها: هل أخبره؟
وشعرت بمن كمم فمها وأغلقه.

- ما الذي يحصل في غيابي "يا جميلة"؟ هل أنت و"فيصل" على
ما يرام؟ أرجوك أفصحي لا تتركيني بقلقي هكذا!

- لا شيء يقلق، هي أرادت ساعة، ورفض "همام" أن تسمع؛
لذلك أسكتها، لا يريد أن يتقل كاهلك.

كلمت "همام"، هل قرأ عن بساط الريح؟ وخيال الإنسان الجامح
للحلم حول الطيران والتطواف حول العالم، وكذلك عن "عباس بن
فرناس" وأجنحته الحاملة بالطيران؟

أجابني فرحاً، هو حلم، لكنه جميل وسعدت به.

أجل بني، نحن نحلم كثيراً، نبقي نحلم ويحقق أحلامنا الآخرون.
إسع من أجل حلمك، خطط لتحقيقه، لا تبق مجرد أمل فالت
الزم!

- هل يزوركم "فيصل"؟ وكيف علاقتكما معًا، كم مرة بالأسبوع يأتيتكم؟ ما صحة العم "سعود" أسئلة كثيرة، وشكوكي يا "جميلة" أكبر من السؤال.

كتبت رسالة لـ"فيصل" ولرئيس عملي السيد "مالك"، "فيصل" رد باقتضاب متعللاً بانشغالاته والمشاكل الزوجية، فقد اكتشفت زوجته الأولى زواجه من "جميلة"، لكنه ذكر ما زال الأمر قيد السيطرة، وأرفقها بضحكة طويلة.

أما رد السيد "مالك" يكون دائماً بصيغة الأمر، (حاول أن تنتهي موضوع موسكو فقد حجزت لك في باريس).

الرؤساء يأمرّون من خلال كراسيهم، لا يدرون ما نعانیه وخاصة لحظة الوداع المرّة. قريباً سأكون موزعاً بين مَنْ أحببت هنا، ومَنْ تركت هناك.

صحوت صباحاً كمن لدغه عقرب، أو نال ما ناله من ناب ثعبان، جلسنا جميعاً لتناول الإفطار، كنت شارّد الذهن، أمضغ اللقم على مهل، انتبه لي الآخرون، وتساءلوا كلهم عن الطارئ الذي جعلني أبّو هكذا. أشعر بالغياب والخراب معًا، علمًا أنني سأرحل لباريس، وكم حلمت بها، وتمنيت رؤية (مسلة حمورابي) مسلة أجدادي الأولين.

هاتفني السيد "لوكا" يستفسر عن وجهتنا السياحية اليوم، خذني الحديث في الرد عليه. بين خنقني الهذيان، اقترحت عليه أن نأكل معًا في دار "غالينا"، لكنه سألني عن سبب ذلك وشعوره أنني أمر بوعكة، فقلت له: -كلامك صحيح، وعكتي ليست صحية إنما وعكة الفراق.

أخبرت السيد "ألبرت وزوجته فاسيلي" عن موعد الوليمة التي سأكون شيف المطبخ فيها اليوم، بعد ذلك طلبت من "سيفاكس" مرافقتي إلى السوق للتبضع، ونحن في الطريق أوصيته بالعناية بأمه فهي تستحق الاهتمام لأنها امرأة عصامية، كما أكدت له على الخروج من عزلته والتسوق بدل أمه؛ فوضعها الصحي لا يتحمل الجهد، وإذا ضاق صدره يعزف.

سألني مستفسرًا عن سبب الوصية هذه بإشارته المعهودة، وأثناء الحديث وصلتني رسالة هاتفية بها صورة تذكرتي لباريس، وصورة التأشيرة؛ فسألته إذا هناك مكان للتصوير، أريد أن أسحب أوراقا وصلتني. قبل أن ندخل السوق أخذني لمكتب طباعة وسحبت التذكرة والتأشيرة.

ثم أكملنا سيرنا للسوق. لم نكن بعيدين عن دار "غالينا"، حمل
معي الأكياس ودخلنا المطبخ لتحضير اللحوم وغسل الخضار
والفاكهة.

كنت صامتًا كُلَّ الوقت، رغم تكرار "سيفاكس" لسؤاله بالإشارات،
لكن ناديت السيد "ألبرت" طالبًا منه ترجمة ما سأقوله لـ"سيفاكس":

- سيد "ألبرت" لطفًا ترجم ما أقول، غدًا سأغادر موسكو إلى
باريس، محجوز لي التذكرة والمكان ووصلتني التأشيرة، عملي
يقتضي ذلك.

كان "سيفاكس" يغسل صحنًا كبيرًا ليضع الفاكهة، ما أن سمع
الترجمة؛ وقع من يديه، دخل غرفته وأغلق عليه الباب. كما
توقعت، وهذا الذي كنت خائفًا منه.

نهضت "غالينا" من أريكتها، ورمت الملاءة جانبًا، طرقت باب
ابنها ووجهت لي اللوم:

- ماذا فعلت بابني، ماذا قلت له، رجع إلى سجنه، وأغلق الباب
عليه؟

واستمرت تطرق وتصرخ بي، وأنا الموجوع الملام، أحرصني الرد، ولم أنطق بكلمة.

سمعناه يبكي، فجاءت لي مسرعة: أخرج به أنت مثلما فعلت به! رأيت "ألبرت" يأخذها جانباً يكلمها، شرح لها الترجمة لـ"سيفاكس"، فرجعت إلى أريكتها واضعة الغطاء على رأسها، والدموع تنهمر من عينيها.

لجأت إلى (البالايكا)، لم تطاوعني أصابعي بالنقر على الأوتار، أمسكتها لفترة، ونطق النغم الحزين، نغم يشدّ الهمم، كنت قاصداً به رسالة "سيفاكس" كنت في حالة تأليف أغنية، غنيت بكلماتها تنغيماً، لحظات وخرج من غرفته مكسوراً، واحتضنني.

كان الغداء مختلفاً امتزجت به التوابل مع الدموع الحائرة بالعيون، كنت أشير لـ: "سيفاكس" بشكل غير مباشر لأعطيه الدعم القوي للتواصل، أكلم السيد "ألبرت"، وأقصد به "سيفاكس":

- سيد "ألبرت" الآن لم يكن السفر والغياب عائفاً في التواصل، يمكننا فتح الكاميرات والتحدث طويلاً، سأعزف لك ولزوجتك حين أصل للعراق بآلة العود، ونسهر معاً سهرات كأننا في غرفة

واحدة، أرجوك لا تهتم للسفر، ربما هو دعم لاستمرار محبتنا،
أليس كذلك؟

كان يرد علي بالإيجاب وعيني موجهة "لسيفاكس"، أخذ مني الـ:
"بالالايكا"، وصار يعزف بغضب، غضب الوداع لا طاقة له به.
لم أخبره عن ساعة سفري، أعرف هي الثانية عشرة ظهرًا، لكني
خرجت الخامسة صباحًا بكل هدوء لئلا يستيقظ أحد، كنت قد
اتفقت مع السيد "لوكا" ليوصلني باكراً؛ لا أتحمل الوداع، ورؤية
دموع من أحببتهم وأحبوني.

الوداع يغوص فينا، يرتعد هو الآخر لارتعاد قلوبنا. قد ينطفئ
هو، لكننا لا ننطفئ.



بينى وبينه .. خصام^ه

أخاصمه كلما أظهر وجهه المختلف، كلانا لا يشبه بعض،
كيف لظل لا يعكس هيئة وأخلاق صاحبه! سبقني في الدخول
الى مدرج الطائرة، وزاحمني في الجلوس على المقعد.

لم يكن من السهل مغادرة مطار موسكو والجمال فيه بدءًا من
المبني والأثاث، والتصاميم، أخذت ركنا في أحد المقاهي، لأتناول
فطيرة محشوة بالجبن مع الشاي، وأفكر، ترى ماذا سيعمل
"سيفاكس" حين لا يراني، انتظرت منه رسالة أو مكالمة، لكنه لم
يفعل، أعرف أنه غاضب مني، أو لا يستطيع سماع صوتي.

لكني كتبت له رسالة قبل صعودي مدرج الطائرة المغادرة إلى
مطار (ديغول):

- اشتقت إليك وللعزيزة "غالينا"، لنبق على تواصل يومي،
وسأزودك بالصور عن باريس. انتبه لوالدتك.

أعرف لن يقرأها وسيستعين بـ"لوكا" فالزائر "ألبرت" وجوده مؤقت، وهو يحب السيد "لوكا" يحبان بعضهما، كما أنني أوصيت "لوكا" به، وشرحت له عن حالته؛ ليكتف اهتمامه ومتابعته.

في مطار (ديغول) لا توجد البهجة من الداخل والأبهة كما في مطار (موسكو)، أعرف أنه ثاني أكثر المطارات ازدحاما في أوروبا، لكن تأثير كورونا كان واضحا من تباعد الركاب عن بعضهم، يقفون متباعدين حيث الإشارات التي يجب الالتزام بها عند الوقوف.

بسيط من الداخل حتى ممراته ليست من الرخام اللامع، ولا قباب مزخرفة وإنارات وثرديات. أعجبنى جدا لأنه يمثل البساطة والدقة والانضباط.

وأنا في الطائرة كنت أسترجع قراءاتي عن "سيمون دي بوفوار" الكاتبة الوجودية وتأثرها بـ"سارتر"، ومقولة والدها المحامي الذي يشجعها دائما: (سيمون تفكر كرجل).

علاقتها المبكرة مع "سارتر" لم ترتبط معه بالزواج، وكيف بقي حبهما مستمرا، وكان كل منهما يقرأ كتابات الآخر. ترى كم عدد

الكتاب العرب والكاتبات ارتبطوا بهذه العلاقة الروحية والثقافية المتبادلة!

الفرق بيننا وبينهم؛ نحن بالتكتم والتخفي نقيم أسمى العلاقات خوفاً من إظهارها علناً، لأنها سوف توؤل إلى قصص وحكايا ملفقة، ولأننا لا نملك هذا الوعي لنصوغ هكذا علاقات وجدانية؛ نحب الثثرة عنها بما لا يليق بها.

وكم نحن بحاجة إلى تلك الحرية الثقافية والفكرية؛ لنعلن عن فكرنا وإيماننا بمبدأ (العلاقة الروحية)، وعن الفكر الناصح وكيفية الدفاع عنه!

هل نستطيع التعبير عن الجسد وحريته؟ هنا النقطة المسكوت عنها؛ نعيشها بالخفاء لتتغرس فينا الازدواجية في التعبير.

بينما "سيمون" أفصحت عنها في روايتها (المدعوة)، وكيف أحبت هي طالبة تدرسها في الجامعة، وعلاقتها الجسدية معها. كانت تنقل تجربتها الحياتية فعلاً، حتى حين أصبحت العلاقة الجسدية بالطالبة ثلاثية، هي وسارتر والشابة الطالبة.

كانت تؤمن بالجنس الآخر، عالجت بكتاباتها فكرة الرجل المثال الذي يجب على المرأة أن تحتذي به، وحررتها من هذه التبعية لاختيار كُلِّ ما يكسب كينونتها كفرد حر بما يريد وما يختار لذاته.

استذكرت فوزها بجائزة (غونكو) أعلى جائزة أدبية فرنسية عن روايتها (المثقفون).

ما يحز في النفس إهمال ذوي السلطة الثقافية في بلداننا العربية، عن تكريم مبدعيهم بجائزة لا تقل أهمية عالمية عن (نوبل، وغونكو)، وتثبيت عالميتها بهذا الاهتمام دون وضع اعتبارات سياسية ونفعية كما هو حاصل في الجوائز العربية، التي يشاع عما يدور في الخفاء عن مناصفة بين اللجنة والمبدع، أو الدار التي رشحته.

كم نحن بحاجة للنقاء الثقافي لننحرر؟

ناي "سيمون" العازف بالحرية قادني إلى التحسر على واقعنا، أصمتُ، ويأخذني النهر إليه، ويحتضن قاربي الورقي.

عند باب المطار اخترت سائقًا جيد الإنجليزية، وسلمته العنوان المرسل لي على الهاتف، سألني فيما إذا أرغب بسائق مرافق لي في رحلتي بباريس، أحبته بالنفي طبعًا لأنني لا أملك ثروة السواح العرب. ما أنا إلا صحفي يعيش على جهده، ويعيل أسرة تنبأها براتب لا يستحقه فكره ولا قلمه، بل الضرورة اقتضت ذلك. كاتب أغمض عيني كبريائه ورضي بما لا يليق به.

أدخلنا السائق في منطقة قال إنها منطقة العرب، وبين أزقة ضيقة، وأخرى أوصلني عند شقة بائسة، استلم أجرته وغادر.

طرقت الباب فخرجت لي امرأة تتحدث بلهجة مغربية، هي على علم بقدومي يبدو؛ فأدخلتني بصالة بائسة الأثاث، التف حولي أبناءها الخمسة، من الذكور والإناث، وأعطتني مفتاح غرفة منزوية.

فراش على الأرض، وغطاء رث، طاولة صغيرة وكرسی للكتابة. حين خرجت لأسالها عن الحمام، قالت أنه مشترك لنا كلنا والاستحمام بالدور، طلبت مني لو رأي أحد وسأل أقول له أنني أخوها، وأزورها لأسبوع.

اتّضح لي أنها تعيش على نفقة الدولة هي وزوجها وأولادها،
وتستلم راتبًا لكل منهم، مع هذا يُؤجرون بالخفاء غرفهم لزيادة
دخلهم.

كنت أسمع عن هذا الحي، وبيع السجائر المهربة والمخدرات فيه.
لعت رئيسي "مالك" على اختياره ابن اللعينة، يبحث عن الأرخص
ولا يهتم سوى بالتقرير.

لو جاء هو أفضل لي من الشقاء، لكنه جاهل لا يجيد لعبة
الإعلام والكتابة، مجالات بأسماء أشخاص مدفوع لهم كلّ شيء
حسب الانتماء، بما في ذلك الطائفي والمذهبي، والعربي.

تقع عليّ هنا تكلفة الأكل والشرب، وألاّ أستعمل ثلاجة المنزل، أما
الحمام فدوري آخر الجميع. قلت مع نفسي سأنهي بقائي هنا، لا
أطيق هذا المكان، سأبحث عن غيره بطريقة تليق بي.

كتبت له رسالة هاتفية؛ شتمته وشتمت سلالته من سابع جد، لم
تصل الرسالة، لعدم وجود انترنت، لكنه من المصادفة يبدو كان
يفكر في أمر ما، فكلمني من الهاتف مباشرة، وليس رسالة، كيف
سيخسر قيمة الاتصال، هل هذا معقول!

كانت ضحكته عالية شعرت بها استهزاء بكرامتي:

- هي أيام أسبوع فقط، واعتبرها للنوم، أنت كُلّ الوقت خارج الشقة تكتب عن المطلوب منك سألته: وما المطلوب؟

رد: لا أدري، أنتم الصحفيون لكم طرقكم، وهو الموضوع ذاته، معالم باريس خلال أيام فقط، ونحن مشتركان.

نحن؟ ومن أنت؟:

- أنا تاجر إعلام.

قالها مصحوبة بضحكة عالية.

- المهم سأنتقل لمكان آخر، وأنت تدفع ثمن إنسانيتي واحترامي.

ابن اللعينة حتى الإعلام حولوه تجارة هو وأمثاله الأغبياء، انتظرت ساعة كاملة حتى أدخل للحمام صباحًا لأقضي حاجتي وأغتسل، كرهت الاستحمام إذا كان هكذا، لكنها قالت لي يمكنك أن تستحم آخر الليل حين ننام، قلت: لا بأس سيدتي قضينا وقتًا في السجن بأحقر الأمكنة حتى حظيرة الخنازير كانت أظهر مما كنا فيه.

ألا لعنة على الصوت الحر والقلم الحر، جعلاني أكفر بمبادئ
ومقدساتي للإنسان.

في باريس اللغة ليست عائفاً، سألت شاباً مغرباً عن الحافلة
المتوجهة لشارع (الشانزليزيه) أشار لي إلى موقف المترو، مشي
عشر دقائق فقط من موضع الشقة البائسة.

اللون الأزرق الفاتح والأبيض وبساطة المكان المزدهم، العازفون
في المترو والعرب هذا هو الجو المناسب للانطلاق بالنسبة لي.

لا بُدَّ من الانتقال اليوم، تنتظرني أسرتي، في العراق، وأسرتي في
موسكو، قلق جداً على "سيفاكس" وعلى الطفلين و"جميلة والعم
سعود".

في الشارع الجميل المليء بالأشجار الممتدة والمحلات الكثيرة
والمراكات العالمية والمطاعم والمقاهي، ودور السينما وساحة
(الكونكورد) يقع (قوس النصر) الذي يبلغ ارتفاعه خمسين متراً
تقريباً، بتكليف من القائد "نابليون"، وهو عمل مهندس معماري من
الدنمارك، نصب تذكاري للمثل الإنسانية بدل الانتصارات
العسكرية، لذلك فيه منحوتات وكتابة في أعلى القوس بالفرنسي.

على أقواسه الأربعة منحوتات لفرسان وملائكة وسيدات ورجال، أقام الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى قبراً للجندي المجهول بشعلة دائمة أسفله، منقوش عليه بلغة فرنسية، وأسفل البرج منحوتات، وفي أعلاه لجنود ومقاتلين. كان هذا الميدان يسمى ميدان "لويس الخامس عشر" فيه تمثاله، لكن بعد الثورة أعدم "لويس الخامس عشر" فيه وسمي ميدان "الثورة"، وتم نقل التمثال.

تماثيل الملوك والزعماء بعد أي ثورة مصيرها الهدم، إنما يبقى الشعب هو الدائم، تفوح منه رائحة الجنان.

ديمومة الشعوب شعلة باقية، والملوك إلى الفناء، يبقى صوت الشعب المدوي الوحيد، نلجأ إليه كلما احتجنا للتزوّد من الإنسانية.

صعدنا أنا وظلي الدرج الملتوي؛ وجدنا الأسماء المسجلة أسفل القوس معظمها لجنرالات خدموا أثناء الإمبراطورية الأولى لفرنسا، مع شخصيات أخرى من الثورة الفرنسية، وفي داخل القوس من الداخل أسماء المعارك التي انتصر فيها "نابليون"، منقوشة على حجر الجدران، من الأعلى يمكن مشاهدة معالم كثيرة لباريس.

أما المسلة المصرية أو مسلة كليوباترا وسط ساحة (الكونكور) مزينة بالكتابات، لم أتوصل لمعرفة الرسومات وحلها، لكن من الكتاب السياحي معي عرفت أنها مسلة مصرية هي مسلة الملكة "كليوباترا" كانت تزين معبد الأقصر، أهداها والي مصر "محمد علي" إلى فرنسا.

الشارع مليء بالعرب، سررت وأنا أسمع هويتي تتكلم، كنت أبحث عن هويتي الإبداعية صحفياً وموسيقياً. وهنا الفن والموسيقى والجمال والتاريخ. المطاعم العربية منتشرة ليس من الصعب اختيار الوجبة المفضلة؛ قررت أن أمتع نفسي؛ فاخترت مطعمًا كلاسيكيًا يقع في زاوية شارع (جورج الخامس) والشانزليزيه.

قرأت في كتاب الدليل عن (متحف القصر الكبير ومتحف القصر الصغير) في هذا الشارع فرغبت الدخول إليهما، لكن قبل ذلك جلست في مقهى على الشارع وطلبت قهوة مع شطيرة بالجبن والبيض المسلوق، أما (متحف اللوفر) فسأخصص له يوماً خاصاً.

تذكرت قصيدة "بدر شاكر السياب" (بالأمس حين مررت بالمقهى، سمعتك يا عراق، وكنت دورة أسطوانة)، أنا اليوم أحقق في الأغاني، أبحث عن بغداد فيها، وعن الذي يجعلني أكتب قصيدة أو أغنية من الجراح.

الاحتفالات تجري في هذا الشارع كما هو أهم الشوارع في العالم، الاحتفالات بالعيد الوطني والموكب العسكري، وأيضاً الكريسمس. كتب الدليل مهمة لرفقة الرحلات. تمنيت لو كان مجيئي يصادف إحدى الاحتفالات هذه.

في المقهى لم أكن جائعاً بقدر حاجتي للتواليت والقهوة المركزة، وظلي في غيّه، جلس قربي وعينه على الرشقات والأجساد اللدنة والمؤخرات. قلت له: النساء في روسيا أكثر جمالاً من فرنسا، لم يجبني، لعله يريد اكتشاف ذلك بنفسه.

أعدت عليه السؤال بشكل آخر: أيهنّ أجمل؛ المرأة العراقية أم. . .
، لم يدعني أكمل، نهض، ثم جلس ونهض، وأشار متحمساً.

- كلّ شيء بالعراق أجمل، حتى الاغتراب.

- ها أنت عدت إلى رشدك، هذا يعني سترافقني في عودتي
لبغداد.

لم يرد، فهو حتى هنا لا يشبهني، وأكره مرافقته لأنه يشبع من
الرائحة، لكن ما العمل هو بعض مني، حتى لو اختلفنا أو
تشابهنا، أنا آكل بالشوكة والسكين، وهو يشبع من الرائحة! مؤكد
يتمنى أن تتدفق روحه ويستمتع بالتذوق، لا يريد أن يبقى اسمًا
أكتب عنه.

طلبت أنا قهوة وفطيرة بالتوت والموز، أحب القهوة المركزة مرّة
فأسعف نفسي من مرارتها بأي شيء حتى لو قطعة بسكويت، بقي
هو يتفرج علي ويلمظ.

كنت أنظر للمارة وأتطلع في الوجوه، من خلالها أعرف محطات
أخرى للهوية الإبداعية العالمية، ماذا لو صارت لنا هوية إبداعية؟
مشروع جميل كتبت عنه، وفكرت بالمعوقات التي تواجهنا، نحتاج
إلى إيمان مطلق به وبفكرته أولاً من مبدعي العالم، وثانيًا من
حكوماتها لتسهل علينا العائق السياسي والعرقى! وننطلق
كمبدعين.

ماذا لو تيقن هذا الشارع، أني منه، وبالمقابل لو الفرنسي بشارع الرشيد، هل سيجد نفسه عراقياً؟ أظن نعم. عراقي بالإنسانية وليس بالطائفة والقومية والمذهب، ترى هل سيتعبرونه كافراً لو تنعم صوته في العراق وصرخ بسماء "أم علي" أن امطري، هل سيعتبرونه كافراً؟

أين ذهبت أنا، يا حسرتي! شطحت بأفكاري. مرقت شابة غاية بالجمال تعانق حبيبها، وهو يحتضن خصرها النحيل بين ذراعيه، لحق بهم ظلي الشبق والتصق بالشابة وأنا أثنيه عن فعلته بإشاراتي وكلامي، صرخت عليه:

- ابن الكلب ألا تخجل من فعلتك؟ وأشير لظهر الشابة، حتى ظنوا جميعاً أني أتحرش بها، وهي تلتفت خلفها كأنها شعرت بجسد يلتصق بمؤخرتها ولا ترى أحداً، اقتربت أكثر من عشيقها الذي جاء يهددني، لكن أثناه عن ذلك رجل بدا عليه الوقار:

- دعك منه، أما ترى جنونه، هكذا الخبل حين يكلمون أنفسهم. أزعجني هذا الكلام والتمتي هذه الصفة الملاصقة لي منذ ظهور اللعين ظلي، حتى بت أتصور أنني فعلاً مصاب بلوثة.

جلس قربي هازئاً:

- خليك بأوهامك وعادتك السرية. أعرف بذلك أنا لا يخفي علي شيء، أراك حتى في الحمام.

- أقلها أنا أشرف منك، لا أزعج النساء.

التفت للرجل الفرنسي وحدّثه بالإنجليزية:

- أنا لست مصاباً ببلوثة، علمت من إشارتك ونهيك للعاشق.

فرحت جداً حين رد علي بالإنجليزية، وطلبت منه الجلوس إلى طاولتنا:

- أنا جاد أخي الكريم، هذا الوقح يرافقتي، أينما سرت لكنه يختلف عني.

ابتسم كأنه يريد تمريرها لي موضعاً قناعته بما شاهده:

- هل حضرتك سائح؟

أجبت: نعم أنا سائح وصحفي جئت أكتب تقريراً عن باريس ومعالما الثقافية والفنية لمجلة ثقافية في العراق.

- جميل، إذا اقتربنا، أنا أيضًا صحفي وفنان.

قال ذلك، وبدأت علامة الفرخ على محياه اللطيف، ووجهه الباسم،
فبادرت بسؤاله:

- أي نوع من الفن؟

تكلم بزهو وتواضع: عازف وممثل.

- الله الله اقتربنا من بعض، واضح حضرتك فرنسي، هل لي
بصداقتك؟

اقترب مني مسرورًا، وقررنا التجول مشيًا في الشانزليزيه، أثناء
سيرنا سألته إذا يعرف اسم فندق قريب من هنا، حتى لو بعيد
بعض الشيء، ثم استدركت:

عفوك لم أسأل عن اسمك الكريم، أنا اسمي "مناضل"، كاتب
وعازف عود وصحفي.

- مرحبًا بك في بلدك فرنسا، اسمي "آرثر".

قلت: حبذا لو تدلني على فندق يقدر محفظتي ووزنها الخفيف.

ضحك بأعلى صوته: كلنا محفظاتنا خفيفة الوزن، المبدعون لا تعنيهم المادة، والمبدع الأصيل لا يكثرث في الوصول إليها.

همس ظلي في أذني: أنا ألهث وراء المال والنساء، وهو قابع في شقة ضيقة ويصرف راتبه على الآخرين.

وقتما رأي "آرثر" أوجه نظري إلى جهة أمامي وأقرب كفي من أذني كأني أطردها عنها غبارًا، ابتسم وأمسكني من يدي:

- تعال معي أريك مكانًا يجتمع به الفنانون والأدباء، فندق بمقاس محفظتك.

اتجهنا إلى الجانب الخلفي من الشارع، وأدخلنا بفروع جانبية أخرى، ثم أخرى، وأخرى حتى وصلنا لفندق متواضع، في الاستقبال كانت فتاة جميلة، بصمة الأربعين واضحة عليها، طلب منها غرفة بسرير واحد، فاستجابت لذلك.

قال: هنا لقاء الجمال والإنسان، كُلّ ليلة، وسترتاح معنا، ردّ عليه ظلي:

- وسأرتاح أنا، موظفة الاستقبال جميلة جدًا ومؤخرتها أغرقتي؛ لأقدم طلب وظيفة عندها.

حمدا لله لم يره، أحد، ولم يشاهدوا بحلقة عينيَّ موجهة صوبه، وإلا طردونا.

قبل الحجز تأكدت من وجود إنترنت حين قالت الموظفة:

- نعم لدينا، وهنا نقدم وجبة الإفطار فقط ضمن الأجرة.

شكرتها، وخرجت أ جلب حقيبتني، مستأذناً من صديقي الجديد "آرثر":

- سأعود حالاً.

قال: وأنا سأنتظرك هنا.

كان هذا رد الملعون الظل المشاكس:

- سابقى مع "آرثر" ربما يحتاجني، أو قد أعمل مع السيدة.

لم أخبر السيدة في الشقة عن تركي المكان، فقط أخذت حقيبتني، وخرجت.

حال وصولي إلى الفندق بعثت رسالة لـ"مالك"، وجعلته يكلم السيدة في الاستقبال، ويأخذ منها التفاصيل لإرسال أجرة غرفة لمدة أسبوع.

قلت للصديق "آرثر" إذا ممكن ينتظرني، أغتسل وأغير ملابسني ثم نخرج، نختر أي معلم من معالم باريس ونتوجه إليه، فراقته له فكرتي، وأعجبني رده الكريم والخلق،

أنا الآن فرح، فقد يرشدني الإبداع إليه دون عناء، يعرف أنني ملك له وليس "لمالك" اللعين، كلما سألته عن عنوان مقالتي التي أرسلتها له، الرد ذاته كُلّ مرة، لا عليك أنت فقط اكتب وسترى المفاجأة حين تعود.

عند نزولي منتعشاً بعد حمام دافئ؛ تركت جواز سفري عند موظفة الاستقبال وخرجنا.

- أين ستكون وجهتنا صديقي "آرثر"؟

قال: سنتجول اليوم للتعارف، سيلتقي بنا الأصدقاء بعضهم نزلاء في الفندق، خاصة أننا مختلفو الجنسيات، وسأضع لك برنامجاً مخصصاً لزيارة معالم باريس، أنا في إجازة لمدة عشرة أيام، ويا لسعد فرصتي بالتعرف عليك! كما أنني في الإجازة أسكن هذا الفندق، حالة من التغيير.

كان اتّجاهنا صوب مقهى (لادوريه) جلسنا خارج المقهى نستمتع بالهواء الطلق، قال صاحبي "آرثر":

- هنا يلتقي أغلب المبدعين، وسيصل رفاقنا في الفندق، وهي فرصة جميلة تتعرف عليهم، ونتناول القهوة والبسكويت، وننعم بالحديث الثري الغني بالإبداع.

فيما نحن نتناول القهوة رأيت "آرثر" يلوح لهم كشجرة تلوح لأغصانها، ما أن رأونا حتى توجهوا نحونا، والتحية الجميلة والابتسامة مرتسمة على محياهم جميعاً.

قدمهم لي السيد "آرثر" قائلاً:

- أعرّفكم بالصديق الجديد "مناضل" أديب وصحفي عراقي قادم لزيارة باريس من أجل تحقيق لمجلة ثقافية عراقية.

ثم قدمهم لي واحداً تلو الآخر:

جستين رسام

توماس عازف كمان

ماثيو عازف أورك

الفتاة نانسي، خزافة وصحفية.

المبدع الحقيقي لا تهمة بهرجة الملابس الغالية ولا الحقائق الجلدية، غناهم الفكري جعل منهم أثرى من رواد الفنادق الفخمة في (الشانزليزية)، وأصبحت على يقين أننا سنقضي أجمل الأيام واللحظات.

"ماثيو ونانسي" من أصول جزائرية، لأسرة أقامت في باريس منذ سنين، واضح أن بينهما علاقة حب مدهشة، من تبادل القبل والتحام الأصابع بالأصابع.

احتضنا بعضهما بطريقة شوقنتي لحض فتاة تفهمني كمبدع، تشعر بي دون البوح، وتلتحم بي دون طلب مني، بل يقودها الوله.

الذين عاشوا هنا أباً عن جد، تطبعوا بطباع البلد، وصاروا جزءاً منها.

أما "جستين، وتوماس" فهما فرنسيان، يلتقي الجميع في هذه المقهى، ثم يسهرون بنفس الفندق وبشقة "آرثر"، ثم يذهب كل إلى داره.

كونهما من أصول جزائرية ذكرّاني بالجهة المعاكسة، بالكاتب الكبير "ألبير كامو" فرنسي مولود في الجزائر، بادرتُ لنفس الفكرة وتساءلت فيما إذا سلكا مذهب "كامو" العبثي في باريس، ورحنا نعيش مع تفاصيل روايته (الغريب) هذا المبدع الحامل جنسيتين، فرنسية من الأب، وإسبانية من الأم، ربما حين كتب رواية (الغريب) كان يتحدث عن نفسه، فالبطل يشبهه أيضًا غريب في مدينة أخرى، ويحمل ذات الفكر العبثي اللامبالي، بالتركيز على سلوك بطله حين هروبه وبوفاة والدته عن حضور الجنازة، لم يأبه لذلك ولم يحضر الدفن. صادق فتاة قضى معها وقتًا في السينما.

انتبه لحديثي "آرثر" بشغف وصمت، ورشف بعضًا من قهوة قائلًا:

- إنه لا يهتم للموت، لأنه الحقيقة الوحيدة الصادقة بحدوثها، ويكفي أنه أصغر كاتب نال جائزة نوبل للآداب.

اتفقنا على اللقاء في الثامنة مساء في نفس الفندق نعزف في الصالة، وإذا خالفنا تعليمات الفندق؛ نكمل السهرة في غرفة "آرثر".

غادروا وبقينا أنا و"آرثر" نستعرض بعض المواضيع الثقافية، قال لأريك شيئاً عربياً أولاً قبل القيام بزيارة لمعالم باريس، سنعرج إلى مطعم يعمل الفلافل.

كنت أمشي وأتخيل "أم علي" كيف نظفت المصارين، وقلعت المرارة على حذر، لئلا تتلف الأمعاء، وأتخيل "سيفاكس" وأسرتي. شعرت بحزن عميق، عميق شل حركتي، ولم تعد قدماي قادرتين على حمل جسدي. انتبه لوضعي صديقي "آرثر"؛ فطلب سيارة أجرة نقلنا إلى الفندق.

كنت حزيناً طول الوقت، وظلي يلعن، يشتم.

اعتذرت من صديقي طالباً منه الدخول لغرفتي، واللقاء به في (اللوبي) بعد ساعة.

تواصلت مع أسرتي في العراق، الجرس يرن ولا جواب، أعدت الاتصال عدة مرات والنتيجة ذاتها. بهذه اللحظة تواصل معي "سيفاكس" فرحت به، خاصة أن أمه تؤشر لي بتحايا غاية في الود، أما "سيفاكس" كان ينتظر انتهاء كلام أمه، إنما في عينيه الكثير من الكلام. بعد دخولها إلى المطبخ قال لي: أحتاجك؛

ولمعت عيناه بدمع محبوبس، قالها بإنجليزية متعثرة؛ فهدأت من ارتباك وضعه قائلاً:

- لن أتركك، سأبقى معك حتى آخر لحظة في حياتي، والآن تعرفت على مبدعين في باريس وسنفتح معك مباشرة كاميرا لنستمع إلى عزفك وعزفهم، وعليك أن تتعلم القليل من اللغة الإنجليزية، هكذا صعب التفاهم بيننا. لم يفهم علي، فقط إشارات بيننا.

لكن الكلام المعرفي والثقافي لا أجيد ترجمته لك، سترجمه الموسيقى.

فرح لكلامي راجياً الاتصال به كُلّ يوم، لعله فهمني فعلاً.

لم توافق السيدة في الاستعلامات على ضجيجنا، ورفضت أن نحوله إلى أية غرفة في الفندق؛ لذا بادر السيد "توماس" أن نجتمع في شقته؛ لنأخذ حريتنا.

سأقنطع من وقتي المملوم بالقلق، وأتصل بـ"فيصل"، كُلّ محاولاتي باءت بالفشل، وكأنني أكتب على الرياح، رسائلني له تسري وتسرق الوقت مني.

الثواني تمر، تضرب بعضها بعضاً، تتعارك، وتجلدني.

الأماكن هنا لها نكهة مختلفة، حتى العيون المنكسرة، تجدها تخبئ عالماً مليئاً بالأمل، لا تموت فيها السنون، شبابيك عامرة بالحرية، وهذا ما يعطيها حافزاً لتكون سيدة اللحظة.

أشتاق لبغداد، أستعيد كل ما فيها بذاكرتي، لا أترك كلاماً يذهب عني، ولا صورة ومكاناً، كل شيء منها يجعل لحظاتي مكتنزة، رغم أنها تخضع للفوضى؛ إنما تبقى فردوسي الأول والأخير.

(شارع أبو نواس) رائحة نهر دجلة والسمك المسقوف، وعطر السمر والسهر في مقاهيه المميزة، ولقاء الأحبة والعشاق. طقوس أحمل لها في القلب النقاء، كل النقاء وتخرسني هي. يصدح فيها صوت المطربين "ناظم الغزالي، حضير أبو عزيز، ياس خضر، وداخل حسن"، وهمس العشاق.

شارع أبو نواس لا يشبه الشانزليزيه، بل يشبهني، أنا العاشق الدائم له، في المقاهي هنا، لم أجد وجه أبي ومن يشبهه من الآباء بعطرم، بعرق تعبهم بعد عمل شاق، لم تمر قربي النساء حاملات (علاقة الخوص) للتبضع من سوق قريب للخضار، لم

أشم (شيلة) أمي، وحنين عبايتها للقائي بقلب مفتوح على مصراعيه.

سأذهب لأصدقائي هنا وفي حقبة قلبي تضج الأمكنة، وسأخبرهم أنني حملت بغداد على عكتي مثل طفل صغير مريض على كتفي أمه. طفت به في أضرحة الأولياء ومراقدهم في ضريح الإمام الكاظم، تبركت بقبته ومنارتها الذهبية، بضريحه المعشق بالذهب وأبوابه الفضية، ألصقت قميصي بالضريح وندبت كما تندب الثكلى، مسحت يد بغداد في جامع "أبي حنيفة" الضاح بدعاءات المكلومين. . . توسلت حتى في الأقواس والساعة والضريح والأبواب بالإنارات والصيوان، وبآيات القرآنية والنقوش على الحيطان.

توسلت بالكنايس والأديرة، بالعدراء والمسيح، وما زلت أحمل بغداد على كتفي مثل طفل رضيع يتسكع في (الشانزليزيه).

هزرت حقبة قلبي، واستخرجت منها الحكايا عن (سوق القشلة وساعته المنتظمة) ساعة بغداد، هي لا تشبه ساعة (بيك بن) الإنجليزية ولا تنافسها، تاريخنا وأهلنا ابتكروا التوقيت قبل العالم

كله، (ساعة القشلة) ذات الأربعة أوجه بناها والي بغداد في زمن الحكم العثماني، لإيقاظ الجنود في الثكنة، أيام "مدحت باشا" مؤقتة بتوقيت النهوض للتدريب العسكري، و(سوق القشلة) بناية حملت دكاكينها عراقة البناء والتاريخ.

كلما رأيت حقائب قديمة؛ مرقت صور (سوق السراي) لترجعني هناك، إلى رائحة الورق والأقلام وصناعة الجلود الطبيعية، عطر الزمن يفتح كُلّ نوافذ الأضواء أمامي.

سوق يربط بغداد بجهتيها (الرصافة والكرخ)، ويوصل العابرين من الجانب الغربي لنهر دجلة. الجسر القديم، الوحيد الذي يربط ضفتها للوصول إلى (سراي) الولاية العثمانية في عهدها الأخير.

سأقول لرفقتي أنا ابن الزمن القديم والجديد، مؤكداً يعرفوا أن ضلوعي ضوئية، تبرق

لحظة امتزاج أدمعي بالذاكرة. سأقول لهم أنا النزيف الضاحك، والمحفورة ضحكاته في عروق الشجر. وأنا المزمар الذي لا ينهزم.

كان ظلي مستنداً على الحائط، صفق بحماس ليوقظني مما أنا فيه من مكابدة الحنين والدموع.

- هل كنت أهذي؟

ردّ ظلي ويده على كتفي مشفقاً لحالي:

- بل كنت تحترق هذياناً.

- هل ترغب بالسهر مع الرفقة؟

سألني ورد على نفسه بالنفي: كلانا متعب من بغداد.



مرافق غاضب

بعد وجبة إفطار شهية في الفندق، قرر "آرثر" أن تكون رحلتنا اليوم إلى (قصر فرساي) أشهر وأفخم قصر من حيث الفخامة الخارجية والداخلية والطلاء بالذهب الخالص.

ونحن في الحافلة متجهان إلى القصر حدثني "آرثر" عن نشأة هذا القصر.

الهواء من نوافذ الحافلات في باريس ينعش القلب والروح، ضحك وقتما أخبرته: سنغني حتمًا، طالعني بفرح وأمل مستغربًا:

- أتمنى ذلك يا "مناضل".

- وأنا أتمنى. صدقًا أقولها: أنا أقف أمام بغداد عريانًا إلا منها؛ لتراني بعين قلبها.

كان يعرفني بأدق تفاصيل القصر ليسهل علي مهمة التعرف من الداخل والاستمتاع في لحظاتها:

- تم تشييد قصر فرساي، وتعديله، وتوسيعه من قِبَل الملك "لويس الثالث عشر"، وبعدها انتقل للإقامة فيه "لويس الرابع عشر"، فهذا القصر الكبير الواسع ذو البناء المرموق بقي إلى هذا الزمن يحكي عن تاريخ فرنسا القديم، فبعد أن تركت العائلة الحاكمة هذا القصر بمائة عام أقام فيه "لويس السادس عشر" مع زوجته "ماري أنطوان"، وهم من الأشخاص الذين تمّ إعدامهم أثناء الثورة الفرنسية. يعد قصر فرساي من أهم القصور حيث تم بناؤها على أكبر مستوى في العالم، وأكبرها مساحةً، يحتوي هذا القصر على قطع من الأثاث والأسقف المصنوعة من الذهب، وهو مكوّن من ثلاثة طوابق كبيرة كانت تتسع لعشرين ألف شخص، كما يحيط بهذا القصر مساحات واسعة وكبيرة من الحدائق التي تنتشر فيها النوافير من كلّ جانب، ويعتبر هذا القصر في وقتنا الراهن من أشهر المتاحف في العالم بأسره كونه كان قديمًا مقرًا للأسرة الحاكمة.

دائمًا تكون قصور الملوك أكبر من الخيال، ومضاعة بكم هائل من الإنارة والثريات.

له ثلاثة طوابق. تمثالان لفارسين في أعلى القصر، ويبدو هما لأحد الملوك، تتوسطه ساعة كبيرة مذهبة. تماثيل أخرى قرب كل نافذة مؤطره بالذهب، على ما أظن هي من الذهب الخالص، حتى الأسوار الفاصلة بين نافذة وأخرى من الذهب.

وهكذا باقي جانبي القصر، أما البلاط الخارجي فكان يشبه مربعات الشطرنج من اللون الأسود والأبيض.

جانبا القصر بنفس الطريقة من الاتساع والتذهيب والتماثيل، وتحيط القصر حدائق غناء بزهورها الزاهية ونافوراتها المتعددة.

ردهة القصر تحفة معمارية من الجانبين بثريات سقفية كبيرة وشمعدانات على شكل تماثيل صغيرة في أسفلها، ثم تتوسط أعلاها شمعدانات من الكريستال الخالص، والمرايا المنتشرة على جانبي الممر. فيها نظام توليع الشموع أوتوماتيكياً منذ القدم، كان يقطن هذا القصر اثنان وعشرون ألف شخص.

سحرتني الأرضية اللماعة وأدخلت الغصة في قلبي، ماذا لو أبرقت هكذا أرضيات قصور تاريخنا المهمل! قصر فيه الآلاف من الصالات المختلفة.

مخدع الملكة داخل القصر أبهرني بزخارفه الذهبية في السقف
والثريات الكبيرة اللامعة، أما على جانبي المخدع معلق سجاد
فاخر بألوان منسجمة مع باقي التصميم، كرسي بجانب السرير
المفروش بأفخم المفارش مذهبة الجوانب، مناضد موشحة بالفضي
والذهبي وضعت عليها زهريات ثمينة جدًّا، خشيت أن ألمسها لئلا
يخدش إصبعي ثراؤها. خطر في بالي خاطر، ترى، ما الذي
سأكتبه لو نمت على هذا السرير؟ وأي حلم سأراه في منامي؟ هل
ستزورني الكوابيس التي أعاني منها منذ الصغر؟

أنا في أفخم قصور العالم، في الترف والفخامة، والأسوار
والديكورات المطلية بالذهب الخالص. استرجعت كيف كان يقطن
هذا القصر اثنان وعشرون ألف شخص، إنهم عشيرة من عشائرننا
لو قارنتها بما لنا في العراق.

مجلس الملكة الراقى وحوائطه المنقوشة بدرجات اللون الرصاصي
مؤطره جوانبها كلها بأطر ذهبية، تتوسط المجلس ثرية كبيرة من
الكريستال ومقاعد خاصة للجلوس.

لوحة كبيرة تتوسط الحائط الذي أضاعته الثريات وعلى الأرضية، بوفيه وضعت عليه مزهرية من الكريستال الأزرق، ومثلها بحجم أصغر، شملت الفضي والذهبي.

جلسات متعددة بطابعها الخاص تشبه ما نسميه بالأرائك العربية، منسجمة ألوانها مع باقي الديكور. كم يعشقون الفخامة والتذهيب!

كان هذا الجناح يمثل مكانًا لعيش الملكة ومقرًا لممارساتها جميع التزاماتها الملكية، سواء أكانت سياسية أو دينية، أو ذات صلة بالإتيكيت، يتكون الجناح من أربع غرف، منها غرفة الملكة، التي تستقبل كل سنة حوالي ثمانية ملايين زائر.

بعد وفاة الملك "لويس الخامس عشر"، منح الملك "لويس السادس عشر" متنزه تريانون "لماري أنطوانيت"؛ وبهذا أصبحت أول ملكة تملك عقارًا.

قامت بالعديد من أعمال الترميم فيه، كما حولت جزءًا كبيرًا من الحديقة النباتية إلى الطراز الإنجليزي الصيني، الذي اشتهر في ذلك الزمن. في عهد "ماري أنطوانيت" تحول متنزه (تريانون) إلى جزيرة سلام خاصة، كانت الملكة تحب اللجوء إليها في أواخر فترة حكمها.

قاعات متعددة في القصر منها القاعة الكبيرة بحوائطها المطلية باللون الأحمر وعليها لوحات كبيرة وصغيرة لكبار الفنانين وأشهرهم.

مجلس آخر للملك تتوسطه أكبر لوحة، وهي هدية من حكام فينسيا هي قاعة الملك "لويس فليب" للتواصل مع الشعب. يزين السقف لوحات مرسومة على حدود القبة.

موقد جميل بنقوش من الأبيض والأحمر، وعلى أرضيته سجادة طويلة بنفس النقوش والألوان.

الطابق الأرضي مخصص للأفراد الرئيسيين في العائلة الملكية، وتوجد فيه شقق خاصة بالملكة "ماري أنطوانيت" بالإضافة إلى العديد من الصالونات الترفيهية والكنيسة والمسرح.

أشهر قاعات القصر قاعة المرايا امتداد لا مثيل له من المرايا في جانبي القاعة، فيها سبع عشرة مرآة مقوسة، تطل على حدائق القصر، تزين القاعة الثريات الزجاجية والسقف المقوّس المزين بالزخرفة، وتماثيل مذهبة ونقوش.

مسرح الملكة في القصر غاية في الجمال والرقى الملوكي، حوائط بتدرج اللون الرصاصي تحيطه أطر مذهبة بنقوش وزخارف.

في قصر فرساي، جولات استكشافية غير مسرح الملكة الذي تم الحفاظ عليه بشكل رائع. للاستمتاع بمكان ثابت مخصص بالكامل للمسرح والموسيقى التي كانت تعشقهما

قامت "ماري أنطوانيت" بتشديد المسرح بعيدًا عن الأنظار، خلف أوراق الشجر الكثيفة، يمكن للمكان أن يستوعب ما يقارب مائتين وخمسين متفرجًا وعشرين موسيقيًا.

قاعة المتحف الكبير بناها الملك "لويس فليب"، سقفها زجاجي يسطع منه نور الشمس صباحًا، بأعمدة كبيرة رصاصية اللون وأطر ذهبية، على جانبي القاعة لوحات حروب الملوك وانتصاراتهم.

بعد فترة وجيزة من تولية الملك في عام ألف وثمانمائة وثلاثين قرر "لويس فيليب الأول" تحويل القصر، الذي كان خاليًا من المفروشات وتصيليًا رديئًا، إلى متحف مخصص لـ(كُلّ أمجاد فرنسا)، مع لوحات ومنحوتات تصور الانتصارات والأبطال

الفرنسيين المشهورين. تم هدم جدران شقق الحاشية والأعضاء الأقل عددًا في العائلة المالكة في الطابق الأول وتحولت إلى سلسلة من صالات العرض العديدة.

قاعة التتويج التي تعرض الرسم المشهور لتتويج "نابليون".

تم إعداد مجموعة أخرى من الغرف في الطابق الأول إلى صالات عرض، حيث يتم عرض الأثاث واللوحات والنحت.

في السنوات الأخيرة تم تحويل إحدى عشرة غرفة في الطابق الأرضي بين الكنيسة والأوبرا إلى تاريخ للقصر، مع عروض ونماذج سمعية بصرية.

أما شكل إحدى القاعات فقد كان تصميمًا هندسيًا غاية في الجمال من الأعمدة السوداء التي ترتفع في أعلاها أقواس مذهبة بنقوش وتمائيل صغيرة تنتهي هذه الأقواس إلى بوابة القاعة الكبيرة ذات القبة الكبيرة، والباب والنوافذ الذهبية تحيطها تماثيل تزين الأعمدة والجوانب.

إضافة إلى حدائق القصر المزينة بأحواض زينة وتماثيل برونزية وصفوف من الأشجار المتنوعة، تتميز بحجمها الهائل، المياه ومسارات الحدائق وممراتها مزينة بالتماثيل والمزهريات.

بعد هذه الجولة المضيئة قال "آرثر" أن له رغبة الجلوس في أقرب مقهى. فكان ردي بالإيجاب؛ لأن جمال القصر إنساني.

عكفنا صوب مطعم يبعد اثنين كيلو من قصر فرساي.

طلب صديقي كأسًا من النبيذ، بينما اخترنا معًا وجبة ستيك بصلصة المشروم والبطاطا المقلية والخضار.

ليس من عادتي الأكل السريع إنما الجهد الكبير جعلني ألتهم الأكل بسرعة، وصديقي يراقبني عن كثب:

- خلال جلستنا لم تفه بأية كلمة صديقي العزيز، بمن كنت تفكر ويشغلك لهذا الحد؟

أجبتة: ببلدي وأسرتي.

يبدو أن القلق ارتسم في عيني، وملامح وجهي. حاول إبعادني عن هذه الذكريات متسائلًا:

- هل لك رغبة بزيارة (برج إيفيل)؟

طبعًا طبعًا، أحبته مستبشرًا: إذا كان الوقت يسمح، قال:

- لن نستغرق وقتًا طويلاً، بعد تناول القهوة سنغادر إلى برج إيفيل.

قرأت عنه في كتاب معالم المدن، كان هذا مفاده يا صديقي، وأرجو أن تصحح معلوماتي إذا أخطأت. إنه سُمي باسم مصممه "غوستاف إيفل" وقد تم استخدامه سابقًا للبرق الإذاعي.

وأنا أرتقي الطوابق الثلاثة لهذا المعلم العالمي بالمصعد الكهربائي، أتفحص أدق الأشياء فيه، فقد كان الطابق الأول بعيدًا عن الأرض، وليس ملاصقًا لها، مقصورته دائرية الشكل استطعنا رؤية المنطقة بسهولة من خلال منظاره، وكذلك طابقه الثاني انتهاءً بالثالث، كلما ارتفعنا أكثر رأينا المنظر بشكل أوضح من السابق.

كنت أردد في سري أشعار للشاعر الفرنسي "إيف بونفوا" (ابتكريني، أو لعلك تضاعفيني).

ثم صرت أتمتم بها، وشيئاً فشيئاً علا صوتي، و"آرثر" يردد معي بصوت متوسط العلو باللغة الفرنسية الكلمات ذاتها.

واستمر صوتانا، نقرأ لشعراء آخرين، "إيلوار" (التعظيمات قد نالت من الكرامة، والأحذية قد نالت من نزهاتنا).

فعلاً "يا إيلوار" كلّ ما قلته يمثل واقعنا.

صرنا محط أنظار السواح، وشعرت أنا بحضوري المهم، عراقي يقرأ بصوت عال شعراً فرنسيّاً، تمايل بعضهم مع تمايلنا ورقصت أرواحنا ونحن قرب السماء في الأعالي.

نخترق أقواس البرج، ونصفق لمصممه "غوستان إيفيل" لعله يسمع أشعارنا الآن. مؤكداً يسمع ويرى، أية عظمة قام بها، وماذا قدم لفرنسا والعالم.

بعض السواح الشباب التقطوا لنا صوراً خاصة وأنا فاتح ذراعيّ، وبأعلى صوتي قلت: "غوستان" أحبك، وسيصل ما أكتبه عنك لعالم آخر، شكر خاص لك من صحفي عراقي، ساقه القدر ليكتب عنك.

في الليل بدا البرج كله عالم من الأضواء؛ لتصبح هذه الكتل الحديدية قطعة من نور.

كان صديقي يبحث عن مطعم قريب من البرج، مسكت قلبي بيدي، ماذا لو فعلاً أدخلنا بأحدها! هذا يعني سأدفع مصروفي لأسبوعين. ورئيس المجلة "مالك" اللئيم يقطر علي حقوقي بالقطارة، حتى الأماكن حجزها سوداء مثل قلبه. لولا الموسيقى و"سيفاكس" وأمه حولوا المكان إلى حزن.

لاحظ "آرثر" ترددي؛ فاستدرك الأمر، ربما هو أيضاً لا يملك ثمن عشاء في هذه المطاعم الفاخرة والمكان السياحي، لذا قال:

- ما رأيك نتعشى في فندقنا بعد استراحة، وأخذ حمام ينعشنا؟

وافقته على الفور، فقد أنقذني فعلاً.

عند وصولنا وجدنا الصلبة كلهم بانتظارنا، خاصة أننا لم نخبرهم عن رحلتنا لكنهم توقعوا سبب الغياب.

استأذنا منهم، واتفقنا على الالتحاق بهم في شقة "توماس".

بعد الحمام أخذت رغبتني بالتراجع في الذهاب الى أي مكان، كما أقلقني عدم الرد على هاتفي من قبل أسرتي في العراق، من غير المعقول ألا أخاطب أحدًا، تركت رسالة على الهاتف لرئيس المجلة السيد "مالك"، لكنني أعرفه غير مكترث إلا حين يحتاجني يتصل. لكن أخذ قلقي يشتد؛ كتبت لصديقي "فيصل"؛ أكد ثمة خطب ما، حتى على الخط العام لا يرد. رميت نفسي على السرير، وأنا في حصار قلقي طرق الباب "آرثر"، نهضت متباطئًا مضطرًا للذهاب معه، ونحن في الطريق حدثني قلقلًا:

- ما بك يا صديقي، هل أنت مجهد؟ أراك متوترًا، أليس كذلك؟
أجيبته بنعم، وتظاهرت أن لا شيء أبدًا، لم تكن المسافة بعيدة بين الفندق وشقة "توماس".

استوضحت من "آرثر" عن نوعية السهرة هذه، وطلبت منه الوقوف عند متجر لشراء زجاجتي نبيذ، لكنه رفض، لأنه يعرف أنني لا أشرب الخمر، وحين أجيبته أنها من واجبات الزيارة، اقتنع بكلامي، وظل يخبرني عن سهراتهم الجميلة المليئة بالإبداع بكل أنواعه، والحوارات والنقاشات الثقافية التي تثري العقل، وتشحذ ذاكرة القراءات لو أصابها النسيان.

نُرى ماذا سأحكي أنا الموغل بالطرق القديمة، والبيوت المتراففة
والشناشيل، حكايا الجارات كُلّ صباح ومساءً، شكوى ودموع وبكاء
ونميمة!

المتقل بحكايا شهرزاد، وتمرّع أرضي بشظايا الحروب! تطوقني
لعنة الأسياد وعشبة "جلجامش". اذكرني يا أبتى كي لا أنسى أنني
ابنك النشوان حزناً.

حين دخلنا وجدنا الجميع بانتظارنا، وقد أعدت مائدة تحتوي الكثير
من السلطات التي تفتح الشهية وبعض المأكولات الخفيفة،
كعادتهم هنا لا يتقلون على أنفسهم بالأكل ليلاً، كما كانت إلى
جانب الطاولة عربة من الزجاج مؤطره بالخشب الناعم وصفت
عليها أنواع الزيتون والأجبان، وفي الخانة السفلى منها أنواع
متعددة من الخمر.

كان الترحاب مختلفاً لا يضمّر إلّا ودّ المبدع للمبدع واحترام
المتقف للمتقف، لا يربطنا ببعض سوى انفتاحنا على الآخر،
وثقافته وإبداعه.

لم نشعر بالوقت مع الموسيقى والأحاديث الشيقة عن الفن الفرنسي، والشعر والرواية والمتاحف الفنية بفرنسا.

في هذه الجلسة كأني قرأت كتبًا متعددة شوقتني لرؤية الأمكنة، حتى أنني طلبت من "آرثر" أن يكون برنامجنا السياحي التالي لرؤية الجسور الفرنسية وقنواتها، ونعرج على كاتدرائية (نوتردام)، فهز رأسه إيجابًا: على الرحب، وكما تريد صديقي.

أثناء ذلك استسمحتهم بالاتصال "بسيفاكس" ليشاركنا بعزفه على آلة (البالالاياكا) وأوضحت لهم بكلام مقتضب عنه وعن تعلقه بي.

رحبوا بالفكرة وفتحنا معه الكاميرا، ارتبك في البداية لأنها المرة الأولى التي يلتقي بمبدعين من فرنسا، لكنهم بلباقتهم أبعدوا عنه الارتباك، خاصة حين بادر "توماس" بالعزف على آلة الكمان، وتواصل معه "مانيو" في العزف على الأورك، بمقطوعة لأشهر عازف كمان "أندريه ريو".

كنت قد قرأت عنه وعن سيرته؛ عشقي للموسيقى، وعازف عود أتابع من أشبههم.

شعرت بفرح "سيفاكس" لأمس روحه وروحي، وقلت: ليت معنا آلة العود، وقبل أن أكمل كلامي، دخل "توماس" غرفته، وأخرج لنا آلة العود قائلاً:

- أنا جاهز لكم جميعاً، دائماً أحظى بالفن والفنانين من أغلب البلدان وملتقي، ويزورني الإبداع في داري. ، وهذا العود تركه لي صديق تونسي زارنا قبل عامين، وقدمه هدية لي وقتما عرف بإعجابي الكبير بعزفه، وعندما سألته عن سعر العود ورغبتني باقتنائه؛ قدمه هدية، أربكني كرمه وقتها.

تناولته فرحاً باحتضاني له، فقد اشتاق حضني للعناق، بدأت بمعزوفة "محمد عبدالوهاب" (كليوباترا)، وأخذني العود معه حتى نسيت نفسي بأنني أعزف ارتجالاً جعل الجميع يصغي بصمت، فقد اعتدت على الارتجال، وتحويل ما بداخلي إلى نغم.

لم أنتبه إلا على صوت التصفيق منهم جميعاً، حتى لاحظت بريق الدمع في عيونهم، ولم أتوقع أنني كنت أشكو ما بداخلي عزفاً.

إلا "سيفاكس" سمعته ينحب ولم يتمالك نفسه، تركنا قليلاً وعاد ثانية، كنت متوقفاً أنه غسل وجهه لئلا يريني دمع اشتياقه لي.

الابتسامة عبر الهواتف ناقصة، ونهار العيون غير مضيء.



صمت وظل

لم يكن الصباح عادياً؛ صحنونا والأنغام تغمر روحينا، كان ينظر إليّ بجوارحه، وأحتسي قهوتي معه بحب عانق الروح، لم ينطق كلانا سوى كلمة صباح الخير.

لعله قال في سره، ما الذي جاء بهذا الرجل، لتتعلق روعي به، ونشترك بالغفران والبراءة!

وفي لحظة التأمل توهج السؤال: هل تغفر لنا مدننا؟ أم هي بحاجة لغفران الكون كله؟

أحياناً يصبح الكلام غير مُجدٍ أمام ما تحتويه الروح، والصمت أبلغ تعبيراً للتعلق الروحي بين المبدعين، انتظر كُلاً منا مبادرة من الثاني بكلمة، نظرنا إلى بعضنا، ثم ضحكنا بصوت عال، ونطقنا الكلمة ذاتها (كاتدرائية نوتردام)؛ وعلا صوتنا بالضحك ثانية؛ فأمسك "آرثر" بعلبة سجائره ونهض؛ ثم نهضت معه.

هذه المرة سلكنا طريق المترو؛ أسرع من الحافلات التي تقف كثيرًا في نقاط العبور.

الكاتدرائية من أمهر العمارة القوطية الفرنسية، وأنا أنظر إليها مرت عليّ أفكار "فيكتور هوغو" في روايته الشهيرة (أحدب نوتردام)، والتي تدور أحداثها في هذه الكنيسة، وقد وصفوا "هوغو" بأنه "شكسبير" الرواية، لما أخذته من شهرة عالمية. فقد اتخذ موقفًا ضد الظلم وغياب العدل بإنصاته لصوت الفقراء والمُعذَّبين المنبوذين، وفي شخصية الأحدب. أجاد "توني كوين" تجسيد هذه الشخصية بمهارة فائقة، في فيلم (أحدب نوتردام).

"هوغو" الأديب الذي ناصر الفقراء والمظلومين والحب والجمال ورجال البحر والأطفال، وانتصار الحب على الكره، وانتقد السياسات، يكفي أن روايته (مذكرات محكوم عليه بالاعدام) كانت سببًا بقرار إلغاء عقوبة الإعدام. كم أعجبتني أقواله والذي أثر في أكثر قوله: (حرروا الحرية، والحرية تقوم بالباقي). (إن الحديقة تتسع في الظلام؛ ثم تجد النهار فيه، كما تتسع الروح في الشقاء وتنتهي باكتشاف الله فيه).

كنت أتفحص معالم الكاتدرائية الجميلة المكونة من برجين في الأعلى والأقواس في الطابق الأرضي، إلى جانبها قلعة صغيرة يقف عليها تمثال فارس على حصانه بيده العصاة، ويقف بجانبه جنديان.

للكاتدرائية عشرة أجراس أكبرها يزن تقريباً ثلاثة عشر طناً، ويستعمل في كافة المناسبات، وهي واحدة من أشهر كنائس باريس.

استرحنا قليلاً، وقررنا الذهاب لمتحف (أورسي)، محطة القطار التي تحولت إلى متحف.

محطة قطار قديمة تتحوّل إلى مبنى مكرّس لفن القرن التاسع عشر. لأول مرّة، يتحوّل مبنى بهندسة صناعيّة إلى مجال ثقافي.

مكان أرصفة محطة القطار هناك القاعة الكبرى، التي تشكّل نوعاً من العمود الفقري الذي يغمره الضوء الطبيعي.

يشكّل متحف (أورسي) بأناقته وإطلالته، نجاحاً حقيقياً يقول معه هواة الفن:

(إن التحفة الأولى في متحف "أورسي" هي، المتحف نفسه).

يحتوي المتحف على صور الفن الرفيع والنفائس والقطع النادرة من الفن الانطباعي لفنانين كبار من أمثال الفنان "مونية، ورونزار". أسس المتحف الرئيس "متران" و"فاليزي جيسكار ديستان" سنة ألف وتسعمائة وستة وثمانين. من أشهر اللوحات لوحة (المساواة بعد الموت) للفنان "وليام بوغيرو". (وملهى لومولان دولاغليت) للفنان الشهير "بييراوغوست رينوار" وغيره من الفنانين ومثل لوحة (دانتي، وفيرجيل) رسمها "وليم أدولف"، تصور "دانتي وفيرجيل" وهما يشاهدان نفسين ملعونتين متشابكتين بالقتال.

إن جنة الانطباعيين تبرز في تمثيل الحياة المعاصرة عبر لوحات الرسامين الفرنسيين المعروفين "مانيه، دوغا، موني" وهم الذين يمثلون لحظات من الحياة اليومية للناس حينها، بالإضافة إلى المنحوتات والصور والإنجازات الأخرى التي تعود إلى الفنون التزيينية.

تعود فكرة تحويل محطة قطارات (أورسي) إلى متحف إلى فترة السبعينيات من القرن الماضي. كانت محطة الوصول للقطارات

القادمة من جنوب - غرب فرنسا - ولكن مع التقدّم التقني شهدت المحطة تحولات، من مركز تحويل الطرود خلال الحرب، إلى مكان للتصوير السينمائي، ثم تحوّلت المحطة نهائيًا إلى متحف باريسى من أحد المتاحف الأكثر استقبالا للزوّار في العاصمة.

يعود نجاح متحف (أورسي) إلى العديد من المنحوتات، وإلى أكثر من خمس آلاف لوحة.

مجموعة مذهشة من لوحات رسامي مدرسة الانطباعيين وما بعد الانطباعيين الذين مهدوا الطريق للفن الحديث.

في عام ألفين وأحد عشر، شهد متحف (أورسي) تجديدًا وتقوية لدوره كمتحف لفنون القرن التاسع عشر. جرى بناء صالات جديدة ومجال مكرّس للرسم "فان كوخ"

حيث تُعرض بعض لوحاته، خاصة رسومات ذاتية للفنان الشهير.

الغريب على الرغم من الوقت الطويل لنا في التنقل من مكان لآخر لم أشعر بالتعب؛ فأنا أعشق الفن، والإبداع قاطبة يسحرني لدرجة الخيال الجامح.

كثيراً ما أوحّت لي لوحة بقصيدة، أو قراءة لموضوع نقدي وصحفي، تحركت آلة العود وأوتارها بين أناملي، شعرت برغبة عارمة للعزف وتضائل قلقي الكبير بعض الشيء.

صحيح أن الإبداع رسول، وما أعظمه من رسول للإنسانية! لم أشأ أن أسأل "آرثر" عن الجسور، فقد قيمت الوقت الذي نحتاجه من خلال كلامه عنها وعن عددها وتفرعها إلى قنوات. لكنني شغوف إلى ذلك؛ تجاسرت وسألت فقط عن وجهتنا التالية.

تحسس بطنه، معرباً عن فوضى الجوع.

ابتسمت له: لم أشعر بالجوع أو العطش، كُلّ ما شعرت به حاجتي للعزف.

وضع إبهامه على فهمه:

- إذاً، دعني أرى إمكانية الحجز في مسرح الأوبرا الفرنسية الذي يقع في قصر (غارنيه) في ميدان الأوبرا، وسنصل إليه بالمترو، المهم نحصل على تذاكر.

رأيتَه استخدم هاتفه، ربما يحجز عن طريق الإيميل أو موقع مباشر للحجز، كان قاطب الحاجبين، لكنه فجأة ابتسم:

- لقد تم الحجز صديقي.

وخجلت أسأله عن سعر التذكرة.

لا تهتم إن الكلفة لا تتعدى وجبة عشاء.

دخلنا قصر (غارنيه) دار أوبرا باريس، حيث تم تصميم القصر ضمن حملة الإعمار خلال الإمبراطورية الثانية التي وضع أسسها (الإمبراطور نابليون الثالث).

البناء الفخم تحفة معمارية، في واجهة القصر منحوتات تمثل الأساطير، وتصاميم القصر من الداخل مليئة بالزخرفة والأفاريز الرخامية متعددة الألوان والأعمدة المزدانة بالصور والمنحوتات.

داخل هذا القصر مسرح الأوبرا إذ لاحظنا وجود التماثيل البرونزية لعدد من الملحنين العظام مثل "بتهوفن، وموزارت، وروسيني" وآخرين غيرهم. تقام هنا الحفلات الموسيقية وعروض الباليه، والمبنى يحتوي على ممرات واسعة وسلالم ومقصورات، وتماثيل

وإنارت ضوئية، التماثيل للملائكة والحوريات، حتى الرسومات احتوت الشكل ذاته، بالإضافة لوجود مكتبة تحتفظ بسجل الدار منذ ثلاثة قرون.

حتى على مدارج البناية من الخارج تقام حفلات لعازفين في الهواء الطلق.

تحيط المبنى فنادق فاخرة، ومطاعم من الدرجة الأولى.

خرجت وصور المعرض تملأً روحي، علماً لم أفهم الحوار الأوبرالي من المؤدي ولغته الفرنسية، إنما الموسيقى حلقة الوصل الإنساني، ملأت كياني.

هي أنامل في الوجد، وملاك يسكن عروقي، طربي وطريقي.

قال: ألا تشتهي فلافل عربية؟

أجبت: أريد أكلة فرنسية شعبية، وفي مطعم شعبي، أحب الأحياء الشعبية؛ فلنتسكع هناك يا صديقي!

أخذني إلى حي شعبي، واختار لنا مطعم (الرجل الأزرق)؛ مطبخ مغربي بأثاث بسيط، يقدم الكسكسي، والطاجين والفلافل، وأطباقه

من اللحم الضاني المذبوح حلالاً، إضافة إلى الصلصات المغربية الخاصة؛ لهذا كان مزدحمًا بالسواح وسكان باريس.

على الرغم من عدم شعوري بالجوع إلا أن رائحة المطبخ العربي جعلت عينيّ تدمعان؛ لشعوري بانتماء الهوية.

سألت "آرثر" عن نوع الأكلات الأخرى، تحديداً الفرنسية، قال: طبق شعبي، فهذا المطعم يحتوي الكثير حسب الطلب، إنما الأساس الأكل المغربي.

قلت: لا بأس بأس، فقط رغبت تجربة الطهي الفرنسي، لنزوجهما لبعض فلعلهما ينجبان لنا طبقاً مختلفاً.

ضحك صديقي قائلاً: طلبت لك طبق (كوك أوفين) من الدجاج الناضج بشكل بطيء واللحم المقدد بالمشروم والبصل والثوم.

- لو أكلت هذا كله؛ أين سأضع الفلافل؟

قال: زوّجها له!

وملأنا روحينا بالضحكات الخارجة من القلب.

- ستكون الفلافل حصتي، والطبق الفرنسي لحضرتك.

كانت لحظات لا تُنسى خاصة باسترجاعنا عن جولتنا لهذا اليوم المميز، وقرارنا بالسهر معًا في صالة الفندق.

من تعليمات الفندق أن التدخين ممنوع في الصالة، كان "آرثر" يخرج لدقائق ويعود متذمرًا: إنها تعليمات مجحفة بحقنا!

قالها بالفرنسية، ويبدو أن الموظفة سمعته؛ فردت عليه بالفرنسية، لكنني استفسرت عن كلامها فقال لي "آرثر":

- تقول إنكم مجحفون بحق الآخرين، تملأون صدورهم بسموم الدخان، وهم لا ذنب لهم.

- صدقت السيدة يا صديقي!

- هل يضايك ذلك؟ خاصة أنت لا تدخن ولا تشرب الكحول، فأنت مجحف بحق التحليق والانطلاق الإبداعي.

قضينا أمتع السهرات، خاصة حين تكون مع مثقف ومبدع يكون التبادل الفكري والمعرفي وطنًا لنا معًا.

بقينا حتى الثانية مساءً، أوضح صديقي:

- سأخذك غدًا في جولة نهريّة لتتعرّف على جسور فرنسا والقنوات المائيّة وأيضًا معالمها الأخرى.

- وهو كذلك، مؤكدًا ستكون رحلة مختلفة، ثم أنني ابن الأنهار وعلاقتي بالنهر حميميّة، احتضان وانتماء، تصبح على خير صديقي العزيز.

قبل الحجز للرحلة الفنيّة، تمنيت من صديقي أن نبدأ بجسور باريس، جسر "ألكسندر الثالث"، أكبر جسر في باريس؛ فوافقني الرأي قائلاً:

- ليكن، المهم كلّ يوم لنا جولة قبل انتهاء عطّلتني!

فضلنا أخذ قارب نهري، خاصّة حين وجدت مسافات بين جسر وآخر.

كان القارب صغيرًا لا يتسع إلا لثلاث عوائل، حين صعدنا وجدنا عائلتين، فصار عددنا ستة ركاب، نحن الأصغر سنًا بين أربعة كبار في السن. كانوا كما العشاق، صحيح أن الحب لا يعترف بالسن، ويبقى القلب نابضًا به حتى آخر لحظة.

بالحب نتعمد ونتوضأ، حتى في رعشة الخوف يحتوينا لنجتاز لحظتنا.

أول ما صعدنا القارب؛ بدأ الدليل السياحي يشرح لنا عن الأماكن الجميلة:

- كلما نمر بمكان سأخبركم عن اسمه، ومن لديه أي سؤال يخبرني قبل أن نجتازه.

وراح يوضح لنا:

- إنها تربط ضفتي نهر السين، وتمنح المدينة سحرًا خاصًا.

سبعة وثلاثون جسرًا في باريس، تم بناؤها في أوقات مختلفة، يبلغ عمر بعضها مئات من السنين، ولكن هناك أيضًا عجائب هندسية حديثة.

الجسر الأول هو (الجسر المقوس).

عند مدخل الجسر شعلة الحرية، تم التبرع بهذه النسخة المذهبة من شعلة تمثال الحرية من قبل أمريكا لفرنسا، كدليل على الصداقة بين البلدين.

حكى لنا عن نقطة مهمة حول (جسر كونكورد)، إذ يشتهر هذا الجسر في المقام الأول بحقيقة أن حجر الباستيل المدمر تم استخدامه أثناء بنائه.

في السابق، تم تزيينه بثمانية تماثيل لجنرالات نابليون بونابرت الذين لقوا حتفهم في المعركة، لكنهم كانوا ثقلاً لدرجة أنه تم نقلهم إلى فرساي.

مباشرة خلف الجسر يوجد جسر المشاة الضيق المتواضع، يربط بين متحف (أورساي ورصيف التويلري).

كُلّ منطقة نصلها هي تحفة فنية رائعة، وها نحن تحت جسر (ألكسندر الثالث)، عمودان من كلا الجهتين على ارتفاعهما نصب لتمثالين.

يعد جسر (ألكسندر الثالث) أحد جسور باريس المشهورة، والتي أقيمت فوق نهر السين، ويتكون من جزء معدني واحد طوله مائة وسبعة أمتار، وعلى جوانبه عدة تماثيل من البرونز لشخصيات أسطورية قديمة، أما في الجزء الأمامي من الجسر فيوجد عمودان كبيران عليهما نقوش بارزة، وأعلاهما تمثالان باللون الذهبي

يتألقان صباحًا ومساءً. ويربط هذا الجسر بين حي (الأنفاليد والشانزليزيه) وأطلق عليه اسم "القيصر ألكسندر الثالث" إمبراطور روسيا، الذي قام ابنه "نيقولا الثاني" بافتتاحه؛ توطيدًا للعلاقة بين البلدين.

المصابيح على شكل فوانيس، واحد كبير في الوسط محاطًا بأربعة فوانيس أصغر، ومثبت على عمود من تماثيل. في أسفل الجسر أقواس بيضاء مرتبطة مع بعضها وكأنها حبال مذهبة.

لقد هدمته ألمانيا في زمن هتلر، كما دمرت المدينة وقد طال الجسور هذا التدمير، لكن قام مقاومون فرنسيون معهم مغاربة ولبنانيون وسوريون بالمحافظة على الجسر قبل وصول الألمان إليه.

مررنا (بجسر الفنون) كان مختلفًا، هو وجهة العشاق من كل مكان، معلقة على امتداده أقفال، قد تكون ذكرى لحب نشأ هنا، أو وعد ينتظر على يمين الجسر معهد فرنسا بأكاديمياته الخمس، وعلى يساره (متحف اللوفر)، يستأنس المشاة عليه، ربما يتخيلون كم عاشق مرّ هنا.

أما (الجسر الجديد) فهو تحفة فنية وثورة في عالم الجسور، وهو أول جسر حجري فيه رصيف للمشاة يفصلهم عن ممشى الخيول، يحتوي هذا الجسر على اقواس وأقنعة، وتمثال للملك "هنري الرابع"، وضعت أسفل الجسر تماثيل لوجوه مخيفة، طردًا للشياطين.

بعد تحطيم الجسر أعيد بناؤه، فاكتشفوا كنزًا كبيرًا أثناء ذلك.

وجدوا قطعًا من الذهب تحت التمثال، ثلاث علب معدنية ووثائق عن الملك وهدايا تحمل صورته وكتاب فولتير وأسطوانة معدنية صغيرة فيها أوراق مطلية بالغراء الحيواني؛ كي لا تتلف الخريطة الموضوععة فيه، والذي قام بذلك كان معاديًا للملك، ومناصرًا "لنابليون".

أنشئت عدة قنوات على هذه الجسور، وهي جسور صغيرة حين سألوا "نابليون" قال: القنوات لي، والخشب والأحجار للشعب، فكان الناس يأتون لهذه القنوات للترود بالماء والغذاء وباقي الحاجيات.

كانت رحلة مختلفة حقًا كدتُ أسكت القلب عن بغداد في جولتي ولم يسكت، والظل يهز كتفيه كلما مررنا بمنطقة راغبًا النزول لاكتشاف النساء الجميلات.

أشرت إليه: ألا تعجبك هذه المباني الفخمة وتاريخ الجسور؟ همك الأساسي النساء؟ أنت لا تشبهني إطلاقاً!

- وهل هناك أجمل من متعة الجسد في الحياة! هل أنت تمشي بلا متعة، لقد أخرست جسدك، وتركت عقلك الناطق فقط، والنتيجة لا تدري أين يؤول بك المصير.

ثم أردف: لك دينك ولي دين، لكن هذا لا يثقب فجوة في الجدار بيننا، ربما سأخضع لك، أو تخضع لي، فكلانا لا يحمل صخرة الانحناء.

سمعي "آرثر" أقول:

- لي طريق ولك طريق؛ فتعجب متوقعاً أنني أريد مفارقتك، وقبل أن يسأل أجبتك: إنني أحاكي ظلي.

- أي ظل؟

- أمزح معك صديقي العزيز، أحياناً أهذي مع نفسي، لا عليك. لكن كنا نبحر في عالم الجمال. رقص خافقي لعظمة باريس!

السماء هنا جميلة، رغم بعض الغيوم، وهنا لا تذلل الكهرباء ناسها.

ولو سألتني يا صاحبي، مَنْ أنت الآن بعد هذه النزهة الراقية؛
سأقول لك لا أدري، التي تحاصرني أصرخ من عفافها، من وجعها
وفرحتها، من قديمها والجديد.

- مَنْ تقصد، هل عشقت ولا ندري؟

- لو تراها لعشقتها أنت أيضاً، لو رغبت العودة معي، ستعود إلى
طفولتك، وأنت في رحاب بغداد.

- نعم صديقي "آرثر" إني أستحم برائحتها لأتطهر.

- لنستحم في الفندق، ونخطط لرحلتنا القادمة.

قالها متأثراً بلغتي حين تلامسني رعدة الحنين، بينما الظل زاماً
شفتيه مشيراً بشوقه للسيدة في الفندق، يا للعنته!

نتشابه محققين ببعضنا، نختلف في البحث عن الغائب، ونرتعد
معاً حين تكبر المؤامرة حولنا.



سعود معي كي يتطهر في النهر

عندما أعطي نفسي للنهر؛ لا أهاب شيئاً بعدها ولا أخاف.

لم يعد بمقدوري تحمل لغز الأسرة في بغداد، ولم تعد تظهر "جميلة" ولا صديقي "فيصل" يفصح، حتى لو كتبت له رسالة يرد باقتضاب.

شربنا الشاي في مطعم الفندق، كان صديقي "آرثر" نشيطاً متورد الوجه، يبدو نام نوماً عميقاً، قال لي:

- اليوم سنزور (متحف اللوفر).

- يسرني ذلك.

الظل يراقب وصدره يرعد، لا يرغب بصور وتماثيل، وأضرحة وجسور.

- أولاً أريد زيارة متحف "بيكاسو".

- وهو كذلك، لنبدأ منه، سنأخذ سيارة أجرة أفضل.

متحف "بيكاسو" في باريس ثاني أكبر متحف بعد برشلونه، والذي يضم أكثر من خمسة آلاف عملاً، ويستقبل أكثر من مليون زائر سنوياً.

المبنى يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي، وقد كان قصرًا تحول إلى مدرسة، وعادت ملكيته للدولة بعد الثورة الفرنسية، وبيع إلى أشخاص، وتحول إلى فندق، ثم تخصص كمتحف. وقد قدم ورثته بعضًا من لوحاته التي تم تخصيصها للمتحف.

في المتحف أكبر مجموعه من أعمال الرسام الإسباني "بابلو بيكاسو"، والتي تصل لأكثر من خمسة آلاف لوحة.

الكتاب التوضيحي معي يقول: تجدد المتحف عام ألفين وتسعة، وفتحت أبوابه مرة أخرى للزائرين في عام ألفين وأربعة عشر، بعد أن تمت عمليات التجديد، وأسفر التجديد عن زيادة مساحة العرض إلى ثلاثة أمثالها؛ كانت اللوحات مقسمة على خمسة طوابق، ارتقينا السلالم في محاولة رؤيتها كلها قدر المستطاع، والمكان هادئ الألوان؛ أغلب حوائط الصالات أبيض اللون،

وبعضها فيها منصات خشبية بيضاء، خاصة لمجسمات الحيوانات وبعض التماثيل. كما أن هناك بعض المنحوتات الخشبية.

لم يكن "بيكاسو" رساما فقط، فقد كان نحاتًا ومصممًا ومصورًا، وفنانًا خفياً، وقام بتصميم ديكور مسرحي.

من أقواله: (الفن هو الكذبة التي تجعلنا نكتشف الحقائق). رسوماته التكميلية شغلت الكثير من المعجبين بمدرسته، كما احتوى المعرض صورًا لآلات موسيقية.

فهناك لوحات لفنان يمسك آلة الكيتار ماديًا ساقيه على الأريكة، كما هناك منحوتات على الخشب والجبس لوجوه وأجساد سيدات كتب تحت إحدى اللوحات أن ثمنها أكثر من مليون دولار.

ونحن نرتقي السلم إلى الطابق الثاني وكان إطار السلم مصبوغًا باللون الأسود، وموكيت بني فاتح على الدرجات، إضافة إلى المنحوتات المجسمة من التماثل على الحائط.

كان حجم اللوحات يتراوح بين الصغيرة والكبيرة على الحائط المصبوغ باللون الرصاصي، وأيضًا اللون الأبيض.

صورة له وهو يرتدي الفانيلا قرب لوحة رجل يعتمر القبعة ومنخاره تحت عينه اليمين، منخار عريض بفتحتين كبيرتين مختلفتين وعينين كبيرتين، منحوتات على شكل مجسمات. لم أكن على دراية بهذا اللون الفني، وكنت أتمنى أن يرافقني ناقد فني ليوصل لي فكرة كُلّ لوحة.

أكثر لوحة عرفتها صورة المرأة الحالمة، عارية الكتفين جالسة على كرسي أحمر وشعرها الأصفر منسدل على الظهر، بقلادة بُنيّة اللون.

كان الظل هازئاً وفي فمه رغبة للضحك، حين سألته قال لي: رسامكم هذا مجنون؛ رسوماته عين عالية وأخرى قرب الفم في الوجه، ماذا تعني، هل فهمت منها شيئاً؟

ابتسمت أنا الآخر، ولم أفه بكلمة.

هاتف "آرثر" بقية الرفاق، وطلب من "جستين وتوماس" إذا لديهم وقت يلتحقون بنا في متحف (الوفر).

جلسنا في مقهى قرب مبنى المتحف، كلانا يتابع الآخر، أنا و"آرثر" ويتمنى احتضاناً مختلفاً.

هاتفك "سيفاكس"، وطلبت أمه لأطمئن عليها، وأسمع صوتها
لأنني اشتقت للغتها الإنجليزية المتعثرة، وودها الكبير.

جمعتنا الكاميرا، وتحدثنا معها، و"سيفاكس" يؤشر إلى قلبه.

وصلنا إلى الضفة الشمالية من نهر السين، حيث بناء المتحف
الجميل.

كان قصر اللوفر قبل أن يكون متحفًا، إذ يحتوي عشرات آلاف
من اللوحات والقطع الفنية والتماثيل، وحسب أقسامه التنظيمية إنه
هندسة معمارية تشد الزائر إلى ضخامتها وقيمتها البنائية الفنية،
خاصة الهرم الزجاجي في وسط القصر.

والمتحف مقسم إلى أجزاء عدة حسب نوع الفن وتاريخه، ويبلغ
مجموع أطوال قاعاته نحو ثلاثة عشر كيلومترًا مربعًا، وهي
تحتوي على أكثر من مليون قطعة فنية سواء كانت لوحة زيتية أو
تمثالاً.

وبالمتحف مجموعة رائعة من الآثار الإغريقية والرومانية
والمصرية، ومن حضارة بلاد الرافدين العريقة، بالإضافة إلى
لوحات وتماثيل يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر الميلادي.

دخلنا إلى المتحف من خلال هرم زجاجي ضخم في قاعة كبيرة تحتوي العشرات من اللوحات النادرة لعباقرة الرسامين، تنصدرها تحفة "دافينشي" الشهيرة (الموناليزا) التي تجمهر الزوار حولها، وفعلاً كانت لوحة محيرة، في أي اتجاه نقف نجد الصورة تنتظر إلينا من ذات الاتجاه.

والى يمين القاعة الكبرى، هناك قاعة ضيقة يعرض فيها بعض لوحات الرسام الفرنسي "تولوتريك"، وفي قاعة أخرى من المتحف لوحة زيتية شهيرة؛ هي لوحة تتويج "نابليون الأول".

وكما يحتوي المتحف على العديد من الآثار الشرق أوسطية، مصر القديمة، والحضارة اليونانية والتماثيل الأيروتيكية فيها، والحضارة العراقية، والفارسية.

عرجت صوب الجناح المصري والعراقي؛ فالأقسام كثيرة، لا يمكن مشاهدتها كلها في يوم واحد.

حيث ضم الجناح المصري العديد من المنحوتات، المأخوذة من المعابد، والمجوهرات والإكسسوارات وأدوات الزراعة، والمومياءات، التوابيت الفرعونية داخل صناديق زجاجية، كما عرضت أدوات التحنيط، والأواني التي استخدمها القدماء.

وكننت أكثر تحمسا لدخول الجناح العراقي.

وقفت متسمرا عند واجهة المدخل، لم تسعفني قدامي في الدخول، وكأنني على بوابة تقودني إلى الجنة والنار، سبقتني ظلي ودخل، بينما "آثر" يمسك بيدي، قال لي: يدك ترتجف، ما بك؟

قلت له: إنه العراق، لم أستطع أن أطلق لحنجرتي حريتها، صرت كطفل يقوده أبوه، نعم أشعر بيد "آثر" تمسك بيدي.

ثوران عند مدخل البوابة، اجتزنا المدخل؛ فقادتنا القاعة إلى كنوز أثرية عراقية، أخرجني السؤال؛ كيف وصلت حوائط كاملة منحوتة بهذا الطول إلى باريس؟ مسروقون نحن من الجميع.

مسلة النصر التي أقامها الملك "نرام سين" ملك أكاد، وبها منحوتات على شكل أشخاص بمعركة. على ما أظن تمثاله في قمته، وجزء من مسلة "حمورابي". لوحة جدارية لتتصيب ابن الآلهة "إيل"، إضافة لقطع ألواح مكتوب عليها باللغة المسمارية.

آنية من الفضة، ومسلة "سرجون الأكدي"، توقفت أمام كنوز الملك "نبوخذ نصر"، وتمثال عشتار، من الرخام الأبيض المزين بالياقوت والذهب.

هنا أطلق صوتي لنفسه العنان، وصاح:

- يا ويلي! حتى لفتّ أنظار الجميع. الأواني من عصور مختلفة
تبتسم لي، وشعرت أنني المسروق، رأيت أوصالي موزعة على
الجناح كله. بدني يرتعش، وأنا أفشّ عني محاولاً إعادة أوصالي
إليّ، أخاطب المهاجر في روحي، الذي صار جزءاً من "جميلة".

كيف يصل حائط طويل بهذه المنحوتات من الأفراس والأبطال
والملك الآشوري وهو يقود جيشاً، من انتهبك هذا الستار، وسرق؟

طلب مني "آرثر" الخروج من الجناح العراقي، والتجوال في
الصالات الأخرى.

أظنه أراد إنقاذي، أو اعتقد أنني أصبت بروح تلبستني من
أجدادي.

- الأجحة كثيرة، ما رأيك لو نطوف بها؟

لم أرد عليه، حتى ظلي بقي صامتاً يتبعني. اتّصل بباقي رفقتنا،
وطلب منهم الحضور إلى الحي اللاتيني؛ للترفيه قليلاً عن
"مناضل"، فاستجابوا لطلبه، وأشار لسيارة أجرة.

قال: سيتأخرون قليلاً علينا، لا نهم مرتبطون؛ لذا سننزل عند (قوس لاديفونس).

قال: سيعجبك المكان، هو يطرح بعض المزح تقادياً لما تهشم في روحي وأصابني بالوجوم.

منطقة (لاديفونس) مجموعة من الأبراج الحديثة، تجعلها متحفاً حديثاً، فهي أكبر منطقة تجارية.

في القوس الفولاذي والزجاجي الكبير اكتشف المناطق الجديدة والاستمتاع بالعديد من المساحات حوله، بالإضافة إلى النوافير والحدائق والفنون؛ مثل "كالري ألكساندر كالدو"، وبه متحف في الهواء الطلق.

بُنِيَ على شكل مكعب عملاق تمّ تفريغه من الداخل، وإحاطته بالزجاج ليبدو مثل الثلج.

يرمز إلى القوة والصناعة الفرنسية والفن المعماري، ويهدف إلى الجانب الإنساني للفرنسيين.

حتى شرب القهوة هنا له طعم ورائحة الحداثة، احتسبناها على عجل في مقهى قريب من النصب، وغادرنا إلى (الحي اللاتيني).

عندما يصرخ في داخلك وطنك؛ تجد مرورك بالمناطق كمرور
طارئ على المكان. تأكلك الكلمات وتحترق في حنجرتك.

أنا وحيد يا صديقي، وظلي هو الآخر، أراه مثل مدخنة.

نهض ملدوغًا بكلامي:

- أهلكتنا بظلك، أين هو ابن اللعينة لأخنقه؟

- أنا هنا، قالها ووضع يديه حول عنق "آرثر".

صاح "آرثر": "إني أختنق، ماذا حصل؟

هنا تحدثت أنا:

- تتهمني أنني أصبت بلوثة المتحف وتلبستني روح أجدادي، ها
أنت الآن تتلبسك أرواح الفن الحديث في بلدك.

- لا لا، هي آثار التعب يبدو، لنأخذ سيارة أجرة ونلتقي بالرفقة،
كتبوا لي أنهم وصلوا، وتركوا لي اسم المقهى، أدري يا صديقي أن
المنطقة تعج بالحياة النابضة، بالأجواء الصاخبة، ويمكننا زيارة
الكثير من أشهر المعالم السياحية في باريس عند الوصول إلى
هذا الحي الراقي.

يمتاز الحي بتاريخه العريق حيث يضم بين أروقته العديد من المزارات التاريخية، كما وفيه الكثير من الأنشطة الترفيهية التي لا حصر لها، وسوف نكرر المجيء إليها لنرى الأنشطة المُسلية والاستمتاع بها.

يقع الحي اللاتيني في وسط باريس بالجهة اليسرى من نهر (السين)، حيث يُعتبر هذا الحي هو البلدة القديمة لمدينة باريس.

يشتهر الحي اللاتيني باسم "الدائرة الخامسة"، ويجذب ملايين الزوّار على مدار العام.

- نعم قرأت عنه الكثير، وأحببت رؤيته قبل أن أفكر بالمجيء هنا، لكن "جميلة" ما تزال غائبة.

- أهذا ما فكرت به الآن؟

- لا، فكرت بها في الجناح العراقي، وآثارنا، هناك سمعت صوتاً يهمس بأذني: أين "جميلة"؟

لم أستطع الرد وخرست، جننت، نظرت في كلّ الاتجاهات، لم أر غير الأحجار.

- من هو الهامس إذًا؟

- هناك شيء بين أضلعي، همس رادًا على الهمس: "جميلة" لم ترد على الهاتف.

- نعم سمعته تقول ذلك، وخشيت أنك أصبت بلوثة المكان.

في الشارع كنا أمام متحف قديم وأبواب الخشب والمحلات المتنوعة تقود إلى عراقية المكان من كلا الجانبين.

الفاترينات والعمارات المتقابلة والمقاهي، هذأوا من وضعي النفسي، فأنا اعشق الأمكنة المكتظة بالناس، واتخيل كم عشاق مروا، وكم حكاية، وكم فنان، وكم قصيدة شعر أو لوحة استوحيت من الجلوس في مقهى، أو مرورًا بالحي.

كُلّ هذا العالم والحياة والأنوار، واللافتات المضيئة وعناق العشاق لا يبهج صدري مثلك يا بغداد. أنقذيني منك ومنّي، دعيني أستمع ولا يأخذني فقدان "جميلة" مني ومن صباحاتي وناسي. لماذا أشعر أن خطبًا ما حدث لـ"جميلة"، هي لا ترد، والأولاد والجميع.

في الساحات أسواق بمظلات، أسواق مؤقتة بكل ما لذ وطاب، من المأكولات، والخبز والكيك، والأواني والحلي، حتى المستعملة منها أو الأثرية.

إنهم يمرون، كثيرون مروا أمامي، وأنا جالس مع كُلّ الرفقة "آرثر، جستين، توماس، ماثيو"، والظل يتمنى تذوق الكعك المحلى بالجزر والمكسرات التي اشتريتها من مخبز (لابارزيان) لإفطارنا في الفندق وتغيير الروتين فيه على الرغم من تنوع الإفطار كُلّ ثلاثة أيام. لكنه يبقى في حسرة تمنى التذوق.

بعيدًا عن النهايات والتعب البدايات، جلسنا في أقرب مقهى، اخترنا الجلوس في الخارج، وقد كان الداخل مكتظًا، وصعوبة الحصول على كراسي فارغة على الرصيف.

كانت اللغة عائقًا لقراءة الأسماء، كما كنت خجلًا من تكرار الأسئلة.

كنا نتحدث عن الذين جلسوا هنا، هل كان بهم غريب مثلي، وتحدثنا عن سهرتنا الليلة في دار "توماس" مقترحين أن تكون سهرة غناء وموسيقى وشعر.

- سيكون ذلك بشرط أن تأخذوني لبعض المعالم في الحي، خاصة جامعة (السوريون). وسألني "توماس" عن جولتي اليوم، كما أخبرته عن إعجابي (بقوس لاديفونس).

ظلي صار مثلي، فقد تجمد مثل تمثال وهو يرى تاريخه المسروق، ليس في باريس فقط. تذكرت سرقة آثارنا بعد السقوط، وغياب هاتف "جميلة" الذي أصابه الخرس.

قالت "جستين": ما دخل "جميلة" بالجناح العراقي في (متحف اللوفر)؟

نهض "آرثر" من مكانه، وأمسكني من ظهري:

- أنا أفهمك، تلتف حول عنقك بغداد، وتأخذ نصيبها من فرحك وحرزك.

لنذهب في نزهة إلى (حديقة لوكسمبورغ) قالها "آرثر" غامزاً للجميع. خاصة أن "جستين" معها سيارة، وستسهل علينا الكثير من التنقلات.

مررنا بها عابرين بمبناها الأبيض ذي القبة والأعمدة، يتوسط
المبني من الأعلى تماثلان بينهما ساعة، وكأنهما يحتضنان
الوقت.

أشعرتني ذلك بهدوء نفسي، وفكرت بماذا يمكننا المرور بعد ذلك؟
قال "آرثر": سنريك عن بعد رؤية نافورة (سان ميشيل)، وتجمع
الناس حولها للاستمتاع بنافورتها وتماثيلها.

قلت: وماذا بعد قبل أن يدركنا الليل والتعب؟

سترى، قالت "جستين": لا تهتم للوقت.

فعلاً كانت النافورة تستحق المشاهدة خاصة تماثيلها المرمية،
وقلت لأصحابي:

- أنتم تزينون معالمكم بالتماثيل، ونحن نحرمها، فلو كان هذا في
بلد إسلامي لألغيت كل هذه المعالم، أو هُدمت تماثيلها.

لهذا سلطوا داعش على تهديم حضارتنا في الشمال، قاصدين
إلغائنا، وإلغاء ثقافتنا وماضينا، ويقولون لي لقد كثر حديثك عن
"جميلة" وهانفتها المغلق!

غداً سنتجول أنا وأنت قالها "آرثر" لنذهب إلى مقبرة العظماء أو ما يُسمى "الباشيون" داخل الحي اللاتيني، حيث تم دفن العديد من الشخصيات الفرنسية المهيبة من أشهرهم "أونوريه غابريل ريكيتي، وكلود لوي بيتيه، فولتير"، وغيرهم الكثيرين.

وسنخرج على المسجد أيضاً، غداً سنتتهي إجازتي.

أوصلونا إلى الفندق، أنا و"آرثر" وغادر كلٌّ إلى مكانه.

نزلت إلى الصالة، دقائق ونزل "آرثر" أعرفه لم يتعشى، وأظنه كان ينتظر مني إحضار الكيس، اتّصلت بعامل في المطبخ ليطلب لنا عشاء، سألت "آرثر" إذا يحب الحساء أو اللحم، قال: اللحم، كنا جائعين فعلاً.

بالمناسبة، نسيت الكيس في ثمة مكان للأسف.

واسمح لي بسؤال ريثما يصل الأكل:

- لا أحب الدخول في الخصوصيات، لذا سيكون سؤالي حول حرية الصحافة في باريس، فقد وجدتتها غير ذلك في موسكو، لا تشبهوننا في العراق، نحن لا نملك قلماً مؤثراً لتغيير الواقع، ولا

هناك من يستمع إلينا لنغيّر، كما حصل مع "فيكتور هوغو" في روايته (مذكرات محكوم عليه بالإعدام)، لقد استطاع القلم إلغاء حكم الإعدام، والفكرة أن هناك كاتب عظيم مؤمن بالإنسان، وإعطائه فرصة ليستقيم حتى لو كان قاتلاً، ودولة تسمع وتؤمن بالإنسانية، وتحول إيمانها إلى حقيقة.

أثناء ما كنا نأكل طلب ظلي شيئاً لم أفهمه، زعقت به فسمعتني الجميع، خجلت من نفسي، عندما نظر إلي "آرثر"، وأطرق برأسه أرضاً.

كتبت رسالة "فيسل"، قرأها، ولم يرد، هاتفته لم يرد، هل يعجز لسان صحفي عن امتشاق الكلمة من غمدها؟

الأيام تتجاهلني تماماً، كان كلامي قوة وتأثيراً على "فيسل"، واليوم يتجاهلني، كنا نخطو الخطوة الواحدة، ونقول الكلمة الواحدة، ونهمس الهمسة معاً، وننتهي لمحرقه الصحافة.

شعر "آرثر" أن بي رغبة للبكاء:

- لا تخجل، أطلقها مثل طفل.

قلت: مَنْ تقصد؟

- حتى السماء تبكي حين تمطر، قد تكون مشفقة علينا، أو من ثقل الغيوم.

كانت بي دفقة دم، ترتعش في عيوني، ولم تكن دموعاً؛ فذهبت إلى الحمام أغسل وجهي.

- إنه الليل، بفضلته نكون حقيقيين مع أنفسنا، نطفئ شهوات قلوبنا، وبه نتحدث معه عن المسكوت فينا، وفي محيطنا.

- لم تحدثني عن بغداد؟

الحديث عنها يحتاج دنيا بأكملها، ماضيها وحاضرها، مكتبة كبيرة لا تقي بالغرض والحديث عن ثراء بغداد، ألا تذهب معي حين أرجع؟

مدد إجازتك أسبوع، وأنا أطوف بك من الصبح حتى الفجر فيها.

- أراك مجنوناً فيها!

- أجمل وأعذب وأصدق جنون. بغداد نهر سماوي على الأرض، هل تستطيع التحديق في الشمس؟

- لن أمكث سوى ثانية.

لتأخذ راحتك استعدادًا لجولتنا القادمة، عمت مساء.

- أخاف عليك من هذه الثواني هناك.

يبدو أن "مالك" استغنى عن التفاصيل الأخيرة عن باريس، حتى هو لا يرد على هاتفي أو رسائلي.

ما الذي حدث؟ أعرف أن في بغداد ذراعين، وذئاب، عشاق، ولصوص، نهران وأسطح منازل، حيوانات متوحشة، وحدائق وثكالي، وأطفال شوارع، وناس تأكل مصارين السمك. حجاج وغوان، مساجد وملاهي قمار، وأحبها بروح نبي، كجمع آلهة في مدينة.

كيف سيحجز تذكرة عودتي؟ لم أنتبه أن اللعين "مالك" حجز لي ذهابًا دون عودة، ولم يرسل لي مصرفي الجديد، ولم يرد علي "فيصل".

سدد إيجار الغرفة هنا لأسبوع، وتركني في حيرتي، هكذا هم سراق قوتنا وقوتنا، علي التصرف غدًا، وأقف أمام هذا العالم الصدي، كأمة من التحدي.

ونحن على مائدة الإفطار سألت "آرثر": هل هناك محل قريب لبيع الساعات؟

- هل تريد الشراء أم البيع؟

- البيع، أبيع خاتماً قد لا يثمن بالكثير، لكنه يؤدي ربع الغرض.

سأل عن سعر التذكرة إلى بغداد، فرحت بجنون:

- هل تنوي السفر معي فعلاً؟

أجاب: نعم، وقت تقرر عودتك أخبرني، قلت له بعد غدٍ سأعود.

- لنكمل إفطارنا، ونكمل نزهة الأمس.

يسرع الظل قبل الجميع كعاداته، ويزاحمني في الدخول.

عالم باريس في الأزياء والعطور؛ (إيف سانلورنس، جيفينشي، شانيل، ديور)، وهوس السواح من المقتدرين، هذا غير المحلات الراقية الأخرى، تعطي باريس خصوصيتها وامتدادها الإبداعي في كل شيء.

أوصلنا السائق إلى (البنسيون) كما طلب "آرثر" كان المبنى كأنه كنيسة، بناؤه أعمدته، قبته، تماثيله، فعلاً مكان للعظماء، دخلنا في سرداب المدفن أمام بعض القبور تمثال لصاحبه.

الجنرالات وأكبر الأدباء والفنانون؛ في المدفن "فولتير، نيكولا جوزيف، أوغستين، جان جاك روسو"، وغيرهم الكثير.

تركت المكان وأنا أصرخ يا وجعي! أصرخ من الداخل، على عظمائنا، وأدبائنا، مقابرنا رمل، حين يقصدها الزائر يحتاج إلى دليل، وصبر لمواجهة الموت وهيمنته.

لماذا المبدعون في بلدي مهملون، ولا مزار عالمي لهم بقصده السائح؟ بعض تماثيل من شلال ابداع عراقي مهمل!

انتقلنا إلى المسجد؛ الذي بُني تكريماً للجنود المسلمين الذين دافعوا عن فرنسا خلال الحروب العالمية، يمتاز بمئذنته العالية المزخرفة، والمصلى بأعمدته المتعددة، المفروش بالسجاد الأحمر الطويل، كرسي المصلى من الخشب الراقي أهده "الملك فاروق الأول" ملك مصر، إضافة إلى الرواق الواسع.

قال "آرثر": هل أزهرت غابات روحك؟

- ليس بعد، ليس بعد يا صديقي.

أول مرة أرى ظلي مهمومًا، كلما سألته عن أحواله وسبب وجومه، لا يرد، يصمت، بل يغادرني إلى مكان آخر.

- لنمرح الليلة في (الشانزليزيه) ما رأيك صديقي؟

- فكرة سديدة. لنمشي، ونطلق أقدامنا وأرواحنا وأفكارنا هناك.

أوحى لي كلامه أنه حزين لفراقي، سيغادر معي لا أدري، وأنا أحاول الحصول على من يشتري مني ساعتى وخاتمي، كان يتهرّب، معللاً أننا سنحجز معًا.

تجولنا من مقهى لآخر، ومن عرض على الهواء الطلق لعناق آخر، الإبداع هنا يحفز الجميع على الرقص، موسيقى المقاهي والمطاعم تطلق الأجنحة؛ فلا يتردد أحد عن الطيران، الكل متصالح مع نفسه.

رقصنا ونحن نذر الشارع، أطلقنا مزحًا ماجنة، لأول مرة نكون هكذا، كان "آرثر" يمسك بيدي، ويضحك بأعلى صوته، اتّصل بالباقيين؛ حضروا يطلقون الفرح والضجيج والانطلاق، شعرت أنهم يعلمون ما لا علم لي به.

هل جاءوا لتوديعي؟ كيف عرفوا؟ حتمًا لدى "آرثر" السر.

لم نرجع إلا في منتصف الليل، أنا وصديقي، وظلي منبسط
الأسارير كونه شاهد الحسناوات يرقصن بملابسهن الفتانة
وصدورهن العارية.

غادر كلٌّ إلى مكانه، ورجعت مع "آرثر" للفندق.

ودعني بعناق حتى كدت أشعر بما يدور في خلدّه، وصعد إلى
غرفته.

سرقني التعب والنوم، لم أصحُ إلّا في التاسعة، اغتسلت ونزلت،
لم أجد صديقي ينتظرني.

سألت السيدة في الاستقبال، قالت: ترك لك مظروفًا، وغادر
الفندق الساعة الخامسة.

دخلت المطعم، وعلى عجل فتحت المظروف، يا إلهي! كيف
تخلق مثل هؤلاء الأنقياء؟

وجدت تذكرة ذهاب إلى بغداد باسمي، ومائتي يورو، وورقة
صغيرة مكتوب فيها: لا تتصل بي إلا حين تصل بغداد.

اتّصلت بأصدقائي، سألتهم عنه، قالوا كنا نعرف بتركه الفندق، وهو يسكن في أطراف باريس بحوالي ساعة ونصف الساعة بالقطار.

بكيت، وبكيت، وبكيت، وتحدثت مع "جستين وتوماس وماثيو"، ولم أخرج من الفندق، حتى صباح اليوم الثاني، غادرت مطار (ديغول) متوجّهاً إلى بغداد.

نمت عميقاً في الطائرة، ليس من عادتي ذلك. كنت مرهقاً منّي، ومن "آرثر"، وبغداد، وظلي كان يشخر، والركاب يبحثون عن مصدر الشخير العالي، أنظارهم حولي متوقعين أنا مصدر الصوت المزعج.

عطر مطار بغداد، ورائحة السائق الذي أفلني لشقتي، هما ماركة جديدة كماركات باريس العالمية للعطور، عطرها خطوة القيد والحرية والغضب والحزن والفرح والجمال.

عطرها نجمة مائلة صوبي، تنتظر أن ترفعني وتدخلني محراب القديسين، كلّ ما فيها قبري في مدفنة الضوء.

كانت الشقة صامتة، وكل شيء فيها صامت، فرغت من الجميع،
اتصلت بـ"فيصل" رد بصوت خفوت:

- الحمد لله على سلامتكَ.

قلت له: الآن تأتيني، حتى لو عريان، لا ترتدي ملابسك، تعال
"فيصل" الذي أعرف.

نصف ساعة بين حيرتي وخوفي والمفاجأة، طرق الباب "فيصل"،
عانقني، وبكى بحرقة مخيفة أدخلت الرعب المقيت إلى قلبي.

- لماذا تبكي؟ أين العم "سعود، وجميلة، والطفلين؟"

قال: توفي العم "سعود" منذ عشرة أيام، ولم نخبرك، أمّا "جميلة"
عدت إلى الشقة بعد دفن العم فلم أجدها.

- أين ذهبت؟

رجعت إلى داري، فوجدت زوجتي تتوسط باحتة:

- أنا عرفت بزواجك يا صائد النساء، كنت أريد تلبسها تهمة،
بمجرد ذكر اسمها في المخفر عرفوها، يبدو هي ضيفة دائمة
هناك.

سألته كيف عرفت بـ"جميلة"؟

ساورتها الشكوك من جراء تكرار غيابي؛ فأوصت أخاها مراقبتي،
وتتبع حركاتي، كما راقبت هاتفي، ورسائل "جميلة". لا تنس أن
أخاها شرطي، وله طريقته في تقصي الأخبار.

- والطفلان؟

- أرسلتهما لدار رعاية الأيتام، خشيت عليهما من زوجتي.

- غداً أريدهما بشقتي، ولن أكلمك حتى تلغي التابوت في روحك،
وتتفص الغبار عنك.

أطرق رأسه موضحاً أن الأمر حصل دون علمه، جازماً:

- سأسترجع الطفلين حالاً.

كان ظلي، يترصد هوان اللحظة، مثل شجرة شاحبة أوراقها، نكث
نفسه، واقترب مني، في عينيه أشبار بغداد، تفحصتها شبراً شبراً،
ومثل من يمسك الماء بيده، كلمته بصوت عال:

- وأنت، هل ستختار لك ظلاً، فتصبحان ظلاً لظل؟

- لا، سنبقى محاصرين بنا حتى نعثر على "جميلة".

وفي محاولة لتضليل ذاتي بأمان ضائع قلت:

- نعم ما زال حلم القلب نافذة يطل منها وجه "جميلة". يا لشوقنا لعافيتها والنهار!

اتّصلت بـ"آرثر" أشكره، التقت عيوننا ولم نتحدث بكلمة، كان الدعم أقرب من الكلام، كنت أبكي وأضحك، وأمسخ دموعي، واهنة نظرة شكري له، فما قام به لأجلي لا كلمة تليق بهذا الرجل الإنسان!

- أنا في بغداد يا "آرثر"، كلّ الأفعال ناقصة أمامها، الأقوال قضية أخرى أمام بغداد، وصلت ولم أجد "جميلة".

أغلقنا الهاتف على أمل دوام التواصل والعزف، واللقاء بالصحبة و"بسيفاكس".

تكررت محاولات اتّصالي بـ"مالك" لم يرد، وفرحة رجوع الطفلين، وضمهما إلى صدري أنستني أن أتحرى أخباره من "فيصل".

جلسنا نأكل بنهم الفرحة الناقصة من الفرح، والطفلان يلتهمان الدجاج، هنا تجرأت لأسأل عن "مالك"، لكن الضربة الصاعقة كانت كغياب "جميلة".

سألني كيف تعرفت عليه، ومن أين أتيت به، وهل وقعت اتفاقاً وعقداً مع "مالك"؟

قلت له: من المراسلة في التواصل الاجتماعي، اتّصل بي ذات يوم، وأخبرني يسعى لتأسيس مجلة ثقافية اسمها (عودة الروح)، ويريد مني كتابة عن المدن، ويدفع لي كلّ شيء.

- كيف تصدق شخصاً لا تعرفه، ولم تزر مكانه ومقر مجلته؟! هذا اسم وهمي، ومجلته وهمية.

- لكن ما الدافع الذي يجعله ينفق على سفري وإقامتي؟

- لتكتب له ويسجلها باسمه.

- هل تعرف هاتفه أو سكنه؟ وكيف سنصل له؟

- ألهذا الحد كنت أعمى؟! رقم هاتفه معي لكنه اليوم مغلق، ماذا عن وصل المبلغ والتذكرة؟

قال: سنتحرى من شركة الهواتف، لكننا هنا كمن يبحث عن كف ماء، هل تستطيع الإمساك به؟ بمجرد تحريك أصابعك؛ سيتبدد كل شيء.

- مسروق، واكتشفت في رحلتي أنني ما زلتُ مسروقًا يحزه السؤال العقيم.

همس ظلي في أذني:

- الإنسان الذي فيك أعماك، الحيوان فيهم يقظ ومخادع، فضاع جهدك، كم نبهتك لا تريد نصيحة مني، أسماء وهمية وأرقام وهمية للتضليل، والآن كل شيء ممكن ما دام الناس بلا أخلاق، أنت الأعمى فعلاً، قد أغلق إيميله، وتراه غير اسمه، ووضع صورة أخرى لمجهول جديد.

- أكنت تعرفه؟ ولماذا لم تخبرني؟

- هل كنت ستصدقني لو أخبرتك؟

قالها ظلي بعصبية بالغة، وابتعد.

أرفق بي "فيصل" وأرفقت به متأسفًا لما سببت له من مضايقات مع أسرته.

جلس قربي دون أية كلمة، ثم نظر إلى عينيّ الدامعتين:

- نحن في رحلة بقطار النفعيين، هم يتحنون الفرص، وأنت غيرت اسمك، لتصبح ظلًا.

- أنا مناضل، كلّ الطيور الجارحة نهشت بعيني، حتى الفجر الرمادي كان كصخرة "سيزيف" وفي أعلى الجبل، كانوا كلهم، كلهم، كلّ شيء حتى مصارين السمك.

صرخت:

- ما زلتُ في أرجوحة الحلم أهتز.

التصق ظلي بي لدرجة أشعرتني أنه اخترقني:

- وأين "قاسم"؟

أمسك بيدي، وقرّني من مرآة في الصالة

- كلانا ظلٌّ يبحث عن "جميلة".



سيرة مكشفة مختصرة

وفاء عبد الرزاق - مواليد العراق - البصرة.

- المملكة المتحدة - لندن - تليفون: +447557020035

- إيميل: sama_iraq@live.com

- شاعرة وقاصة وروائية.

رئيس ومؤسس المنظمة العالمية للإبداع من أجل السلام المسجلة في بريطانيا

هيئة دولية ذات طابع دبلوماسي.

-LONDON UK N10317793-

المسجلة في:

- مسجلة بالأمم المتحدة/ بوابة شركاء الأمم المتحدة - ٣٢٢٢٤ / ٢٠٢٣.

- مسجلة في البورد البريطاني، بريطانيا - 5617 - لندن/ ٢٠٢٢.

- مسجلة في الأمم المتحدة/ سوق الأمم المتحدة العالمي - ٩٠٦٥٤١ / ٢٠٢٢.

- مسجلة في المفوضية الأوروبية/ بوابة التمويل والاستثمار - ٨٨٤٣٨٧٢١٩ / ٢٠٢٢.

- مسجلة في مركز التراث العالمي/ اليونسكو - ٤٦٥٨٤٤ / ٢٠٢٢.

- مسجلة كعضو في الاتحاد الأوروبي - Noobcqp9 / ٢٠٢٢.

- مسجلة في الأمم المتحدة/ دائرة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والتنمية المستدامة.

- (UN) /234077 /٢٠١٩.

- رئيس تحرير مجلة «رؤى السلام»، للمنظمة العالمية للإبداع من أجل السلام،
المرخصة دوليا لندن، ٢٠٢١.

- مدير مكتب زمالة الإبداع والعلوم الإنسانية ذات الصلة الدولية والدبلوماسية،
لندن، ٢٠٢٢.

- الإشراف العام لمجلة «قطوف الهند»، نيو دلهي، الهند، ٢٠٢٢.

- الإشراف بهيئة التحكيم لمجلة التلميذ الصادرة من وزارة التعليم العالي بولاية جامو
وكشمير، الهند، ٢٠٢٢.

- مستشارة في مجلة «هلال الهند» المحكمة في الهند ٢٠٢١.

- مستشار في مجلة صوت شرق الهند العلمية المحكمة في جامعة غوهاتي قسم اللغة
العربية، ولاية أسام شرق الهند ٢٠١٨.

- مستشار لمجلة «دراسات عربية» المحكمة التي تصدر عن مركز الدراسات العربية
الأفريقية، كلية دراسات اللغة والأدب والثقافة، جامعة جواهر لال نهرو، الهند. ٢٠٢٠.

• الشهادات:

- شهادة أكاديمية شرفية من أكاديمية فيديريكو الثاني، نابولي، إيطاليا، ٢٠١٩.

- شهادة المقام السامي الأكاديمي من الأكاديمية الدولية للكتاب والمفكرين والمتقنين
العرب ٢٠٢١.

- شهادة شرفية كمستشار في التحليل المالي، الأكاديمية العربية الدولية، ٢٠٢٠.

- شهادة شرفية كمستشار مراجعات مالية لدى الأكاديمية العربية الدولية، ٢٠٢٠.
- ماجستير محاسبة في المعايير الدولية لإعداد التقارير المالية، المعهد العربي للدراسات، مصر، ٢٠٢٠.
- دبلوم البحث العلمي، في ثقافة السلام، من الأكاديمية العالمية للسلام والمصدق من الأمم المتحدة، ٢٠١٩.
- دبلوم في المحاسبة المالية، المعهد العربي للدراسات، التابع لجامعة الدول العربية، مصر، ٢٠١٩.
- دبلوم دولي في إعداد معلمي المصحح اللغوي في اللغة العربية للناطقين بغيرها، المعهد الدولي للدراسات، اتحاد المعلمين العرب، مصر، ٢٠٢٠.
- دبلوم إعداد المفاوض الدولي، المنظمة العربية لفض المنازعات، هيئة إعداد القادة بالتعاون مع (المعهد العربي للدراسات) جامعة الدول العربية، مصر، ٢٠٢٠.
- شهادة شرفية كمفاوض دولي من الأكاديمية العالمية للسلام، ٢٠١٩.
- شهادة شرفية في التحكيم الدولي من الأكاديمية العالمية للسلام، ٢٠٢٠.
- دورة في إستراتيجية التنمية البشرية، المعهد الإقليمي للدراسات والتدريب، ٢٠١٩.
- شهادة شرفية في برنامج مستشاري الشؤون السياسية والعلاقات الدبلوماسية والقنصلية، ٢٠١٩.
- شهادة منجز من مركز الحرف للثقافة العربية التابع لجامعة ستراثفورد الأمريكية في الهند، ٢٠١٧.
- دكتوراه منجز من معهد الفارابي للدراسات العليا بقرار جامعي و(مجلس إداري) مكون من أساتذة جامعات متعددة في العراق، ٢٠١٤.

- دكتوراه فخرية من الاتحاد الدولي للدفاع عن حقوق الإنسان العربي وأطفال دول النزاع، ٢٠١٩.

- دكتوراه فخرية، للمنجز الإبداعي، مجلس الأكاديمية الأعلى للسلام، ٢٠١٨.

- دكتوراه فخرية، مركز السلام لحقوق الإنسان. ٢٠١٩.

• أهم الجوائز:

- رُشحت لجائزة نوبل للآداب من جامعة جواهر لال نهرو، الهند، ٢٠٢٢.

- رُشحت لجائزة نوبل للآداب من جامعة السوربون، باريس ٢٠٢٢.

- أهم الشخصيات الريادية المؤثرة لعام ٢٠٢١ من الاتحاد الدولي للمثقفين العرب.

- جائزة رائدة الشعر العربي ٢٠٢٢ .

- رشحت لجائزة التميز الآسيوية العالمية ٢٠٢١.

- رُشحت لجائزة نوبل للآداب من جامعة جواهر لال نهرو، الهند ٢٠٢١.

- نالت جائزة الأوسكار لسيدات رائدات الذي تنظمه جمعية ثقافات بلا حدود بشراكة مع منظمة الأمم المتحدة للفنون عام ٢٠١٩.

- رشحت لجائزة نوبل للآداب لعام ٢٠١٩. من المركز الدولي للترجمة والتدريب التابع للأمم المتحدة.

- رشحت لجائزة نوبل للآداب من مركز الحرف للثقافة العربية في جامعة ستراتفورد الأمريكية من البيت الثقافي العربي في الهند ٢٠١٧.

- رئيسة لجنة الثقافة والآداب والتراث، في الشبكة العربية للتدريب والتنمية البشرية
٢٠١٧.

- فاز ديوانها من مذكرات طفل الحرب ليمثل قارة آسيا في دار لارمتان في برنامجهم
السنوي من القارت الخمس سنة ٢٠٠٩.

• تكريم جامعات عالمية وعربية وعراقية:

جامعة زايد، أبو ظبي/ ممثلة الجامعة العربية في الهند/ وزارة الثقافة العراقية/جامعة
إفري باريس / جامعة جواهر لال نهرو/ جامعة دلهي/ الجامعة الملوية الإسلامية، نيو
دلهي/ جامعة ابن زهر، أغادير، جامعة تارودانت، جامعة، تيزنيت، المغرب/ جامعة
واسط العراق/ جامعة الكوفة، العراق /جامعة البصرة، العراق/ معهد الفارابي للدراسات
العليا، العراق.

• تكريم اتحادات:

الاتحاد العام للأدباء والكتاب، العراق/ اتحاد الأدباء والكتاب مصر/ اتحاد الأدباء
الشارقة/ اتحاد الأدباء، تونس / مركز الحرف للثقافة العربية في جامعة ستراتفورد
الأمريكية، الهند / جمعية المترجمين واللغويين المصريين مع عضوية شرف في حفل تم
برعاية الدكتور حسام الدين مصطفى رئيس الجمعية/ اتحاد الأدباء الدولي، أمريكا/
تكريم وعضوية شرف من النادي الأهلي، البحرين/ مؤسسة المثقف العربي، سيدني -
أستراليا/ متحف الكلمة في إسبانيا) على فوز قصة قصيرة ضمن ٢٠ مشاركة فائزة من
أصل ٣٥٠٠٠ مشارك من حول العالم/ اتحاد الكتاب المصري شعبة الطفل،
الإسكندرية/ مجلس محافظة بابل/ اتحاد الأدباء الشعبيين العرب/ اتحاد الشعراء
الشعبيين العراق/ اتحاد الشعراء الشعبيين، البصرة، الديوانية، العراق/ اتحاد

الموسيقيين، بابل، العراق/ المنتدى الثقافي، لندن/ رابطة الأدباء العرب، العراق/ البيت الثقافي، بابل/ المركز الثقافي العراقي، لندن.

- إضافة إلى تكريمات من مؤسسات متعددة عالمية وعربية وعراقية.

• تكريمات أخرى :

- نالت لقب سفيرة النوايا الحسنة من الأكاديمية العالمية للسلام وممثل الأكاديمية في لندن ٢٠٢٠.

- أبرز الشخصيات الثقافية ودعاة السلام لعام ٢٠١٩، جامعة الأبجدية الدولية للثقافة والسلام.

- أصبحت كأفضل الشخصيات الإبداعية المطورة في العالم لعام ٢٠١٩ من الجهات التالية:

أكاديمية النيل للعلوم الحديثة والتنمية البشرية والبحث العلمي/ ائتلاف من أجل مصر (الرقى بالوطن والمواطنين) / رابطة إبداع العالم العربي والمهجر (باريس- فرنسا) / المركز الدولي للترجمة والتدريبات (التابع للأمم المتحدة).

- أفضل الشخصيات الإنسانية لرؤية منهجية المرأة العربية لعام ٢٠١٩ من الأكاديمية الدولية للدراسات والعلوم الإنسانية، بالتعاون مع الدولية لريادة الأعمال ودعم المرأة، مؤتمر منهجية المرأة في بناء الوطن والأوطان.

- نالت جائزة أميرة الإبداع العالمي من المؤسسة الدولية للسلام والمساواة في كندا ٢٠١٩.

- تمّ اختيارها بمنصب فارسة السلام الإنساني من المجلس الأكاديمي العالمي للسلام .٢٠١٩.
- تمّ تكريمها كأفضل مائة شخصية مؤثرة على مستوى الشرق الأوسط في الأدب العربي من اتّحاد منظمات الشرق الأوسط للحقوق والحريات، مصر، ٢٠١٨.
- سفير الجليل للسلام العالمي في المملكة المتحدة، لندن. ٢٠١٩.
- سفيرة السلام من منظمة الفرات للسلام العالمي. ٢٠١٩.
- تمّ اختيارها كأفضل الشخصيات المؤثرة على مستوى الوطن العربي لعام ٢٠١٨. من أسرة صناع التغيير والتطوير والتدريب.
- نالت جائزة البحث العلمي من الأكاديمي العالمية للسلام. ٢٠١٨.
- مفوضة الاتحاد الدولي للأدباء والشعراء العرب، ٢٠١٨.
- لقبّت بـ: (سيدة الأرض) والشخصية الثقافية لعام ٢٠١٧ من الكلية العالمية لتعزيز الصداقة بين الشعوب.
- سفيرة الثقافة العربية والعالمية للمحبة والسلام بتّشريف من الكلية العالمية للسلام. ٢٠٢٠.
- سفيرة النوايا الحسنة والسلام بين الشعوب من منظمات الشرق الأوسط للحقوق والحريات. ٢٠١٩.
- سفيرة أكاديمية للثقافة العربية في العالم من مركز الحرف للدراسات العربية في جامعة ستراتفورد الأمريكية، البيت الثقافي العربي في الهند. ٢٠١٧.

- سفيرة أكاديمية للسرد العربي من مركز الحرف للثقافة العربية في جامعة ستراثفورد الأمريكية. البيت لثقافي العربي في الهند ٢٠١٧.
- مستشار رابطة إبداع العالم العربي والمهجر في المملكة المتحدة. ٢٠١٨.
- عضو في رابطة مصطفى جمال الدين الأدبية. ٢٠١٩.

• اعتماد تدريس:

- تم اعتماد جميع الأعمال السردية والشعرية في الأكاديمية الليبية للدراسات العليا، طرابلس/جنزور، بإشراف الأستاذة الدكتورة هدى العبيدي، ٢٠٢٢ .
- تمّ اعتماد روايتها (حاموت) المترجمة إلى اللغة الإنجليزية بجامعة، إفري / وجامعة سانكانتا، وجامعة السوربون بباريس. بإشراف الأستاذة الدكتورة أميرة عبد العزيز. ٢٠١٩.
- تمّ اعتماد سيرتها الذاتية والقصص القصيرة جداً (أغلال أخرى) كموضوع كامل في درس الترجمة الأدبية للمرحلة الرابعة قسم اللغة الألمانية كلية اللغات جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور علي عبد المجيد الزبيدي. ٢٠٢٠.
- تمّ اعتماد القصص (في غياب الجواب) نموذجاً في جامعة (هومبولت أونيفرزييتيت تسو) برلين في ألمانيا كلية الفلسفة قسم الدراسات الاستشراقية المقارنة، مقارنة بين قصص الكاتبة والشاعرة "وفاء عبد الرزاق" والكاتب الألماني "انغوشولتسه" وتأثير أسلوبيهما على المترجم، بإشراف الأستاذ الدكتور علي عبد المجيد الزبيدي، ٢٠١٩.
- تمّ تدريس قصصها (في غياب الجواب) في (الأدب المقارن) مع الكاتب الألماني "انغوشولتسه" وفي علم اللغة المقارن (اللغة والأسلوب) في جامعة بغداد، كلية اللغات، قسم اللغة الألمانية، بإشراف الدكتور علي عبد المجيد الزبيدي. ٢٠١٩.

- اعتماد ديوان (من مذكرات طفل الحرب) بعد ترجمته إلى اللغة الفرنسية "دار لارمتان" فرنسا في مشروعها السنوي "من القارات الخمس" على أن يمثل قارة آسيا تحت إشراف البروفيسور "فيليب تانسولان" ٢٠٠٩.
- درست أعمالها الشعرية في الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان ٢٠١٩.
- تمّ اعتماد روايتها (رقصة الجديلة والنهر) مقررًا لبحوث الدراسات العليا جامعة القادسية، العراق، ٢٠١٩.
- تمّ تدريس رواياتها في جامعة بوشهر مدينة بوشهر بإشراف الدكتور علي خضري، ٢٠١٩.
- تمّ تدريس أشعارها في جامعة الخوارزمي طهران، إيران، في الأدب المقارن بإشراف الدكتور "مرتضى زارع" ٢٠١٨.
- تمّ اختيار أشعارها في الأدب المقارن إيران جامعة بيام نور، ٢٠١٨.
- تمّ اختيار ديوانها (مدخل إلى الضوء) ضمن المناهج الدراسية لكلية الآداب، جامعة ابن زهر، المغرب من قبل الدكتور عبد السلام فزازي بعد تقديم للديوان ٢٠١٠.
- ديوان طفل الحرب مقرر في الجامعة العالية، كاليفورنيا، الهند. ٢٠٢٣.

• كتب صادرة عن منجزها:

- تناول منجزها الأدبي الكثير من النقاد عبر دراسات وقراءات نقدية منشورة في مختلف الصحف والمجلات الورقية والإلكترونية، كان آخرها الكتب التالية:
- (المتخيل التعبيري) للدكتور نادر عبد الخالق - مصر / كتاب (فتنازيا النص) للدكتور وليد جاسم الزبيدي - العراق / (الرقص على أوتار الألفاظ) علوان السلطان - العراق /

كتاب تكريم بعنوان (وفاء عبد الرزاق أفق بين التكثيف والتجريب) لمؤسسة المثقف، أستراليا / في السرد البصري (رؤي وتطبيق) للكاتب علوان السلطان - العراق / (تنوع التشكيل وفاعلية الخطاب) للدكتورة إخلاص محمود عبد الله - العراق / (التشكيل الفضائي في الرواية العربية، رواية رقصة الجديلة والنهر) نموذجًا للدكتور زين زكريا الشيخ - الهيئة العامة للكتاب، مصر / (النظريات النقدية الحديثة، مناهج ما بعد الحداثة / ولعبة النرد) الدكتور محمود خليف الحياي - العراق / (دراسات في القصة القصيرة جدًا، شعرية السرد وعتبات العنوان) للدكتور محمد عويد السائر - العراق / (القصيدة وجسدها البنائي) الدكتور محمد عويد السائر - العراق / (أبواب وفاء عبد الرزاق ودلالاتها، دراسة في عنوان القصيدة الشعرية ووسائل تشكيل الخطاب الشعري) في ديوان (البيت يمشي حافيًا)، للدكتور محمد عويد السائر - العراق / (أثر المفارقة في رسم الصورة الشعرية بين عنوان القصيدة وجسدها البنائي)، في ديوان (لا ترثي قامت الكريستال)، للدكتور محمد عويد السائر - العراق / (التجريب في الرواية العراقية النسوية بعد عام ٢٠٠٣) للدكتور سعيد حميد كاظم - العراق / (العلاقة بين النص المرئي والنص المكتوب الشعر والصورة الفوتوغرافية (ديوان أدخل جسدي أدخلكم / صورة وقصيدة أ. د. إسماعيل خلباص وهديل علي كاظم - جامعة واسط العراق / أنماط الشخصيات في رواية دولة شين الدكتور عبدالرحمن مرضي جامعة بغداد / بناء الشخصية الروائية في رواية رقصة الجديلة والنهر الدكتور عدنان محمد - جامعة القادسية - العراق / كتاب من لغة الظل إلى ضوء الشعر، سياقات زجلية / للكاتب محمد رمسيس - المغرب مع مبدعين مغاربة وعرب تناول نصوصي الشعبية / الأدب النسوي المعاصر، الأديب والشاعر محمد خالد النبالي - الأردن / التجريب في روايات وفاء عبدالرزاق، الدكتور عباس أرشد يوسف - العراق / كتاب عن رواية (حاموت) د. وليد جاسم الزبيدي - تغريدات نخلة النقدية - العراق / كتاب دراسة وتحليل شعر وفاء عبدالرزاق، الباحثة خديجة موسوي - إيران / الدكتور حيدر الأسدي في (البصرة أيقونة

الجمال السرمدى)، فاعلية اللون في نصوص الشاعرة "وفاء عبدالرزاق" (اتصال السرد والشعر) / و(تجميل الذات .. تعرية الآخر) في نصوص الشاعرة "وفاء عبدالرزاق"، العراق البصرة / في السرد النسوي الأديب علوان السلطان / المرأة قطب الشعر، علوان السلطان - العراق / قراءات انطباعية في دفاتر الضوء، بين الشعر الشعبي وتجليات الوفاء، الإبداع في قصيدة الشاعرة "وفاء عبدالرزاق"، الأديب رجب الشيخ - العراق / ما قاله النص للدكتور وليد جاسم الزبيدي - العراق / مذكرات الصحيفة، مقالات في الأدب، النقد، السرد، الأستاذ الدكتور محمد عويد السائر - العراق.

• إنتاجها الأدبي ومشاركاته الأكاديمية:

- صدر لها ٥٥ كتابًا في الشعر بشقيه الفصح والشعبي، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جدا، والقصة الشعرية، والرواية والكتب المترجمة.

- نالت العديد من الجوائز العربية والعالمية.

- شاركت في مهرجانات عراقية وعربية وعالمية.

(نالت أعمالها الشعرية والقصصية والروائية، دراسات جامعية، وأطاريح ماجستير ودكتوراه، ودكتوراه دولة، وبحوث ترقية للأستاذية، والبيكولوجيا).

أجيزت عن أعمالها (١١٨) أطروحة عراقية وعربية وعالمية.

- العشرات من الأطروحات التي لم تجز بعد بين الدكتوراه والماجستير في جامعات بلغ عددها الـ ٦١ جامعة لحد اللحظة.

(الجامعات العراقية والعربية والعالمية).

• مستويات دراسة أعمالها:

الدكتوراه، دكتوراه دولة، درجة الأستاذية، وأستاذ مساعد، ماجستير، بكالوريوس / ملاحظة مهمة: في أغلب الجامعات المذكورة، تخرج الباحثون فيها بأطروحات مختلفة، دكتوراه، ماجستير، أستاذية، أستاذ مساعد، ليسانس، ولعدة مرات. في مواضع متنوعة بين الشعر والقصة والرواية. وذلك في 26 جامعة حول العالم.

(الجامعات التي تخرج باحثوها بأعمالها الشعرية والسردية).

أ - (الجامعات العربية):

١ - جامعة تبسة الجزائر. الشعر، القصص، الروايات.

٢ - جامعة بن زهر أغادير، المغرب. الشعر، الرواية.

٣ - جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، الجزائر. القصص والروايات.

٤ - جامعة محمد الشريف مساعدي، الجزائر. الروايات.

٥ - الجامعة الهاشمية، الأردن. الروايات.

٦ - جامعة الحديدة، اليمن. القصص.

٧ - جامعة السويس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الشعر.

٨ - جامعة الإسكندرية، قصص. ماجستير/رواية (آن) دكتوراه.

٩ - جامعة المنيا، مصر روايات. ماجستير.

١٠ - جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، روايات.

١١ - جامعة قالمة ٨ ماي/١٩٤٥ الجزائر. رواية.

١٢- الأكاديمية الليبية للدراسات العليا طرابلس، جنزور.

١٣- جامعة الجنان-لبنان الروايات.

ب- (الجامعات الأجنبية):

١- جامعة إفري، روايات، ٢٠١٩.

٢- جامعة سانكانتا، الروايات، ٢٠١٩.

٣- جامعة السوريون، باريس، رواية (حاموت) باللغة الإنجليزية ٢٠١٩ .

٤- جامعة (هومبولت أونيفرزييتيت تسو) برلين في ألمانيا كلية الفلسفة قسم الدراسات الاستشراقية المقارنة، القصص.

٥- جامعة جواهر لال نهرو، الروايات.

٦- جامعة دلهي الروايات.

٧- جامعة إسلام آباد، باكستان، شعر، قصص.

٨- جامعة الخوارزمي، تدريس أشعار في الأدب المقارن. الدكتور "مرتضى زارع".

٩- جامعة أصفهان، مدينة أصفهان، إيران، روايات.

١٠- جامعة بوشهر، إيران، تدريس الروايات. ويحث، الدكتور "علي خضري".

١١- جامعة خليج فارس، إيران، روايات. شعر.

١٢- جامعة بيام نور، إيران، روايات.

١٣- جامعة لرستان، محافظة لرستان، إيران، شعر، روايات.

- ١٤ - جامعة الرازي، إيران، قصص.
 - ١٥ - جامعة لرستان، روايات.
 - ١٦ - جامعة لرستان، مدينة خرم آباد، الشعر.
 - ١٧ - جامعة (إيلام) مدينة إيلام، إيران، شعر.
 - ١٨ - جامعة بيام نور، مدينة بوشهر، الأدب المقارن.
 - ١٩ - جامعة طهران، إيران، شعر.
 - ٢٠ - جامعة كاليفورنيا، الهند، الروايات.
 - ٢١ - جامعة غور بنغا، بنغال الغربية، القصص.
 - ٢٢ - جامعة دانتشكاه أديان ومذاهب، إيران، الشعر.
 - ٢٣ - جامعة عالية كاليفورنيا، الهند، روايات وشعر.
 - ٢٤ - جامعة الأديان والمذاهب، إيران، الشعر والروايات.
 - ٢٥ - جامعة اللغة العربية، باكستان، قصص.
 - ٢٦ - جامعة قم، روايات.
- ج - (الجامعات العراقية):
- ١ - جامعة بغداد، شعر، قصص، ترجمة.
 - ٢ - جامعة واسط، الشعر.
 - ٣ - جامعة تكريت، قصص، روايات.

- ٤ - جامعة الموصل، الروايات.
- ٥ - جامعة بابل، روايات، قصص، شعر.
- ٦ - جامعة القادسية، روايات.
- ٧ - جامعة ذي قار، شعر، قصص.
- ٨ - جامعة سومر، الروايات.
- ٩ - جامعة الكوفة، الروايات.
- ١٠ - جامعة الأنبار، روايات.
- ١١ - جامعة ديالى، شعر.
- ١٢ - جامعة كركوك، الروايات، والشعر.
- ١٣ - جامعة كربلاء، روايات.
- ١٤ - الجامعة المستنصرية، شعر.
- ١٥ - الجامعة العراقية، روايات.
- ١٦ - جامعة كردستان، الروايات.
- ١٧ - كلية التربية للعلوم الإنسانية / ابن رشد، رواية.
- ١٨ - كلية المنصور الجامعة الشعر.
- ١٩ - جامعة البصرة كلية التربية، القرنة، الروايات ليسانس.
- ٢٠ - جامعة البصرة، روايات.

٢١- جامعة البصرة، شعر.

٢٢- جامعة دهوك، روايات.

• الترجمات لبعض الأشعار:

١- الإنجليزى، الفارسيّة، الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، والتركية، الكوردية، الألمانية، الصربية، الأردية، الأمازيغية.

٢- ترجمت بعض أعمالها الشعرية إلى اللغة الفرنسية في موسوعة السلام العالمي للإبداع.

٣- ترجمت بعض نصوص (من مذكرات طفل الحرب) إلى اللغة التركية ضمن موسوعة السلام للطفل.

• أعمال مترجمة صادرة:

١ - رقصة الجذيلة والنهر - اللغة الإنجليزية - أفاتار للطباعة والنشر - مصر، ٢٠١٩.

٢ - حاموت - اللغة الانجليزية - أفاتار للطباعة والنشر - مصر ٢٠١٩.

(ترجم ديوان من مذكرات طفل الحرب) إلى:

أ - اللغة الإنجليزية، دار صافي أمريكا ٢٠١٦.

ب - اللغة الفرنسية دار لارمتان فرنسا ٢٠٠٩.

ج - اللغة الإسبانية مطبعة انفو - برانت، المغرب. ٢٠١٠.

د - اللغة الإيطالية، دار EDIZIONI ARIANNA ٢٠١٦.

هـ - اللغة الفارسيّة، دار هرمنوتيك ٢٠١٦ .

• ترجمات قصصية:

١- المجموعة القصصية «امرأة بزي جسد» الإنجليزية - أفاتار للطباعة والنشر مصر، ٢٠٢٢.

٢- المجموعة القصصية «امرأة بزي جسد» إلى الفرنسية مطبعة أنورانت، المغرب ٢٠١٠.

* تنويه:

• (ترجمات أخرى صادرة عن الأعمال بواسطة مترجميها)

١- رواية «عشر صلوات للجسد» إلى اللغة الكردية ترجمة: الشاعر والأديب لقمان منصور، ٢٠٢٢.

٢- رواية «رقصة الجديلة والنهر» إلى اللغة الأمازيغية ترجمة: الشاعر والأديب مازيغ يادر ٢٠٢٢.

٣- قصص متنوعة إلى (اللغة المليالمية) إحدى اللغات الهندية كاليكوت" كيرال الهند، ترجمة: الدكتور عبد المجيد إبراهيم، ٢٠٢١.

٤- المجموعة القصصية «المتحولون» إلى (اللغة المليالمية) إحدى اللغات الهندية كاليكوت، كيرالا الهند، ترجمة: الدكتور عبد المجيد إبراهيم، ٢٠٢١.

٥- رواية «رقصة الجديلة والنهر» إلى اللغة الكردية، ترجمة الأديبة روناك شواني، ٢٠١٩.

• ترجمات لم تُطبع بعد :

- ١ - الدواوين الشعرية (أشك حتّى... / صمغ أسود / أدخل جسدي أدخلكم / مدخل إلى الضوء) إلى اللغة الفارسيّة، ترجمة: الدكتور عيسى الدمني، إيران.
- ٢ - رواية «رقصة الجديلة والنهر» إلى اللغة الفارسيّة، ترجمة: الأستاذ عبد العزيز حمادي.
- ٣ - رواية «رقصة الجديلة والنهر» إلى اللغة الأردية.
- ٤ - المجموعة القصصية «الآخرون» إلى اللغة الأردية.
- ٥ - ديوان «لا تُرثي قاماتُ الكريستال» إلى اللغة الإنجليزيّة، ترجمة: رضوان الناجي.
- ٦ - المجموعة القصصية «المتحولون» إلى اللغة الفارسيّة، ترجمة: د. رسول بلاوي.
- ٧ - رواية «آن» إلى اللغة الفارسيّة، ترجمة: دكتور صادق حسن.
- ٨ - رواية «عشر صلوات للجسد»، اللغة الأردية، ترجمة: البروفيسور مجيب الرحمن.
- ٩ - كل الأعمال الشعرية والقصصية والروائية إلى اللغة الصينية.
- ١٠ - كل الأعمال الشعرية والقصصية والروائية إلى اللغة الأردية.
- ١١ - كل الأعمال القصصية إلى اللغة الفرنسية.





المحتوى يُعبر عن رأي المؤلف فقط ولا يُعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

ت: 01271131980 (+2) بريد إلكتروني: z. a. senna@hotmail.com

فيسبوك: #أفاتار_للطباعة_والنشر #بيت_المبدعين_العرب

مُقيّد بسجل الناشرين المصريين برقم (١٠٥٩)



في بناء هندسي - فكري، تسوخ بنا رواية جين بغداد وظلي، لأصنفها ضمن الروايات السايكولوجية، لما فيها من تشظ لا (ازدواجية) شخصية، بل تناسل وتفرخ لشخصيات في شخصية واحدة، وارتباطات في شبكية معقدة من الروابط والعلاقات. بين جذب وطرد عاطفي، بين جنون وعقل، تنتصب نظريات سيجموند فرويد، فلا تقوى على الوقوف والصمود أمام العاهات النفسية والظواهر الجمعية المشوشة حيناً، والمغزاة داخل الرواية، في الرواية يكون لكل شخصية ظلال لا ظل واحد، تتشظى الذات البشرية بحكم الحروب وما أفرزته من قحط وفقر ولصوصية و(حواسم)، و(عشوائيات)، ورموز جديدة تطول وتتقزم ظلالها بين فترة وأخرى، لم يكن (الظل) عند الشخصية صورة واضحة الملامح، بل تكاد أن تكون زئبقية، فتكون طفلاً أو كهلاً... الرواية عمودها الظلال، والمكان، وفقراتها الصحافة ودورها في كشف الحقيقة، وبناء مجتمع جديد واع لقضيته وبقضيته. تضعنا الروائية في مصحتها لغرض العلاج النفسي، لأن في كل متلق ظلال عليه أن يستجمع ذاته، ويؤحد قراره وخطابه، ليرى الوطن صورة أجمل، رواية تفتح نوافذ مستقبل آت تنبئ به الكاتبة بأن القادم أفضل.

د. وليد جاسم الزبيدي

AVAR

أفكار للطباعة والنشر

